عبد الرحمان قارف

يوم كنا عظماء

مشاهد من عظمة المسلمين عبر التاريخ

المثقف

الناشر دار المثقف للنشر والتوزيع
الجزائر- (باتنة)
الطبعة الأولى 1442 هـ - 2021م
الإيداع القانوني: 2021/05
ISBN:978-9947-79-000-0
عنوان العمل: يوم كنا عظماء -مشاهد من عظمة المسلمين عبر التاريخ-
اسم المؤلف: عبد الرحمان قارف.
إخراج: لغويل سيف الدين.
تصميم الغلاف: زكريا رقاب
المدير العام / سميرة منصوري
هاتف / فاكس: 79 47 80 033/ 19 04 68 0770
واتساب: 86 73 49 0675
العنوان: رحى كالانج شارع الكتب القديمة طريق بسكرة-باتنة
البريد الإلكتروني:
elmouthakaf2@gmail.com
صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf

المثقف للنشر والتوزيع
جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلّا بإذن من الناشر

يوم كنا عظماء . .

يوم كنا عظماء..!

كنَّا عظماء.. يوم حملَ رسالةَ الإسلامِ رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه بعد أن ناصروا صاحبها وبايعوه على الموت؛ فسطَّر التاريخ ملاحمهم ومآثرهم بحروفٍ من نور، وشُدِهَ لِعظمتهم وشموخهم أعداءُ الإسلام ماضياً وحاضراً..

كنا عظماء.. يوم خرج من رحم أمتنا أئمةٌ عادلون لم يجد ظلمُ الرعيةِ إلى نفوسهم سبيلاً، وحُكَّامٌ غيُّورون على دينهم فلم يداهنوا فيه ولم يحيدوا عن نصرته؛ فسادت الدولة الإسلاميةُ في عصورهم وتزعَّمت الساحة الدولية في السياسة والحضارة..

كنا عظماء.. يوم أنجبت الأمةُ فرسانا مقاتلين لا يُشقُّ لهم غبار، ومجاهدين أشدَّاء لا يخافون في الله لومة لائم؛ فشرَّقوا براية الجهاد وغرَّبوا، وفتحوا البلدان ومصَّروا الأمصار، وبلَّغوا الدين إلى ملايين البشر في سنواتٍ معدوداتٍ دونما إكراهٍ أو إجبارٍ، وقهروا جيشواً وجحافلاً لا تُحصى عدداً وهم في قلةٍ قليلةٍ يسيرةٍ..

كنا عظماء.. يوم ظهر على أرض الإسلام علماءٌ عاملون مصلحون زهدوا في الدنيا ونصحوا الراعي والرعية، فلم يُغرِهِم جاهُ سلطانٍ ولم يقرعوا بابه قط، ولكن السلاطين هم من كانوا يقرعون أبواب العلماء طلباً للنصح والإرشاد.. ويا لها مِن حظوةٍ نالها السلطان تلك!..

كنا عظماء.. يوم أبدعت عقول المسلمين فأهدوا الحضارةَ الإنسانيةَ من العلوم المادية والميكانيكية والعمرانية ما تُبنى عليه اليوم أغلبُ الابتكارات والاكتشافات التي كذب الغرب عندما نسبها إلى أبنائه فصدَّقه السُّذَّج والمغفلون مِنَّ أمة الإسلام..

كنا عظماء.. يوم كانت المرأة المسلمة تصرخ في بلاد الكفر مستغيثةً مستجيرةً، فيغضب الحاكم المسلم غضبة جيشٍ مُدمدمٍ فلا يُغيث المرأة فحسب، ولكنه يفتح بلاد الكفر تلك فتحاً في رمش العين..

كنا عظماء.. يوم كان خليفة المسلمين أو سلطانُهُم يجلس أمام القاضي مجرَّداً من أبَّهة المُلك والسُّلطة مع خصيمِهِ الفقير من العوام لا فرق بينهما، فيحكُم القاضي لهذا الفقير ضد ذلك السلطان والخليفة..

كنا عظماء.. يوم كان ملوك أوروبا في عصرها المظلم يبتعثون أبناءهم للدراسة في بلاد المسلمين الأندلسية ويعتبرون ذلك مفخرةً ليس بعدها مفخرة..

كنا عظماء.. يوم كان شباب أوروبا يُقلِّدون شباب المسلمين في هندامِهِم، ويتباهون باللغة العربية، ويتثَّقَّفون بالثقافة الإسلامية.. بل ويُعبر الشاب الأوروبي عن حبِّهِ لعشيقته بالعربية قائلاً: «أنَا أُحِبُّكِ»..

إنَّها قصة العظمة باختصار.. وقصة الحضارة باقتصار.. وقصة الأخلاق بإيجاز!

فرحم الله زمناً كنا فيه عظماء!

لماذا التاريخ؟

ليت شعري... كم هم مساكين أولئك الذين يقولون: «مَا لَنَا ومَاضِينَا ونحنُ اليومَ نعيشُ وَاقِعاً مرًّا وحَاضِراً أليمًا؟!».. «أَلَيْسَ الأحْرَى أن نصرفَ نَظَرَنَا عنْ التاريخِ الذي مضى ولا يعودُ ونُركِّز على حَاضِرِنَا ومُسْتَقْبَلِنَا؟!».. «أليْسَ من العَبَثْ الغرقُ في مستنقع «النُّوسْتَالجيَا Nostalgia » وأمَّتُنا تشهدُ ما تشهدُ من مآسي إنسانيةٍ متتاليةٍ وحروبٍ لا تتوقَّف وتخلُّفٍ علميّ وحضاريّ رهيبَيْنِ؟!»..

والواقع أنَّ تفكير هؤلاء القوم تفكير منقوصٌ وسطحيٌّ للغاية!.. بل وتعجب عندما تسمعه من طالب علمٍ أو مثقف!!.

فيا حبَّذا لو أمسكنا بيد أحدهم فنهمس في أذنه ونقول له بلسان الناصح الأمين:

يا مسكين! أما تعلم أنَّك عندما ترجع إلى تاريخك فإنَّك تُصيغ به حاضرك وتستشرف به مستقبلك؛ لأنَّه يُغذِّي الأرواح، ويُهذِّب النفوس، ويشحذ الهمم، ويُعرِّفك بالسنن الإلهية الثابتة في هذا الكون، ويغدق عليك بآلاف القدوات الصالحة من القادة المجاهدين والملوك والعلماء والأتقياء، ويجعلك عزيز النفس عظيم الشأن بين الخلق؟!..

أما تعلم أنَّ تاريخك هو ذاكرة أمتك، والأمة التي لا تلتفت إلى ذاكرتها حريٌّ بها أن تتذيل لائحة الأمم وتبقى حبيسة التخلف، وجديرةٌ أن تنظر إليها الأمم بعين الاحتقار والاستخفاف؟!..

أما تعلم أنَّ تاريخك مستودع لتجارب أمَّتك وخبراتها السابقة، ووعاءٌ لكل ما قدَّمَتْهُ للبشرية في ميادين الحضارة والإدارة والسياسة والعلوم والأخلاق؟!..

أما تعلم أنَّ تاريخ أمتك يُعرِّفك بأعدائك الحقيقين، ومكائدهم ومؤامراتهم التي تتكرر ولا تتوقف، وأهدافهم وغاياتهم الثابتة التي لا تتبدل؟!..

أما تعلم أنَّ تاريخك جزءٌ لا يتجزأ من هويتك وثقافتك وكيانك؟!..

يا مسكين! أما تعلم أنَّ تاريخك فيه من الكنوز والنفائس التي وضعتنا - ولازالت تضعنا- موضعَ الحسد والحقد في أعين أعدائنا، فقاموا بتزوير حقائقه، وطمس معالمه، وتشويه رموزه وعظمائه، وما ذلك إلَّا نتيجة إهمالنا نحن له وجعله في هامش اهتماماتنا؟!..

ثم هاك ما قاله علماؤنا ومفكرونا ومؤرخونا عن التاريخ وأهميته وفائدته..

ماذا قالوا عن التاريخ

- «و لقد رأيت جماعةً ممن يدَّعي المعرفة والدراية، ويظن بنفسه التبحُّر في العلم والرواية، يحتقر التواريخ ويزدريها، ويعرض عنها ويلغيها، ظناً منه أنَّ غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار؛ وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللُّب نظره، وأصبح مخشلباً جوهره، ومن رزقه الله طبعاً سليماً، وهداه صراطاً مستقيماً علم أنَّ فوائدها كثيرة، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة» .

«عز الدين ابن الأثير»

- «و اعلم أنَّ في ذكر السِّير والتاريخ فوائد كثيرة، أهمها فائدتان؛ أحدهما: أنَّه إذا ذكرت سيرة حازمٍ ووصفت عاقبة حاله علمت حسن التدبير واستعمال الحزم، وإن ذكرت سيرة مفرط ووصفت عاقبته خويت من التفريط فيتأدب المسلط، ويعتبر المتذكر، ويتضمن ذلك شحذ صوارم العقول، ويكون روضةً للمتنزه في المنقول.. والثانية: أن يطلع بذلك على عجائب الأمور وتقلبات الزمن، وتصاريف القدر، والنفس تجد راحة بسماع الأخبار» .

«ابن الجوزي»

- «و بعد؛ فإنَّ الفِطَر السليمة، والفِكَر المستقيمة، تستشرف إلى معرفة البدايات، وتشرئب إلى إدراك المنشآت، ومن تدبر مجاري الأقدار، ومبادي الليل والنهار، صار كأنَّه عاصر تلك العصور، وباشر تلك الأمور، وإليه وقعت الإشارة الإلهية، والأمارة الربانية، إلى سيد الأولين والآخرين بقوله تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:120]، وقال سبحانه في كتابه المجيد: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴿١٠٠﴾﴾ [هود:100] في آيات كثيرة وإشارات غزيرة.. فالله تعالى منَّ على نبيّه بما قصَّ عليه من أخبار الأمم في سالف الدهور والأعوام».

«سبط ابن الجوزي»

- «إنَّ صفحات التاريخ مليئة بالدروس، زاخرةٌ بالعبر.. وأمة الإسلام اليوم في حاجة ماسة لقراء تاريخها لتعرف أسباب الضعف والقوة، وتقف على عوامل الانهيار والازدهار.. والأمة التي لا تتقن الاستفادة من ماضيها، لا تُحسن قيادة حاضرها أو صياغة مستقبلها».

«محمد موسى الشريف»

- «إنَّ قراءة التاريخ تُضيف للباحث والقائد والزعيم والملك والرئيس أعمار السابقين، وأما الوعي بالتاريخ فإنَّه يوظف ثمرات هذه القراءة في تغيير الواقع، واستشراف المستقبل، ولذلك يستحيل التقدم وينعدم النهوض عند الذين لا يفقهون ولا يتعرفون على سنن الله وقوانينه وعبره وعظاته من خلال التاريخ».

«علي الصلابي»

- «قد تبين لي بعد دراسة أحسبها مستفيضة، واطِّلاع لا بأس به، أنه لا جديد على الأرض!..فالتاريخ يُكرِّر نفسه بصورة عجيبة.. ونفس الأحداث نراها من جديد رأي العين، فقط باختلاف يسير يكاد لا تعدى الأسماء والأمكنة.. ولذلك فالمتعمق في التاريخ يقرأ ببساطة ما يحدث على وجه الأرض من أمور، ولا يُخدع بسهولة، مهما تفاقمت المؤامرات، ومهما تعددت وسائل المكر والمكيدة.. فهو كأنه فعلاً يرى المستقبل!! إنه يعرف بوضوح أين يضع قدمه، ويعرف كذلك كيف يقود نفسه

ومجتمعه وأمته.. فهو كالشمس الساطعة، تُنير الطريق لأجيال تتلوها أجيال، وقد يمتد أثره إلى يوم تقوم الساعة، كيف لا؟! وقد ذكرنا أنه لا جديد في الأرض..» .

«راغب السرجاني»

- «إنَّ التاريخ هو ذاكرة الأمة، وأعداء الأمة يريدون أن يمحو ذاكرتنا التاريخية بحيث ننفصل عن ماضينا وننسى أمجادنا، ونهيل التراب عن تراثنا وحضارتنا، ونبدأ من الصفر، مثل الأمم التي لا تاريخ لها، فإذا لم يستطيعوا محو ذاكرتنا سعوا إلى إفسادها، فحشوها بمعلوماتٍ خاطئة، أو مقلوبة، أو مزورة، عن رسالة الأمة وحضارتها وتاريخها ورجالها وتراثها. وبهذا تنخلع الأمة من جذورها، ويلعن آخرها أولها، وتمسي بلا جذور وأعماق.. إنَّ تاريخ كل أمة مادةٌ أصلية في تربيتها لأبنائها، ولاسيما إذا كانت أمة ذات تاريخ عتيق ومجيد، وكان لها دورها ورسالتها وأثرها في العالم. على أنَّ الواجب على الأمة أن تتعلم من مآثرها وأمجادها التاريخية، كما تتعلم من أخطائها ونقاط ضعفها».

«يوسف القرضاوي»

- «لقد قالوا كثيراً عن التاريخ وقيمة التاريخ، ولكن أَجمَعُ ما قيل وأَوْجَزُهُ هو: «التاريخ ذاكرة الأمة».. نعم، التاريخ للأمة كالذاكرة للأفراد، ولك أن تتخيل إنساناً فقد الذاكرة-و العياذ بالله- تراه صحيح البدن، قوي البنية لا يشكو علة ولا توكعا، ولكنه لا يملك من أمره شيئاً، ولا يدري من هو؟ ولا كيف نشأ؟ وما علاقته بمن حوله؟.. تخيَّل كيف يكون حاله!».

«عبد العظيم الديب»

- «إنَّ التاريخ ليس مجرد أقاصيص تحكى، ولا هو مجرد تسجيل للوقائع والأحداث.. إنما يُدرس التاريخ للعبرة، ويُدرس للتربية.. تربية الأجيال. ﴿وَلَوْ

شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف:176]».

«محمد قطب»

- «قراءة كتب التاريخ هي عمرُ الإنسان الذي يحيا بتجاربٍ لم يُجرِّبها، وحوادث لم يعِشها، وأكثر الناس معرفةً لتجاربَ لم يرها هو أكثرُهم قراءةً في كتب التاريخ الصحيح، والسُّنَّةُ في الأمم والأفراد ماضيةٌ متشابهةٌ، ليست مختلفةً ولا متباينةً، وكلُّ أحوالٍ اتَّحدت أسبابها فلا بُدَّ أن تتحد نتائجها، وإنما ينفع التاريخُ مَن كان عارفاً بالأسباب المتشابهة ومقدار التباين فيها إن تباينت، فإنَّ اختلاف العواقب يكون بحسب اختلاف الأسباب.. وإنما يغتر بعضُ الناس في عدم الاتعاظ بالتاريخ وتجارب الأمم لأنَّه يجهل الأسباب، ويرى العواقب مختلفة، فيضعُفُ عنده الاعتبار، فيرى ظلمَةً نَجَوْا، وأصحاب عدلٍ قُتِلوا، وفُسَّاقاً ذُكِروا، وصالحين نُسُوا».

«عبد العزيز الطريفي«

- «من الملاحظات الاجتماعية أنَّ للتاريخ دورةً وتسلسلاً، فهو تارةً يسجِّل للأمة مآثر عظيمة ومفاخر كريمة، وهو تارةً أخرى يُلقي عليها دثارها، ليُسلِّمها إلى نومها العميق.. فإذا ما أخذنا هذه الملاحظة بعين الاعتبار تحتَّم علينا في حل مشكلاتنا الاجتماعية أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ، وأن ندرك أوضاعنا، وما يعتوِرنا من عوامل الانحطاط وما ننطوي عليه من أسباب التقدم.. فإذا ما حدَّدنا مكاننا من دورة التاريخ، سهُل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا».

«مالك بن نبي»

بين يدي الكتاب

الحمد لله..

وبعد..

فيا عزيزي القارئ الكريم.. ها أنا ذا أضع بين يديك باقةً عطرةً من تاريخنا أزعم أنَّها ستبعث فيك العزة بالإسلام، والفخر بالإنتساب إليه، فتعلم جيداً أنَّك بإسلامك رقمٌ صعبٌ في هذا العالم الفسيح، وأنَّك بتاريخك لك وزنٌ ثقيل بين بني البشر..

ولا غروا!..

فأنت حفيد العظماء والشرفاء الذين سادوا العالم سيادة العدل والتحضُّر والرفعة!..

ثم اعلم أنَّ ما احتواه هذا الكتاب - على قلَّة ما احتوى- ليس بكاءً على اللبن المسكوب، ولا هو عظٌّ للأصابع ندماً وحسرةً على ما مضى وفات، ولكنه ذكرى وتذكير لأنفسنا بتاريخنا المجيد وماضينا التَّليد ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:55]..

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝﴾ [إبراهيم:5].

وهذا التذكير من شأنه أن يدفعنا للسيرعلى ما سار عليه أسلافنا العظماء يوم انتصروا ورفعوا راية الإسلام وتصدَّروا.. كما أنَّه يدفعنا إلى تجنب السير على ما سار عليه بعضهم يوم أخطأوا وهُزِموا وتقهقروا.

أما أن يكون التذكير بتاريخنا مقتصراً على الفخر بأمجادنا وصنائع عظمائنا، والتسلية بنوادره وطرائفه، والاستمتاع بعجائبه وغرائبه، فهذا مما أبرأ إلى الله منه، وبعيدٌ كل البعد عما أصبوا إليه!.

هذا؛ وقد آثرت أن لا يكون هذا العمل التاريخي المتواضع - دونما ادّعاءٍ للتواضع- مُطوَّلاً، بل موجزاً، ميسوراً، سهل الاستيعاب وخفيف المحمل.. وإلَّا فإنَّ مَشَاهد عظمة المسلمين عبر تاريخنا لا تُحصى، فضلاً عن أن تُحصر في كتابٍ أو مجلَّد، وما في هذا الكتاب - بدون أدنى مبالغة- ما هو إلَّا مغترفٌ من وسط بحرٍ خضم! ولو أني أخَّرتُ الانتهاء منه وصبرت عليه لغرض الزيادة على ما فيه لما كان لذلك حدٌّ ولا نهاية!! ولكن حسبي ما أوردته في ثناياه..

ومما يجدر بي أن أبيّنه حول هذا الكتاب أنني لم آتِ فيه بجديد أو فريد؛ فذلك يحتاج إلى نَفَس كبير، ووقت طويل، وبحث عميق في صفحات التاريخ الإسلامي.. كما أني لم أذكر من المشاهد والقصص والأحداث والتراجم سوى ما كان في إطار السياسة والأخلاق والجهاد والقضاء، ولم آتِ على ذكر ما يتعلق بأمور العلم والاختراع والصناعات والإبداعات العمرانية، ومظاهر الحضارة الإسلامية المادية والجمالية، وغيرها الكثير مما لا يُستطاع حصره، وذاك بسبب قِصَرِ الوقت وحرصي الكامل على الايجاز والاختصار وتقليل صفحات الكتاب على قدر الإمكان، ولعل الله يكتب لنا في قادم الأيام أن نتناول ما لم نتناوله في قادم الصفحات.. فمشاهد عظمة المسلمين أغزر من أن تُجمع أو تحصر في كتاب كهذا!..

وفي الختام.. يقول العلَّامة الثعالبي: «إنَّ أَوَّلَ مَا يَبْدُو مِنْ ضُعْفِ ابْنِ آدَمَ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ كِتَاباً فَيَبِيتُ عِنْدَهُ لَيْلةً إلَّا أَحَبَّ في غَدٍ أَنْ يزيدِ فِيهِ أوْ يُنْقِصَ مِنْهُ.. هَذَا في لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، فَكَيْفَ فِي سِنينَ عَدِيدَةٍ؟!».

ويقول العماد الأصبهاني: «إني رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إنْسَانٌ كِتَاباً في يَوْمِهِ؛ إلَّا قَالَ في غَدِهِ: لَوْ غُير هَذَا لَكَانَ أَحْسَنَ، ولَو زِيدَ كَذَا لَكَانَ يُسْتَحْسَنُ، ولَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ، ولَوْ ترك هَذَا لَكَانَ أَجْمَلَ.. وهَذَا مِنْ أَعْظَمِ العِبر، وهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيلَاءِ النُّقْصِ عَلَى جملَةِ البَشَرِ!!».

و إلى صفحات الكتاب..

أشداء على الكفار

«إنَّ المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً
لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر»

(الحافظ ابن كثير)

يقول الله تعالى في وصف صحابة نبيّه الكرام: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ...﴾[الفتح:29].

ويقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ...﴾ [المائدة:54].

وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً برا بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن[1]!!.

ولكن ها نحن المسلمون نعيش واقعاً مغايراً لما ينبغي أن نكون عليه؛ إذ تسلطت علينا الأممُ أشنع تسلط، ونُكِّل بإخواننا في بقاع الأرض أكبر تنكيل؛ في سوريا والعراق واليمن والشيشان وميانمار لشرقي وأفغانستان والبوسنة وغيرها.. حتى بلغ الهوان منَّا أن ابتُلينا بأخس تلك الأمم وأنذلها وأحقرها وأجبنها على الإطلاق.. ابتُلينا بإخوان القردة والخنازير.. ابتُلينا باليهود!.

(1) انظر: تفسير ابن كثير (360/7).

ثم ظهر علينا مِن حكامنا مَن أَقْدَمَ على موالاة أعداء الأمة، بل وتعاون معهم على حرب دين الله وعباد الله المسلمين، وهو بذلك بعيدٌ كلَّ البعد عن العزة بالإسلام والاستعلاء به على صناديد الكفر والطغيان، وذلك عين الذُّلِّ والهوان!.. لِيَصْدُق فينا قول النبي ﷺ: « يُوشِكُ الأمَمُ أنْ تُدَاعِي عَلَيْكُمْ كَمَا تُدَاعِي الأكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: ومِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِير، ولَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، ولَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، ولَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ الوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! ومَا الوَهَنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنيا وكَرَاهِيَةُ المَوْتِ» [1].

وإذا كنا لم نعِ بعدُ المعنى الحقيقي لكلمة (المهابة) التي ذكرها رسولنا ﷺ في هذا الحديث الخطير، فلنيمِّم وجوهنا القهقرى ونراجع معاً بعض صفحات تاريخنا المشرقة!..

***

معاوية وملك الروم:

كان موت الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب شهر ذي الحجة من سنة (23هـ) حدثاً خطيراً على أمة الإسلام، فبموته كُسِر بابٌ لطالما كان موصداً في وجه الفتن والمصائب والبِدَع، فكانت الفتنة الأولى - بلا نزاع- التي ظهرت هي فتنة مقتل الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان على يد طائفة من دعاة الشر وهو يقرأ القرآن الكريم شهر ذي الحجة من سنة (35هـ).. ثم كثُر الخلاف بين المسلمين وتوالت الفتن الحالكة طوال فترة خلافة سيدنا علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين، ومنها (المصيبة) التي نتجت عن خلاف أمير المؤمنين علي مع والي الشام معاوية حول

(1) صحيح: سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على أهل الإسلام برقم (4297)، وانظر: السلسلة الصحيحة للشيخ العلاَّمة الألباني (2/647-648) رقم (958).

وقت وطريقة تنفيذ القصاص بحق قتلة عثمان، وهي معركة صفين سنة (37هـ)، فجرى ما جرى من أحداث مؤلمة ليس من صلاحيتنا الخوض فيها..

ولكن في خضم تلك الأحداث الساخنة والخلاف الواقع بين سيدنا علي وسيدنا معاوية.. حدث يوماً أن سال لُعاب ملك الروم طمعاً في بعض أراضي المسلمين.

يروي لنا الحافظ العلاَّمة ابن كثير القصةَ فيقول: «فَلَمَّا رَأَى مَلِكُ الرُّومِ اشْتِغَالَ مُعَاوِيَةَ بِحَرْبِ عَلِيٍّ تَدَانَى إلى بَعْضِ البِلَادِ في جُنُودٍ عَظِيمَةٍ وطَمَعَ فِيهِ، فَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ إلَيْهِ:

«و الله لئن لم تنتهِ وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحنَّ أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنَّك من جميع بلادك، ولأضيقنَّ عليك الأرضُ بمار رحُبت!»..

فَعِنْدَ ذَلِكَ خَافَ مَلِكُ الرُّومِ وانْكَفَّ، وبَعَثَ يَطْلُبُ الهدْنَةَ!!» [1].

فأعظِم بها من نخوة وعزَّة وشهامة!!..

فلقد كان ردُّ معاوية على ملك الروم رداً متوقعاً من منطلق عقيدته وشخصيته؛ فابن أبي سفيان رجلٌ عظيمٌ بكل ما تحمله هذه الصفة من معانٍ، وهو من صفوة الصحابة سيادةً وسياسةً وعزةً وحكمةً، كما أنه كان مثالاً رائعاً يُحتذى به للحاكم المسلم القوي الحكيم الذي لا تأخذه أمام أعداء الإسلام لومة لائم..

فما العجب إذاً في ذلك الرد؟!..

هل نعجب لحاكمٍ مسلمٍ لا يرضى أن يتسلط العدو على بلاده ويحشر أنفه في شؤونه؟!..

أم نعجب لشجاعته وبسالته في الرد على العدو؟!..

أم أننا نعجب لخوف العدو من غضب الحاكم المسلم وذعره منه بعد أن حاول التعدي على أراضي المسلمين ونهبها؟!..

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير (119/8).

فيا ليتنا نرى اليوم لا أقول رجلاً كمعاوية، ولكن موقفاً رجولياً واحداً من حاكم مسلم كموقف معاوية من ملك الروم!

***

يا حجاج!

وفي عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كان الحجاج بن يوسف الثقفي عاملاً له على العراق، وقد أهدى إليه ملك جزيرة ياقوت نسوةً وُلِدْنَ في بلاده مسلمات، فأراد بهذا الإهداء أن يتقرب من الحجاج، ولكن بينما السفينة التي تُقِلُّ تلك النسوة تمخر عباب البحر متوجهةً صوب العراق إذ ببعض القراصنة التابعين لثغر التربيل في بلاد السند يتعرضون للسفينة واستولوا عليها وعلى من فيها، ولكن فجأةً يسمع أحد الذين كُتِبَ لهم النجاة من الخطف صوت امرأة من أولئك اللائي يتواجدن في السفينة تُنادي: «يَا حَجَّاجُ!».. فينطلق السَّامعُ فوراً إلى العراق ليُبلِغ الحجاج النداء، فما أن سمع الحجاج الخبر حتى استشاط غضباً وأخذته العزة، وقال: «لَبَّيْكِ!»، ثم أرسل إلى ملك السند (داهر) مُهدِّداً يسأله إطلاق سراح النسوة، فتملص (داهر) وادَّعى عدم قدرته على أولئك اللصوص! وهنا لم يبق أمام الحجاج سوى تسيير الجيوش لا لتأديب اللصوص فحسب، بل وللقضاء على داهر!.. ولا زالت الأيام تمضي والشهور تتوالى حتى فُتِحت بلاد السند كاملةً على يدي محمد بن القاسم وقُضِيَ على الملك (داهر)[1]، كلُّ هذا بسبب امرأةٍ مسلمةٍ أبى المسلمون أن تذهب صرختها أدراج الرياح!!

***

عمر بن عبد العزيز وملك الروم: وكان سيدنا عمر بن عبد العزيز -كما هو مشهورٌ عنه- حريصاً غاية الحرص على أرواح المسلمين في شتى بقاع الأرض، خائفاً

(1) انظر: فتوح البلدان، ص 611-618.

على صغيرهم وكبيرهم، فليس عنده شيءٌ أغلى وأثمن من حياة المسلم، مهما قلَّ شأنه، وبعدت دياره. لذا تراه يتحول إلى إعصار مدمدم على الباطل وأهله إذا ما نُزِفت قطرة دم زكية بغير حق، أو أُهينت كرامته بأي وجه من الوجوه؛ فآنئذٍ تجد الخليفة الرحيم الوديع، كالليث دق دِيس عرينه، فأطلق زئيره الذي يهز كل شيء حوله!..

- بلغه ذات يومٍ عن طريق رسوله إلى ملك الروم أنَّ مسلماً أسيراً قد أذلَّتهُ الرومُ، بأن فرضت عليه طحن الحنطة وخبزها كل يوم. فكتب عمر إلى صاحب الروم: «أمَّا بَعْدُ: فَقَدْ بَلَغَني خَبر فُلانٍ بنُ فُلانٍ-فوصف له صفته- وأنَا أُقْسِمُ باللهِ، لَئِنْ لم ترسِلْهُ إليَّ لأَبْعَثَنَّ إلَيْكَ مِنَ الجُنُودِ جُنُوداً يَكُونُ أوَّلها عِنْدَكَ، وآخِرُهَا عِنْدِي!»، فلما رجع إليه الرسول قال: «مَا أَسْرَعَ مَا رَجَعْتَ!»، فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه قال: «مَا كُنَّا لِنَحْمِلَ الصَّالِحَ عَلَى هَذَا، بَلْ نَبْعَثُ إلَيْهِ بِهِ!».
- وقريبٌ منه هذا النبأ: أُخبر أمير المؤمنين بأنَّ أحد جند الإسلام البواسل، ممن كانوا يُحاصرون القسطنطينية، وكان مقاتلًا شديد البأس؛ قد وقع أسيراً في يد الرومان، وحُمل إلى الإمبراطور، فحاول إكراهه على الخروج من الإسلام، فتأبى المسلم الأسير عليه، فأمر الطاغيةُ أن تُسمل عيناه!.. فما أن وصل النبأ إلى عمر حتى وجَّه كتاباً عاصفاً مختصراً، قال فيه: «أمَّا بَعْدُ: فَقَدْ بَلَغَني مَا صَنَعْتَ بِأسِيركَ فُلانْ، وإني أُقْسِمُ بِاللهِ، لَئِنْ لَم ترسِلْهُ إليَّ مِنْ فَوْرِكَ لأَبْعَثَنَّ إلَيْكَ مِنَ الجنْدِ مَا يَكُونُ أوَّلهُمْ عِنْدَكَ وآخِرُهُمْ عِنْدِي»!!..فارتعدت فرائص ملك الروم، وارتجف لهذه الكلمات العُمرية التي تضطرم بعزة الإسلام، فما لبث أن خلَّى سبيل المسلم الأسير، فعاد إلى أهله ووطنه.

وهذه العزة إنما اكتسبها أمير المؤمنين والمسلمون معه من الاعتزاز بدينهم، ورفعهم راية الجهاد ضد شعارات الكفر بكل صورها. ومن يوم تخلينا عن اعتزازنا بديننا، تخلت عنا العزة، وجُعِل الصغار علينا، وانعكس الأمر، فأصبحنا نُهدَّدُ من كل

صليبي ماكر حاقد، فترتعد لزمجرته الفرائص! ولن تعود لنا عزتنا ووجاهتنا حتى نتمسك بما تمسك به آباؤنا الغرّ الميامين [1].

***

هارون الرشيد وملك الروم:

وفي أواخر القرن الثاني للهجرة (أواخر القرن الثامن للميلاد) كان على عرش الروم امرأةٌ وافرة الذكاء والعزم هي الإمبراطورة رني- أو: إيريني- الملقبة بـ(أغسطه)، زوج الإمبراطور ليون الرابع، وكانت وصيةً على ولدها قسطنطين أثناء طفولته، فلما كَبر وحاول أن يقبض على زمام السلطة ناوأته وقاومته حتى ظفرت به وزجَّته إلى ظلام السجن؛ فانتهز المسلمون فرصة هذه الاضطرابات، وغزوا آسيا الصغرى مراراً حتى اقتربوا من شواطئ البوسفور، وقاد هارون الرشيد -و هو يومئذٍ ولي عهد أبيه- بنفسه معظم هذه الغزوات، فاضطرَّت إيريني إلى التماس الصلح، وبعثت رسلها إلى هارون وهو يعسكر بجيشه على مقربةٍ من البوسفور تطلب الصلح والمهادنة فأجابها الرشيد إلى ما طلبت، وعُقِدت بين الفريقين معاهدة تعهَّدت فيها إيريني أن تدفع إلى الخلافة جزيةً سنويةً قدرها (سبعون ألف دينار)، وتبادل الرشيد والإمبراطورة بهذه المناسبة بعض الهدايا والتحف الملوكية..

ولكن في عام (187هـ) نقضت الروم ذلك الصلح المُبرم بين الخليفة العباسي وملكة الروم، وذلك أنَّ الروم عزلوها عنهم وملَّكوا عليهم نقفور (نيكفروس) كبير الخزائن (ديوان الخراج)، فما كاد يجلس على العرش حتى بادر بإعلان الخصومة على الخلافة وبطلان معاهدة الصلح المعقودة ورفض أداء الجزية،و أرسل سفراءه إلى

(1) انظر: عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص 325-326. (بتصرف يسير)

الرشيد يطالبه بما سبق دفعه منها في خطابٍ شديد اللهجة، وينذر بالحرب إذا لم يُجبه، فكتب إلى الرشيد قائلاً:

« من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد؛ فإنَّ الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرّخّ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها؛ لكن ذاك ضعف النساء وحمقُهُنَّ، فإذا قرأت كتابي فاردُدْ ما حصل قِبَلك من أموالها،و افتدِ بنفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك!!».

فلما قرأ الرشيدُ الكتابَ، استفزَّهُ الغضبُ حتى لم يُمكن لأحدٍ أن ينظر إليه، وتفرَّق جلساؤه خوفاً من فضلةِ قولٍ أو فعلٍ تصدر منهم، واستعجم الرأيُ على الوزير من أن يُشير عليه أو يتركه يستبدُّ برأيه دونه، فدعا بدواةٍ وكتب على ظهر الكتاب:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ هَارُون أمِير المُؤمِنينَ إلَى نِقْفُورٍ كَلْبِ الرُّوم! قَد قَرَأْتُ كِتَابَكَ يَا بْنَ الكَافِرَة! والجَوَابُ مَا تراهُ دُونَ أنْ تَسْمَعَهُ. والسَّلام».

ثم سار هارون الرشيد فوراً على رأس جيشٍ ضخمٍ حتى نزل مدينة هرقلة، ففتحها واصطفى ابنة ملكها، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً، وخرَّب وأحرق، فطلب منه نقفور كلب الروم الموادعة على خراج يؤديه إليه في كل سنة، فأجابه الرشيد إلى ذلك..

فلما رجع هارون من غزوته وسار بالرقَّة، نقض نقفور العهد، وخان الميثاق (و هذه عادة النصارى واليهود)، وكان البرد قد اشتدَّ جدًّا، فلم يقدر أحدٌ على أن يجيء فيُخبر الرشيد بذلك لخوفهم على أنفسهم من البرد حتى يخرج فصل الشتاء! [1].

***

وامعتصماه!

وفي زمن الخليفة العباسي المعتصم كان ملك الروم حينها (توفيل بن ميخائيل) قد توغل في أراضي الدولة الإسلامية وأوقع غير ما مرةٍ بالمسلمين، فلما بلغ الخبر المعتصم استعظمه وكبر لديه، وبلغه أنَّ امرأةً هاشميةً صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم:

«وامعتصماه!»

فأجابها وهو جالسٌ على سريره: «لَبَّيْكِ لَبَّيْكِ!»، ونهض من ساعته وصاح في قصره: «النفير النفير!» ثم أشهد القضاة والشهود على ما وقف من الضياع، وكانت صرخة تلك المرأة سببا في غزو المعتصم رحمه الله لمدينة عمورية وفتحها، وتلقين ملك الروم درساً في عواقب الاجتراء على الكبار! وكان ذلك سنة (223هـ) [2].

رُبَّ وَامعتصماه انطلقت - مِلْءَ أفواه الصبايا اليتّمِ

لامست أسماعهم لكنها - لم تلامس نخوةَ المعتصمِ

***

(1) انظر: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام؛ محمد عبد الله عنان، ص212-213، تاريخ الرسل والملوك؛ ابن جرير الطبري (8/307-308)، البداية والنهاية (10/193-194).

(2) انظر: الكامل في التاريخ؛ ابن الأثير (6/40) وما بعدها، تاريخ ابن خلدون (3/327-330).

الحاجب المنصور والأسيرات المسلمات:

وهذه قصة إنقاذ البطل المجاهد في أرض الأندلس الحاجب المنصور بن أبي عامر لثلاثة أسيرات مسلمات، فنوردها على لسان الشيخ المؤرخ أحمد بن محمد المقري التلمساني رحمه الله بأسلوبه البديع وسرده الرفيع.. فيقول:

«.. ومِنْ أوضَحِ الأمورِ هُنَالكَ، وأفْصَحِ الأخبارِ في ذَلكَ، أنَّ أَحَدَ رُسُلِهِ (أي رسل الحاجب المنصور) كان كثير الانْتيابِ لِذلكَ الجَنَابِ، فَسَارَ في بعضِ مَسيراتِهِ إلى غَرْسيَّة صاحبِ البُشكَنْسِ (مملكة نافار) فوالَى في إكرامَهُ، وتنَاهى في بره واحترامِهِ، فطالَت مدَّته فلا متنزَّه إلا مرَّ عَلَيه متفرّجاً، ولا مَنْزلَ إلَّا سَارَ عليهِ مُعرّجاً، فحلَّ في ذلك أكثرَ الكنائسِ هنالكَ، فبينَا هوَ يجولُ في سَاحَتِهَا، ويُجيل العينَ في مساحتِهَا، إذ عُرِضت له امرأةٌ قديمةُ الأسرِ، قويمةٌ على طولِ الكسرِ، فكلَّمتهُ،و عرَّفته بنفسها وأعلمتهُ، وقالت له: «أيرضَى المنْصُورُ أَنْ يَنْسَى بِتَنَعُّمِهِ لبُوسَهَا، ويَتَمَتَّع بِلَبُوسِ العَافِيَةِ وقدْ نَضَتْ لَبُوسُها؟!»، وزعمَت أنَّ لها عِدَّة سنينَ بتلك الكنيسةِ مُحبسةً، وبكلِّ ذلٍّ وصغارٍ ملبسةٌ، وناشدته اللهَ في إنهاءِ قصَّتها، وإبراء غُصَّتها، واسْتَحلفته بأغلظِ الأيْمانِ، و أخذَتْ عَليهِ في ذلك أوْكَد مواثيق الرحمنِ، فلما وصل إلى المنصور عرَّفه بما يجب تعريفه به وإعلامُه، وهو مُصْغٍ إليه حتى تم كلامُه، فلمَّا فرغ قال له المنصور: «هَلْ وَقَفْتَ هُنَاكَ عَلَى أَمْرٍ أَنْكَرْتَهُ، أمْ لَم تَقِفْ عَلَى غَير مَا ذَكَرْتَهُ؟»، فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه إليه، وبالمواثيق التي أخذت عليه، فعَتَبه ولامَهُ، على أن لم يبدأ بها كلامَهُ، ثم أخذ للجهادِ من فَوْرِهِ، وعرض مَنْ مِنَ الأجناد في نجْدِهِ وغَوْرِهِ، وأصبح غازياً على سُرجِهِ، مُباهياً مروان يوم مَرجِهِ، حتى وافى ابن شاجنة في جمعِهِ، فأخذت مهابتُهُ ببصره وسمعِهِ، فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما الجليَّة، ويحلف له بأعظم أليّة، أنَّه ما جنى ذنباً، ولا جفا على مضجع الطاعة جنباً، فنَّف أرساله وقال لهم: «كَانَ قَدْ عَاقَدَني أَنْ لَا يَبْقَى بِبِلادِهِ مَأْسُورَةٌ ولَا مَأْسُورٌ، ولَوْ حَمَلَتْهُ في حَواصِلِهَا النُّسورُ، وقَدْ بَلَغَني بَعْدُ بَقَاءَ فُلانَةِ المسْلِمَةِ في تِلْكَ الكَنيسَةِ، ووَ اللهِ لَا

أَنْتَهِي عَنْ أَرْضِهِ حَتَّى أَكْتَسِحَهَا!»، فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها، وأقسم أنَّه ما أبصرهُنَّ ولا سمع بهنَّ، وأعْلَمَهُ أنَّ الكنيسة التي أشار بعلمها، قد بالغ في هدمها، تحقيقاً لقوله، وتضرَّع إليه في الأخذ في بطوله، فاسْتَحيا منه، وصرف الجيش عنه، وأوصل المرأة إلى نفسِهِ، وألحفَ توحُّشها بأُنسِهِ، وغير من حالها، وعاد بِسَوَاكِبِ نُعماه على جدبها وإمحالها، وحملها إلى قومها، وكحَّلها بما شرد من نومها» [1]!!.

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب؛ أحمد بن محمد المقرِّي (1/403-404).

النصر المعجز

«.. وإني آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإنَّ ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة،لأنَّ عددنا ليس كعددهم، ولا عُدَّتُنا كعُدَّتِهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة!!»

(من رسالة عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص قبل موقعة القادسية)

يقول ربنا ﷻ في سياق قصة طالوت عليه السلام: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾[البقرة:249]..

هكذا.. «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرةً» ..!

فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم مُلاقو الله..

القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار.. ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى؛

ولأنها تُمثِّل القوة الغالبة. قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، مُحطِّم الجبارين، ومُخزي الظالمين وقاهر المتكبرين [1]..

ولقد أثبت التاريخ صِدق تلك القاعدة الباهرة والأساس المعجز في كثير من معارك المسلمين ضد أعدائهم..

فإنَّ كلَّ من اطَّلع على صفحات التاريخ الإسلامي يجد أننا لم ننتصر في معاركنا ضد أعدائنا بكثرة العدد ووفرة الجنود، ولا بحداثة الإمكانيات والتجهيزات والعُدَّة ..

ولكن بماذا؟ بالإيمان العظيم الذي لا تُزعزِعُه الفتن والشبهات، وبقلة المعاصي التي تُهلك كثرتُها الأممَ والمجتمعات، فضلاً عن الجيوش والعساكر!..

فهذه هي الحقيقة التي أربكت المؤرخين غير المسلمين وأعجزتهم قديماً وحديثاً، فلم - ولن- يجدوا تفسيراً لها تقتنِعُ بها عقولُهم، وهم معذورون في ذلك ولا ريب؛ إذ أنه من الصعب جداً على تلك العقول استيعاب القاعدة القرآنية الثابتة: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرةً»..

وقد كان سيدنا الفاروق عمر ﷺ يعي جيداً هذه النقطة، ودائماً ما كان يوصي قادة جيوش المسلمين بحقيقة الأمر، ومن ذلك ما جاء في الرسالة التي بعثها إلى الصحابي المجاهد سعد بن أبي وقاص أمير المسلمين قبل موقعة القادسية الكبرى: «.. وإني آمُرُكَ ومَنْ مَعَكَ أَنْ تَكُونُوا أَشَدَّ احْتراساً مِنَ المَعَاصِي مِنْكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ، فَإِنَّ ذُنُوبَ الجَيْشِ أخْوَفُ عَلَيْهِم مِنْ عَدُوِّهُمْ، وإنَّما يُنْصَرُ المسْلِمُونَ بِمَعْصِيَةِ عَدُوِّهِم للهِ، ولَوْلَا ذَلِكَ لَم تَكُنْ لَنَا بِهِمْ قُوَّة لأنَّ عَدَدَنَا لَيْسَ كَعَدَدِهِمْ، ولا عُدَّتُنا كَعُدَّتِهم، فَإذَا اسْتَوَيْنَا في المعْصِيَةِ كَانَ لهُمْ الفَضْلُ عَلَيْنَا في القُوَّةِ!!».

(1) انظر: في ظلال القرآن؛ سيد قطب (269/2).

وكذلك حدث أن سمع خالد بن الوليد رجلاً من صفوف المسلمين قبل موقعة اليرموك يقول متعجباً: «مَا أَكْثَرَ الرُّومَ وأَقَلَّ المسْلِمِينَ»! فزجره خالدٌ وردَّ عليه قائلاً: «بَلْ مَا أَقَلَّ الرُّومَ وأَكْثَرَ المسْلِمِينَ! إنَّما تُكْثُرُ الجنُودُ بِالنَّصْرِ وتَقِلُّ بِالخِذْلانِ، لَا بِعَدَدِ الرِّجَالِ!!».

ولكن..

إذا ما زاد عدد المسلمين في معركةٍ ما، واغتروا بذلك العدد وأُعجِبوا بالعُدَّة، وظنُّوا أنهم منتصرون لا محالة بسبب ذلك، فحتماً سيكون النصر من نصيب عدوهم!!.. وتلك قاعدةٌ أخرى لا تحتاج لتوضيحٍ أكثر.. فما الهزيمة في (غزوة حنين) المسجَّلة في القرآن الكريم وصحيح الأخبار والروايات سنة (8هـ)، والهزيمة في معركة بلاط الشهداء سنة (114هـ)، والهزيمة في معركة الخندق بقيادة عبد الرحمن الناصر سنة (327هـ)، والهزيمة في معركة العقاب سنة (609هـ)، والهزيمة في معركة ليبانتو البحرية سنة (979هـ)..

ما تلك الهزائم المشهورة في تاريخنا إلا أمثلةٌ قليلةٌ على ذلك!.

فإليك عزيزي القارئ بعض أكبر وأشهر معارك المسلمين في التاريخ التي انتصروا فيها بفضل الله وعونه رغم قلة العدد والعُدَّة..

***

- لقد انتصر المسلمون في غزوة بدر سنة (2هـ) وعددهم ثلاثمائةٍ وبضعة عشرة مجاهداً، إضافةً إلى سبعين جملاً كانوا يعتقبونها، وفَرَسَيْن أحدهما للزبير والأخرى للمقداد.. فيما كان عدد المشركين (1،000) مقاتل، ومعهم مائتا فرسٍ يقودونها!!..
- وانتصروا في غزوة الأحزاب (الخندق) سنة (5هـ) وعدد المجاهدين يومئذٍ لم يتعدَّ الـ(3،000).. فيما كان عدد الأحزاب عشرة آلاف (10،000) مقاتل!!..

- وانتصروا بقيادة خالد بن الوليد في موقعة اليمامة الشهيرة سنة (11هـ) ضد المرتدين من بني حنيفة بقيادة مسيلمة الكذَّاب، وكان عدد المجاهدين نحواً من (11،000) مجاهد.. فيما كان بنو حنيفة في نحو (40،000) مقاتل!!..
- وانتصروا في معركة اليرموك الكبرى سنة (13هـ) وكان عددهم ما بين الـ(36،000) إلى (40،000) مجاهداً على الأكثر.. أما جيش الروم فقد بلغ عدد أفراده (240،000)!!..
- وانتصروا في معركة البُويب ضد الفرس من نفس السنة وعددهم في نحو (8،000) مجاهد.. أمَّا الفرس فقد كانوا في (12،000) مقاتل!!..
- وانتصروا في معركة فتح دمشق وعددهم لم يتجاوز (24،000) أمام الروم الذين ناهز عددهم (185،000).
- وانتصروا في معركة القادسية الكبرى سنة (14هـ) ولم يتعدَّ عدد المجاهدين فيها الـ(33،000).. وفي الجانب الآخر بلغ عدد المقاتلين في جيش الفُرس (120،000)، يليهم من الأتباع والخدم (120،000) آخرون، فالمجموع (240،000)!!.
- وانتصروا في موقعة تستر سنة (17هـ) وعددهم لم يتعدَّ (30،000).. في مواجهة الفرس الذين بلغ عددهم (150،000)!!.
- وانتصروا في موقعة نهاوند سنة (21هـ) وقوام الجيش زُهاء (30،000) مجاهد.. وقوام جيش الفرس زُهاء (150،000) مقاتل!!..
- وانتصروا في موقعة ذات الصواري البحرية انتصاراً باهراً بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان أسطولهم البحري يتألف من مائتي (200) سفينة ونيفاً.. أمَّا أسطول الروم فقد بلغ (500) سفينة، وفي بعض الروايات (1000) سفينة [1] !!..

(1) لا ننسى أنَّ هذه المعركة البحرية هي أولى معارك المسلمين الكبرى في البحر وهم حديثو عهدٍ به!.. وقد وصف المؤرخ البيزنطي (ثيوفانس) هذه المعركة بأنها كانت يرموكاً ثانياً على الروم!!.

- وانتصروا بقيادة طارق بن زياد في معركة وادي برباط (أو: وادي لُكَّة) سنة (92هـ) وكان عدد المجاهدين يومئذٍ (12،000).. فيما كان عدد المقاتلين في صفوف جيش النصارى بقيادة لُذريق يبلغ (100،000)!!..
- وانتصروا بقيادة ألب أرسلان في معركة ملاذكرت سنة (463هـ) بجيشٍ قوامه (20،000) مجاهد.. فيما كان جيش النصارى البيزنطي يتألف مما يزيد عن الـ(200،000)!!.
- وانتصروا في معركة الزَّلَّاقة بقيادة ابن تاشفين سنة (479هـ) وعددهم (30،000).. وفي المقابل بلغ عدد المقاتلين في جيش النصارى بقيادة ألفونسو السادس حسب بعض التقديرات (300،000)، رغم أنَّ المُقلَّ من المؤرخين يذكر أنَّ عددهم (40،000) دارع، ولكل دارعٍ اتباع.. [1]، على أنَّ الثابت هو قلة عدد المسلمين وكثرة عدد النصارى في تلك المعركة الخالدة!!..
- وانتصروا في معركة حِطِّين بقيادة صلاح الدين الأيوبي سنة (583هـ) وعددهم (12،000).. فيما كان عدد الصليبيين زُهاء (50،000) أو يزيدون!!..
- وانتصروا في معركة الأرك بقيادة أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي سنة (591هـ) وقد بلغ عددهم الـ(200،000).. وكان عدد النصارى يزيد عن (300،000)!!..
- وانتصروا في معركة الدونونية بقيادة أبي يوسف يعقوب المنصور المريني سنة (674هـ) وعددهم لم يتجاوز الـ(10،000) مجاهد.. في حين تجاوز عدد النصارى بقيادة دون نونيو دي لاري الـ(20،000)!!..
- وانتصروا بقيادة خير الدين بربروسا في موقعة بروزا البحرية سنة (945هـ) بأسطول يتكون من (122) سفينة تحمل على متنها (22،000) مجاهد.. فيما تكون

(1) انظر: قصة الأندلس (492/2) «هامش».

أسطول القوى الصليبية المتحالفة من (600) سفينة تحمل على متنها زُهاء (60،000)!!..

- وانتصروا في معركة وادي المخازن في زمن السلطان السعدي عبد الملك سنة (986هـ) وعدد المجاهدين في الجيش (40،000) ومعهم (34) مدفعاً.. أمَّا الطرف الآخر وهو الجيش الصليبي البرتغالي فقد تألَّف من (125،000) مقاتل، إضافةً إلى (200) مدفع!!.

أما في تاريخنا المعاصر..

- فقد سحق الأمير عبد القادر الجزائري وما معه إلا (2،000) فارسٍ و(1،000) من المشاة جيشَ الجنرال الفرنسي تريزيل، وكان هذا الأخير يقود فرقةً من الخيَّالة وخمسة آلاف (5،000) جندي وأربعة مدافع جبلية وعدد كبير من المركبات الاحتياطية.. وكان ذلك في موقعة المقطع الشهيرة سنة (1836م).
- و دوَّخ المجاهد الشيخ الليبي عمر المختار الجيوش الإيطالية بأسلحة متواضعة وبأقل عدد من المجاهدين، فانتصر عليهم في غير ما معركةٍ طِوال عشرين سنة من الجهاد..
- وانتصر الأمير المجاهد المغربي عبد الكريم الخطابي في معركة أنوال الخالدة سنة (1339هـ) وما معه إلَّا (3،000) مجاهدٍ يحملون بنادق بدائية بسيطة.. فيما كان جيش الإسبان يتألف من (24،000) مقاتل، مُجَهَّزِين بالأسلحة والمدفعية!!.. فلك أن تتخيل كيف انتصر الخطابي على هذا الجيش الضخم!..

وغيرها الكثير من معارك وغزوات المسلمين الكبرى والمغمورة على حدٍّ سواء عبر التاريخ الإسلامي!.. ولولا حرصي على تقليل صفحات كل مبحثٍ حتى لا يملَّ القارئ أو يضجر لاتيتُ على ذكرِ معارك كبيرة أخرى (و هي بالعشرات!) نشبت في الشرق والغرب، وانتصر المسلمون فيها على أعدائهم رغم قلة العدد والعُدَّة..

لتبقى القاعدة القرآنية الأصيلة.. «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرةً» !!

استقلال القضاء

«و إذا كـان بـين الشـعوب اليـوم مـن يَفخـر باسـتقلال قضـائه، وعزتـه ومضـائه، ففـاخروه يـا شـبابنا بقضـائكم يكـن لكـم الفخـار، وتُعقـد على جبـاهكم تيجـان الغـار، ولكـن لا تنـاموا على المجـد التليد، بل انهضوا فَصِلوه بمجدٍ لكم جديد!»

(الأديب الكبير علي الطنطاوي)

اليوم.. ما أكثر الأبواق المسلمة (الذَّليلة) التي تتغنى بمبدأ استقلالية القضاء وحريته في أوروبا وأمريكا وغيرها من غير بلاد الإسلام!.. في حين أنَّها تبيت تلعن أمَّتها التي كانت في حقبةٍ من حقب التاريخ السالفة موطناً أوحداً للعدل والقسط بين الناس؛ فالكلُّ سواسيةٌ في ميزان القضاء الإسلامي؛ حاكماً ومحكوماً، غنياً وفقيراً، رجلاً وامرأةً!.

فإذا كانت السلطة القضائية في الحضارة الغربية مستقلةً في أعمالها عن السلطتين التنفيذية والتشريعية، وحرَّةً في أحكامها وقراراتها، حتى باتت ملاذاً لكثير من الناس الذين يبغون العدل والإنصاف بين أروقة القضاء.. فهأنذا أُذكِّرُكُم بأنَّ حضارتنا (في ما يزيد عن اثني عشرة قرناً خلت منذ زمن النبوة) كانت تعيش حالةً غير مسبوقةٍ واستثنائيةٍ من الصفاء النفسي والروحي في ظل استقلالية مؤسسات قضائها استقلاليةً تامةً، وحريتها الكاملة في اتخاذ قراراتها وإصدار أحكامها، ومصدرها في ذلك كله شريعتنا الإسلامية الغرَّاء، فكنا السَّبَّاقين بقرونٍ طويلةٍ إلى ما وصلت

إليه الحضارة الغربية اليوم، ولا أرى هذه الأخيرة قادرةً على سبق حضارتنا قطُّ! ﴿...إِوَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ... ﴾ [آل عمران:140].

وبين أيدينا الآن أعظم ما يمكن للبشر أن يصلوا إليه في استقلال القضاء ونزاهته؛ وهو وقوف الخلفاء والحكام والمسؤولين الكبار أمام القُضاة في خصوماتهم - مع الرعية وغيرها- حتى يُحْكَمَ في أمرهم بالعدل؛ فلا هم الذين لهم سلطانٌ على القضاة، ولا هم الذين يقدرون على كسب محاباةٍ أو ميلٍ لجانبهم من أولئك القضاة، ولا هم الذين يجرؤون على الطعن في حكمهم وردِّه! وذلك هو الأمر الذي سطَّرته المؤسسة القضائية الإسلامية في تاريخها بحروفٍ من نور.

وها هي ذي الشواهد..

***

- في عهد الفاروق عمر بن الخطاب حدث أن تخاصم مع الصحابي الجليل أبي بن كعب في ملكية بستان، فحكَّما زيداً بن ثابت، فأتياه في منزله، فلما دخلا عليه قال له عمر: «جِئْنَاكَ لِتَقْضِي بَيْنَنَا؟!» وفي بيته يؤتى الحكم. فتنحَّى له زيد عن صدر فراشه، فقال: «هَا هُنَا يَا أَمِير المؤْمِنِينَ!» فقال عمر: «جُرْتَ يَا زَيْد في أَوَّلِ قَضَائِكَ، ولَكِن أجْلِسْني مَعَ خَصْمِي»، فجلسا بين يديه، فادَّعى أُبيٌّ وأنكر عمر. فقال زيدٌ لأُبي: «أَعْفِ أمِير المؤْمِنِينَ مِنَ اليَمِينِ، ومَا كُنْتُ لأَسْأَلَها لأَحَدٍ غَيرِهِ». فحلف عمر، ثم حلف لا يُدرك زيدٌ القضاء حتى يكون عمر ورجلٌ من عرض المسلمين عنده سواء [1]!!.
- و جاء في (تاريخ دمشق) للحافظ ابن عساكر أنَّ الفاروق أخذ فرساً من رجل على سَوم، فحمل عليه رجلاً فعطب عنده، فخاصمه الرجل فقال: «اجْعَلْ بَيْني

(1) انظر: أخبار القضاة (1/108-109)، السنن الكبرى (10/136).

وبَيْنَكَ رَجُلاً»، فقال الرجل: «فَإني أرْضَى بِشُرَيْحٍ العِرَاقِيّ، فَأَتَوا شُرَيحاً»، فقال شريح لعمر: «أَخَذْتَهُ صَحِيحاً سَلِيماً، فَأَنْتَ لَهُ ضَامِنٌ حَتَّى تردَّهُ صَحِيحاً سَلِيماً»!! فأعجب عمر بن الخطاب، فبعثه قاضياً [1].

- و ذكر الحافظ ابن عساكر-أيضاً- في (تاريخ دمشق)، والحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية) وغيرهما، أنَّ أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب وجد درعه عند رجلٍ نصراني، «فأقبل به إلى شريح يُخاصِمُهُ.. ثم قال: «هَذَا الدِّرْعُ دِرْعِي ولم أَبِعْ ولَمْ أَهَبْ»، فقال شريحٌ للنصراني: «مَا تَقُولُ فِيمَا يَقُولُ أَمِير المؤْمِنِينَ؟» فقال النصراني: «مَا الدِّرعُ إلَّا دِرْعِي، ومَا أَمِير المؤْمِنِينَ عِنْدِي بِكَاذِبٍ»، فالتفت شريحٌ إلى عليٍّ فقال: «يَا أَمِير المؤْمِنِينَ! هَلْ مِن بَيِّنةٍ؟» فضحك علي وقال: «أصَابَ شُرَيْحٌ! مَالِي بَيِّنَة!»، فقضى بها شريحٌ للنصراني، فأخذ النصراني ومشى خُطاً ثم رجع، فقال: «أمَّا أنَا فأَشْهَدُ أنَّ هَذِهِ أحْكَامُ الأنْبِيَاءِ، أمِيرالمؤْمِنِين يُدْنيني إلى قَاضِيهِ يَقْضِي عَلَيْهِ! أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهَ، وأَشْهَدُ أنَّ مُحمَّدًا رَسُولُ اللهِ، الدِّرْعُ واللهِ دِرْعُكَ يَا أمِيرالمؤْمِنِينَ!»[2].

- وكتب أبو جعفرٍ المنصور(ثاني خلفاء الدولة العباسية) إلى سوَّار بن عبد الله قاضي البصرة: « انْظُر الأَرْضَ الَّتِي تُخَاصِمُ فِيهَا فُلَانَ القَائِد، وفُلَانَ التَّاجِر، فَادْفَعْهَا إلى فُلَانٍ القَائِدْ»، فكتب إليه سوَّار: «إنَّ البيِّنة قَدْ قَامَتْ عِنْدِي أنَّها لِفُلانٍ التَّاجِر، فَلَسْتُ أُخْرِجُهَا مِنْ يَدَيْهِ إلَّا بِبَيِّنَةٍ!»، فكتب إليه أبو جعفر: «وَ اللهِ الَّذِي لا إلَهَ إلَّا هُوَ لِتَدْفَعَنَّهَا إلَى فُلانٍ القَائِدِ»، فكتب إليه سوَّار: «وَ اللهِ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ لَا أُخْرِجُهَا مِنْ يَدَيَّ فُلَان التَّاجِرِ إلَّا بِحَقٍّ»، فلما جاءه الكتاب قال أبو جعفر: «ملأتَهَا واللهِ عَدْلاً! صَارَ قُضَاتِي تردُّني إلَى الحَقِّ»!!.

---

(1) انظر: أخبار القضاة (189/2)، تاريخ دمشق (18/23).

(2) تاريخ دمشق (23/23-24)، البداية والنهاية (4/8-5)، وفي حلية الأولياء (4/140-141) أنَّ الخصومة كانت مع يهودي.

- ومن أشهر الخصومات بين الخلفاء والرعية، ما جاء في شكوى الحمَّالين التي رفعوها إلى قاضي المدينة محمد بن عمران الطَّلحي؛ حيث أراد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يمضي بالحمَّالين إلى الشام، لكنهم كرهوا ذلك؛ لمشقَّته، فرفعوا دعوى إلى محمد بن عمران، فاستدعى الخليفةَ المنصور إلى مجلس القضاء، وحذَّر كاتبه أن يُناديه بالخلافة، بل باسمه مجرَّداً! ولما حضر عامله كأحد الأطراف، ولم يقف لاستقباله، ثم قضى للحمَّالين، وبعد ذلك قام للسلام عليه كخليفةٍ وأمير للمؤمنين، وأيَّدهُ أبو جعفر على جميع تصرفاته، وبارك فيه، وأمر له بعشرة آلاف دينار [1] !!.

- ورفع رجلٌ من العامة في الأندلس شكوى ضد عم حاكم البلاد، الحكم بن هشام، رفعها إلى قاضي قضاة الأندلس محمد بن بشير رحمه الله، فلما حضر عم الحكم بين يدي القاضي كان يظن أنَّ علو مكانته وقرابة صلته بابن أخيه حاكم الأندلس ستُسلِمه من القضية، ولكنه صُعِق وهو يسمع أوامر القاضي بأن يقف حذاء خصمه ولا يتكلم حتى يسأله، فلما سمع القاضي لشكوى المدعي وبيّنته على ما قال، سمع إلى الطرف الآخر وهو المدعى عليه، عم الحكم، وطلب منه البيّنَة على ما يقول، فطلب عم الحكم مهلةً، فخرج متجهاً صوب الحكم ليشهد له (وكان الحكم يعلم أنَّ القاضي لن يقبل شهادته!)، فدعا الحكم بفقيهين وكتب شهادته أمامهما وأشهدهما عليها. فلما أبرز عم الحكم شهادة ابن أخيه كبيّنَةٍ أمام القاضي رفضها هذا الأخير! فاستشاط المدعى عليه غضباً وجن جنونه، وراح مغضباً إلى ابن أخيه حاكم الأندلس وملكها، ولا زال الطرفان يتكلمان عن الأمر حتى طلب العم من ابن أخيه أن يعزل القاضي! وهنا قال الحكم بن هشام: «أعُوذُ بِاللهِ! أنَا أَخُونُ المسْلِمِينَ فِي عَـزْلِ مِثْلِـهِ؟ أنَـا عَمِلْـتُ مَـا عَلَيَّ وشَـهِدْتُ لَـكَ، ولِلْقَاضِـي أنْ يَقْبَـلَ الشَّـهَادَةَ أنْ يـردَّهَا!!».. ولما سُئِلَ القاضي بعد ذلك عن سبب ردّه لشهادة الحاكم، قال في فهمٍ

(1) تاريخ دمشق (325،327/32)، تاريخ الخلفاء، ص 431،432.

عميقٍ ونزاهةٍ بالغةٍ: «وَ اللهِ مَا رَدَدْتُها لِنُقْصٍ في عَدَالَتِهِ، ولَكِنْ لابُدَّ مِنَ سُؤَالِ المدَّعَى عَلَيْهِ عَمَّا يَقُولُ الشَّاهِدُ، فَمَنْ كَانَ يَجْرُؤُ عَلَى الطَّعْنِ فِي شَهَادَتِهِ لَوْ قَبِلْتُهَا؟!».

- وطُلِبَ نور الدين زنكي رحمه الله مرَّةً من قِبَلِ أحد المُدَّعين، فما كان من أحد كبار موظَّفيه إلَّا أن دخل عليه ضاحكاً وقال مستهزئاً: «يَقُومُ المَوْلَى إلَى مَجْلِسِ الحُكْمِ!»، فأنكر نور الدين على الرجل سُخريته وقال: «تَسْتَهْزِئ بِطَلَبِي إلَى مَجْلِسِ الحكْمِ؟»، وأردف: يُحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور:51]. ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى أحد أصحابه وقال له: «اِمضِ إلى القَاضِي وسَلِّمْ عَلَيْهِ وقُلْ لَهُ: إني جِئْتُ هَاهُنَا امْتِثَالاً لأَمْرِ الشَّرْعِ»!!.. ويوماً كان نور الدين يلعب الكرة (هوايته المفضلة) في دمشق، فرأى رجلاً من أتباعه يُحدِّث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فأعلمه أنَّ له مع نور الدين مخاصمةً حول بعض الأملاك، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة، فتردَّد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين، ولكن هذا ألحَّ عليه، فلمَّا تبيَّن له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له: «إنَّني قَدْ جِئْتُ مُحَاكِماً فاسْلُكْ مَعِي مَا تَسْلُكُهُ مَعَ غَيري»، فلما حضر المُدَّعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه، وإذ لم يثبت ضده شيءٌ قال للقاضي ولكل الحضور: «هَلْ ثَبَتَ لَهُ عِنْدِي حَقٌّ؟». قالوا: «لا». فقال: «اشْهَدُوا أنَّني قَدْ وَهَبْتُ لَهُ هَذَا المَالَ الَّذِي حَاكَمَني عَلَيْهِ وقَدْ كُنْتُ أعْلَمُ أنَّهُ لا حَقَّ لَهُ عِنْدِي، وإنَّما حَضَرْتُ لَئِلَّا يُظَنَّ أنَّني ظَلَمْتُهُ، فَحَيْثُمَا ظَهَرَ أنَّ الحقَّ لِي وَهَبْتُهُ إيَّاه»[1] !!.

(1) الباهر، لابن الأثير، نقلاً عن: الدولة الزنكية، للدكتور علي الصلابي، ص 232.

- وكان الناصر صلاح الدين الأيوبي يقف بجانب خصمه أمام القضاء دون أن يرى في ذلك حرجاً أو غضاضة؛ لأنَّ الحق في نظره أحقُّ أن يُتَّبع، وقد حدث أن ادَّعى تاجرٌ يُدعى (عمر الخلاطي) على صلاح الدين أنَّه أخذ منه أحد مماليكه ويُدعى (سنقر) واستولى على ما كان لهذا المملوك من ثروةٍ طائلةٍ بدون وجه حق! وعندما تقدَّم التاجر المُدَّعي بظلامته إلى القاضي ابن شداد، أظهر صلاح الدين حلماً كبيراً ورضي أن يقف موقف الخصم من صاحب الدعوى، وأحضر كلٌّ من الطرفين من لديه من شهود وما لديه من أدلةٍ يُثبت بها رأيه، حتى اتَّضح في النهاية عند القاضي كذب الرجل وادعاؤه الباطل على صلاح الدين! ومع كل هذا رفض صلاح الدين أن يترك المُدَّعي يخرج من عنده خائباً، فأمر له بخلعةٍ ومبلغٍ من المال ليدلل على كرمه في مواضع المؤاخذة مع القدرة[1].

- ومن تاريخ العثمانيين نذكر مثول السلطان بايزيد «الصاعقة» أمام القاضي شمس الدين فناري للإدلاء بشهادته في أمرٍ من الأمور، فدخل السلطان المحكمة ووقف أمام القاضي، وقد عقد يديه أمامه كأي شاهد اعتيادي. فرفع القاضي بصره إلى السلطان وأخذ يتطلع إليه بنظرات محتدَّة، قبل أن يقول له: «إنَّ شَهَادَتَكَ لا يُمْكِنُ قُبُولُها؛ ذَلِكَ لأَنَّكَ لا تُؤَدِّي صَلَوَاتِكَ جَمَاعَةً، والشَّخْصُ الَّذِي لا يُؤَدِّي صَلَاتَهَ جَمَاعَةً دُونَ عُذْرٍ شَرْعِيٍّ يُمْكِنُ أنْ يَكْذِبَ في شَهَادَتِهِ!!».. فنزلت كلمات القاضي نزول الصاعقة على مسامع الحاضرين في المحكمة.. وكان هذا اتهاماً كبيراً، بل إهانةً كبيرةً للسلطان بايزيد، فتسمَّر الحاضرون في أماكنهم، وقد أمسكوا بأنفاسهم ينتظرون أن يطير رأس القاضي بإشارةٍ واحدةٍ من السلطان.. ولكن السلطان لم يقل شيئاً، بل استدار وخرج من المحكمة بكل هدوء.. وبعدها مباشرةً أصدر السلطان امراً ببناء

(1) صلاح الدين الأيوبي، ص 235.

جامعٍ ملاصقٍ لقصره، وعندما تم تشييد الجامع بدأ السلطان يؤدي صلواته فيه جماعة [1] !!

- و أمر السلطان محمد الفاتح ببناء أحد الجوامع في عامة الدولة إسطنبول، وكلَّف أحد المعماريين الروم واسمه (اسبلانتي) بالإشراف على بنائه، وكان من بين أوامر السلطان أن تؤتى أعمدة ضخمة ليبدوا هذا الجامع ضخماً، ولكن هذا المعماري- ولسببٍ من الأسباب- أمر بقصِّ هذه الأعمدة وتقصير طولها، فغضب السلطان جداً وقاده الغضب إلى إصدار أمرٍ بقطع يد اسبلانتي!!.. وهنا لم يجد هذا المعماري بدأً من رفع شكوى ضد السلطان إلى الشيخ القاضي صاري خضر جلبي، فلم يتردد الشيخ القاضي في قبول هذه الشكوى واستدعى على الفور السلطان ليحضر بين يديه، ولم يتردد كذلك السلطان في النزول عند أمر القاضي وأتى إلى جلسة المحاكمة، فلما سعى السلطان الفاتح للجلوس على المقعد منعه القاضي من ذلك وأمره بالوقوف إلى جانب خصيمه! فلما سمع القاضي للطرفين (و كان السلطان قد أيَّد كلام المعماري الرومي) تلى الحكم التالي: «حَسْبَ الأَوَامِرِ الشَّرْعِيَّةِ: يَجِبُ قَطْعُ يَدِكَ أَيُّها السُّلْطَان!!».. فذُهِلَ إسبلانتي الرومي وارتجف دهشةً من هذا الحكم الذي نطق به القاضي، فقد كان أقصى ما يتوقعه أن يحكم له القاضي بتعويضٍ مالي. أما أن يحكم له القاضي بقطع يد السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية، والذي كانت أوروبا كلها ترتجف منه رعباً، فكان أمراً وراء الخيال.. وبصوتٍ ذاهل وعبارات متعثرة أخبر الرومي للقاضي بانه يتنازل عن دعواه، وأنَّ ما يرجوه منه هو الحكم له بتعويضٍ ماليٍّ فقط؛ لأنَّ قطع يد السلطان لن يُفيده شيئاً، فحكم له القاضي بعضر قطعٍ نقدية لكل يومٍ طوال حياته، ولكن السلطان قرَّر أن يُعطيه عشرين قطعةً

(1) روائع من التاريخ العثماني، ص 26-27.

نقديةً عن كلِّ يومٍ تعبيراً عن فرحه لخلاصه من حكم قطع اليد، وتعبيراً عن ندمه !!![1]..

وبعد.. فموعدنا مع القضاء الإسلامي قد انتهى، ولكن قصص وقوف الكبار والعظماء أمام القضاة في التاريخ الإسلامي كعدد حبَّات الرمل لا تُحصى، ولو انكبَّ المسلمون اليوم على قراءة تاريخهم والنظر في سير أجدادهم لوجدوا في ذلك الشيء العظيم، ومن ثم لن يشعر أحدٌ منا بمركب النقص أمام الحضارة الغربية الهشَّة.

ولكننا للأسف.. لا نقرأ!!

(1) روائع من التاريخ العثماني، ص 49-51.

مع ملك الصين

« وبعث إلى ملك الصين رُسُلاً يتهدده ويتوعده، ويُقسم بالله لا يرجع حتى يطأ بلاده ويختم ملوكهم وأشرافهم، ويأخذ الجزية منهم أو يدخلوا في الإسلام!!..»

(الحافظ ابن كثير)

«كانت سوق الجهاد قائمةً في عهد بني أمية ليس لهم شغلٌ إلا ذلك، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعباً، لا يتوجه المسلمون إلى قطرٍ من الأقطار إلا أخذوه، وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين، في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه» [1].

ولذلك فقط كثُر في ذلك العهد الزاهر الفاتحون الكبار، والأبطال العظام، فكان من أشهرهم قتيبة بن مسلم الباهلي، وهو الفاتح البطل المشهور الذي لا زال يفتح الله عليه من بلاد المشرق دون أن يُهزَم في معركةٍ قطُّ حتى وصل إلى تخوم الصين، وأرسل إلى ملكه رسلاً يتهدده ويتوعده، ويُقسم بالله لا يرجع حتى يطأ بلاده ويختم ملوكهم وأشرافهم، ويأخذ الجزية منهم، أو يدخلوا في الإسلام، فخاف الملك وأرسل له هدايا وتحفاً وأموالاً كثيرة هدية، وبعث يستعطفه مع قوته وكثرة جنده، بحيث أنَّ ملوك تلك النواحي كلها تؤدي إليه الخراج خوفاً منه!!.

(1) البداية والنهاية (87/9).

***

والمقصود أنه بعد أن فتح الله على يدي قتيبة أقاليم (الشاش) و(فرغانة) سنة (95هـ) جاءه خبر موت الحجاج بن يوسف في شوال من نفس السنة، فحزن قتيبة كثيراً واغتمَّ لفرط المساندة والتأييد الذي كان يتلقاه منه، فولى راجعاً إلى (مرو) في انتظار ما سيأتي به القدر، وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك على علمٍ بالعلاقة الوطيدة التي تربط الرجلين، فقدَّر وقوع نبأ موت الحجَّاج عليه، لذلك واساه وأرسل إليه رسالةً كلها تشجيع وتأييد ليواصل قتيبة مشواره الجهادي الممتاز، فأحدثت هذه المواساة أثراً طيباً في نفس قتيبة، فاستأنف نشاطه من جديد وقصد مدينة (كاشغر) التي قال الإمام الطبري بأنها أدنى مدائن الصين [1]، ففتحها بفضل الله، وبفتحها يكون المسلمون قد وصلوا إلى حدود الصين، وما أدراك ما الصين!!..

أما الآن فلنتابع تفاصيل قصة رُسُل قتيبة إلى ملك الصين معه، وما دار بين الطرفين من كلام..

لما دخل الرسل المسلمون على ملك الصين قال لهم: «مَا أَنْتُمْ؟-وكانوا ثلاثمائة رسولٍ عليهم هيبة-»، فقال الملك لترجمانه: «قُلْ لَهمْ مَا أَنْتُمْ ومَا تريدُونَ؟» فقالوا: «نَحْنُ رُسُلُ قُتَيْبَةَ بنَ مُسْلِمٍ، وهُوَ يَدْعُوكَ إلى الإسْلَامِ، فَإِنْ لَم تَفْعَلْ فَالجِزْيَةَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَالحَرْبَ!» فغضب الملك وأمر بهم إلى دار، فلما كان الغد دعاهم فقال لهم: «كَيْفَ تَكُونُونَ في عِبَادَةِ إلهِكُمْ؟» فصلُّوا الصلاة على عادتهم، فلما ركعوا وسجدوا ضحك منهم، فقال: «كَيْفَ تَكُونُونَ فِي بُيُوتِكُمْ؟» فلبسوا ثياب مهنهم، فأمرهم بالانصراف.

(1) انظر: تاريخ الرسل والملوك، للطبري (500/6).

فلما كان الغد أرسل إليهم فقال: «كَيْفَ تَدْخُلُونَ عَلَى مُلُوكِكُمْ؟» فلبسوا الوشى والعمائم والمطارف ودخلوا على الملك، فقال لهم: «ارْجِعُوا»، فرجعوا، فقال الملك لأصحابه: «كَيْفَ رَأَيْتُمْ هَؤُلاءِ؟» فقالوا: «هَذِهِ أَشْبَهُ برجَالٍ مِنْ تِلْكَ المرَّةِ الأُولَى، وهُمْ أُولَئِكَ».

فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم فقال لهم: «كَيْفَ تَلْقَوْنَ عَدُوَّكُمْ؟» فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا المغافر والبيض وتقلَّدوا السيوف ونكبوا القسي وأخذوا الرماح وركبوا خيولهم ومضوا، فنظر إليه ملك الصين فرأى أمثال الجبال مقبلةً، فلما قربوا منه ركزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوه مشمرين! فقيل لهم: «ارْجِعُوا - وذلك لما دخل قلوب أهل الصين من الخوف منهم- «، فانصرفوا فركبوا خيولهم واختلجوا رماحهم، ثم ساقوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها، فقال الملك لأصحابه: «كَيْفَ ترَوْنَهُمْ؟» فقالوا: «مَا رَأَيْنَا كَهَؤُلاءِ قَطُّ!»، فلما أمسوا بعث إليهم الملك أن «ابْعَثُوا إليَّ زَعِيمَكُمْ وأَفْضَلَكُمْ»، فبعثوا إليه هبيرة [1]، فقال له الملك حين دخل عليه: «قَدْ رَأَيْتُمْ عِظَم مُلْكِي، ولَيْسَ أحَدٌ يَمْنَعُكُمْ مِني، وأَنْتُمْ بِمَنْزِلَةِ البَيْضَاءِ فِي كَفِّي، وأَنَا سَائِلُكَ عَنْ أمْرٍ فَإِنْ تَصْدُقْنِي وإِلَّا قَتَلْتُكَ»، فقال: «سَلْ!»، فقال الملك: «لِمَ صَنَعْتُمْ مَا صَنَعْتُمْ مِنْ زِيٍّ أَوَّل يَوْمٍ والثَّاني والثَّالِثِ؟» فقال: «أمَّا زِيُّنَا أَوَّلَ يَوْمٍ فَهُوَ لِبَاسُنَا في أَهْلِنَا ونِسَائِنَا وطِيبِنَا عِنْدَهُم، وأمَّا مَا فَعَلْنَاهُ ثَاني يَوْمٍ فَهُوَ زِيُّنَا إِذَا دَخَلْنَا عَلَى مُلُوكِنَا، وأمَّا زيَّنا ثَالِثَ يَوْمٍ فَهُوَ إِذَا لَقَيْنَا عَدُوَّنَا». فقال الملك: «مَا أَحْسَنَ مَا دَبرتُم دَهْرَكُمْ! فانصَرِفُوا إلى صَاحِبِكُمْ-يعني قتيبة- وقُولُوا لَهُ يَنْصَرِفْ رَاجِعاً عَنْ بِلادِي، فَإني قَدْ عَرَفْتُ حِرْصَهُ وقِلَّةَ أَصْحَابِهِ، وإِلَّا بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ مَنْ يُهْلِكُكُمْ عَنْ آخِرِكُمْ!» فقال له هبيرة: «تَقُولُونَ لِقُتَيْبَةَ هَذَا؟! فَكَيْفَ يَكُونُ قَلِيلُ الأَصْحَابِ مَنْ أَوَّلُ خَيْلِهِ فِي بِلَادِكَ وآخِرِهَا فِي مَنَابِتِ

(1) وكان هبيرة بن المشمرج الكلابي هذا مفوَّها بسيط اللسان، ذو فطنةٍ ونباهة.

الزَّيْتُونِ؟[1] وكَيْفَ يَكُونُ حَرِيصاً مَنْ خَلَّفَ الدُّنيا قَادِراً عَلَيْهَا، وغَزَاكَ في بِلَادِكَ؟ وأمَّا تَخْوِيفُكَ إيَّانَا بِالقَتْلِ فَإنَّا نَعْلَمُ أنَّ لَنَا أَجَلاً إذَا حَضَرَنَا أكْرَمُهُ عِنْدَنَا القَتْلُ، فَلَسْنَا نَكْرَهُهُ ولَا نَخَافُهُ!» فقال الملك: «فَمَا الَّذِي يرضِي صَاحِبَكُمْ؟» قال: «قَدْ حَلَفَ أنَّه لا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَطَأَ أَرْضَكَ ويَخْتِمَ مُلُوكَكَ ويَجْبِي الجِزْيَةَ مِنْ بِلَادِكَ»، فقال الملك: «أنَا أبر يَمِينَهُ وأُخْرِجُهُ مِنْهَا؛ أُرْسِلُ إلَيْهِ بَترا مِنْ أَرْضِي، وأَرْبَعَ غِلْمَانٍ مِنْ أبْنَاءِ المُلُوكِ، وأُرْسِلُ إلَيْهِ ذَهَباً كَثِيراً وحَرِيراً وثِيَاباً صِينية لا تُقَوَّمُ ولَا يُدْرَى قَدْرُهَا»!..

ثم جرت لهم معهم مقاولات كثيرة، ثم اتفق الحال على أن بعث صِحافاً من ذهب متسعة فيها تراب من أرضه ليطأه قتيبة، وبعث بجماعة من أولاده وأولاد الملوك ليختم رقابهم، وبعث بمالٍ جزيل ليبر بيمين قتيبة، وقيل: إنه بعث بأربعمائة من أولاده وأولاد الملوك، فلما انتهى إلى قتيبة ما أرسله ملك الصين قَبِلَ ذلك منه، وذلك لأنه كان قد انتهى إليه خبر موت الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين، فانكسرت همته لذلك [2].

فكم كانت بدايةً عظيمةً من قتيبة لفتح بلاد الصين!.. وكم كانت نهايةً غير سعيدة منه لما انكسرت عزيمته على فتحها وقَبِلَ ما أرسله إليه ملكها! ولكن الأسوأ من ذلك أنه لم يَطُل الزمان حتى قُتِل قتيبة على أيدي بعض المسلمين في فاجعة تاريخية بكى لها مؤرخونا؛ فإنَّ نهاية بطلٍ فاتحٍ عظيم كقتيبة بن مسلم الباهلي الذي لم تنكسر له راية قطُّ، ووفَّقه الله في مسيرته الجهادية وأيده بنصره أينما حل وارتحل، واجتمع له من العساكر ما لم يجتمع لغيره، وأثنى عليه المؤرخون القدامى

(1) يقصد بلاد الشام.. فانظر يا أخي كيف كنَّا أعزَّاءً بديننا ورسالتنا، أشداءً على الكفار من أعدائنا!.

(2) البداية والنهاية (9/141-142)، تاريخ الرسل والملوك (6/500-504)، وتاريخ ابن خلدون، مختصراً (3/85).

والمعاصرون، واعتبروه من أعظم الفاتحين الذين أنجبتهم الأمة.. أقول إنَّ نهاية رجلٍ كذلك الرجل بطريقة كتلك الطريقة التي لشيءٌ مؤسفٌ ومؤلم كأقصى ما يكون..

فرحمة الله على قتيبة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

العثمانيون والشمال الإفريقي

«اهتمت الدولة العثمانية بالشمال الأفريقي
ووقفت مع حركة الجهاد البحري وقدَّمت لهم
جميع المساعدات المادية والمعنوية»

(المؤرخ الإسلامي علي الصلابي)

لقد اشتهر عن سلاطين الدولة العثمانية دفاعهم المستميت عن كل بقاع العالم الإسلامي وحمايتهم للمسلمين في الشرق وفي الغرب، حتى وإن لم يكونوا تحت حكمهم، فلا يكاد السلطان يسمع عن احتلالٍ لشبر من بلاد الإسلام إلَّا ويصدر أوامره الفورية لردع المحتلين واسترداد ما احتلوه، أو على الأقل تقديم المعونة والمساعدة لتحقيق ذلك، ولا يكاد يسمع نداء المسلمين ونجدتهم إلاَّ ويُلبِّي النداء على وجه السرعة.. وما كلُّ ذلك إلا بسبب شعور العثمانيين بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقهم لحماية حياض الإسلام ونجدة المسلمين ونصرتهم أينما كانوا، فهي الدولة التي تُمثِّلُهم وترفع راية عقيدتهم في الساحة الدولية..

والبداية من تونس..

- قال الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه «نزهة الناظرين» عند ذكر السلطان سليم ولد السلطان سليمان ما نصُّه: « وفي أيامه كان فتح حلق الوادي ببلد تونس المغرب بعد استيلاء النصارى عليها بعد الاختلاف الواقع بين سلاطين المغرب وآل حفص، فصار بعضهم يتقوى على بعض بالإفرنج، وأطمعوهم في بلاد المسلمين فاستولوا عليها وتمكنوا منها وحصنوا الحصون وأحكموا القلاع بحيث أيس المسلمون من فتحها،

وصاروا تحت حكم الإفرنج، وأخذوا مملكة تونس ووضعوا السيف في أهلها، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد، فلما بلغ السلطان سليم ذلك أرسل مائتي غراب (1) مشحونة بالأبطال والمدافع وآلة الحرب وصحبة ذلك سنان باشا وقلج علي باشا، وكانت غزوةً مشهورةً ووقعةً معدودةً من أعظم غزوات بني عثمان يحتاج تفصيلها لمؤلف، فنصر الله المسلمين بعد أن قُتِل منهم عشرة آلاف مع الحصار المديد والقتال الشديد.. ومن العجائب أنَّ الإفرنج كانوا أنشأوا هناك قلعةً منيعةً أقاموا في استحكامها وإتقان بنائها ثلاثةً وأربعين سنة، فافتتحها المسلمون بصحبة الوزير المذكور في ثلاثة وأربعين يوماً من محاصرتها! وذلك سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، ثم خرَّب الوزير القلاع والحصون ولم يبق لها رسمٌ، ووصلت البشائر للسلطان سليم، وكان في نفسه فتح إقليم الأندلس في ثاني سنة فلم يُمهله الأجل رحمه الله.انتهى» (2).

هذا الخبر يُبيّن لنا دور الدولة العثمانية في حماية العالم الإسلامي، فإنَّه مع بُعد بلاد تونس عن عاصمة الدولة العثمانية فإنَّ السلطان سليم قد أهمَّه أمرها لما بلغه استيلاء النصارى عليها، فأرسل لها جيشاً بحرياً قضى على وجود الأعداء فيها وأعادها إلى حكم المسلمين.

إنَّ هذا الاهتمام الكبير من سلاطين آل عثمان ببلاد الإسلام يجعل الأعداء يترددون كثيراً في الهجوم على أي بلدٍ إسلامي وإن كان صغيراً ولا قوة فيه، وهذا من مزايا وجود الدولة الإسلامية الكبرى، فالأشبال في العرين ضعاف وليس بإمكانهم

(1) سفينة.

(2) المختار المصون من أعلام القرون، د/محمد بن حسن بن عقيل موسى، ص 1299-1300، عن كتاب: نشر المثاني، للشيخ محمد القادري.. وهذا الخبر بطبيعة الحال كان بعد ضم العثمانيين لتونس (940هـ/1533م) بأكثر من خمسٍ وثلاثين سنة، ولكنها في ذلك الوقت كانت لا تزال تتعرض للاعتداءات الصليبية.

إنقاذ أنفسهم، ولكن يوشك أن يعود الأسد إلى عرينه فينتقم ممن أوقع الضرر بأشباله وإن بَعُد مكانه (1)..

وإلى جانب تونس فقد كان للعثمانيين-أيضاً- يدٌ بيضاء على الجزائر والمغرب، وخاصة في عهد سليم الأول، ثم عهد ابنه القانوني، ثم عهد سليم الثاني.. وكذلك ليبيا في عهد عبد الحميد الثاني..

- فأما الجزائر فقد أرسل السلطان العثماني سليم الأول المساعدات العسكرية لعملاقي البحرية الإسلامية الأخوين عروج وخير الدين بربروسا بعد نجاحهما في الاستيلاء على ميناء جيجل سنة (1514م)، وذلك بعدما كانت في قبضة الصليبيين الإسبان، ومن هنا ظهر اهتمام الدولة العثمانية الكبير بالأوضاع في الجزائر عن طريق إمداد الأخوين بربروسا ودعمهما بما يلزم، فنجح هذان الأخوان في فتح مدينة الجزائر واتخاذها قاعدةً لتحرير باقي المدن والموانئ الساحلية الجزائرية من الاحتلال الصليبي الإسباني، وبعدها تمت مبايعة خير الدين الذي أصبح محط آمال كثير من أهالي الجزائر الذين ما زالت مدنهم تقع تحت السيطرة الإسبانية.. ولم تكد تمر سنتين على مبايعته حتى بدأ الحزن ينتاب خير الدين بعد استشهاد أخويه عروج وإسحاق، ونتيجةً لذلك فقد زاد ارتباطه بالعثمانيين حتى طلب منه أهل الجزائر إرسال سفارةٍ نيابةً عنه إلى السلطان العثماني من أجل ربط الجزائر بالدولة العثمانية ودخولها تحت مظلتها، وكانت الرسالة التي حملتها السفارة موجهةً باسم القضاة والخطباء والفقهاء والأئمة والتجار والأعيان وجميع سكان مدينة الجزائر العامرة، وهي تفيض بالولاء العميق للدولة العثمانية والاحترام والتقدير نحوها، فلم يتوانَ السلطان سليم الأول لحظةً واحدةً في تلبية طلب الجزائريين، فمنح رتبة (بيلربك) إلى خير الدين الذي أصبح بموجبها واليا للدولة العثمانية على الجزائر وقائداً أعلى للقوات

(1) التاريخ الإسلامي، للحميدي.

المسلحة فيها ممثلاً للسلطان، وبذلك أصبحت الجزائر تحت حكم الدولة العثمانية، وأصبح أيُّ اعتداءٍ خارجي على أراضيها يُعتبر اعتداءً على الدولة، ثم لم تكد تمر سنوات قليلة حتى أصبح الأسطول الإسلامي الجزائري الأسطول الأقوى في حوض البحر الأبيض المتوسط!!

- وأما المغرب فإنه رغم عدم كونها إيالةً تابعةً للدولة العثمانية بيْدَ أنَّ السلاطين العثمانيين كانوا لا يبخلون بتقديم يد العون والمساعدة للمسلمين هناك خلال معاركهم العديدة ضد الصليبيين البرتغاليين أو الإسبان، ومن ذلك تحالفهم في عهد سليم الثاني مع الأخوين السعديين: أبي مروان عبد الملك، وأبي العباس أحمد المنصور (الذهبي) ضد ابن أخيهما الموالي للصليبيين المتوكل على الله بن عبد الله الغالب بالله، وقد اشتهر هذا الأخير بموقفه الخاذل للثوار المسلمين في الأندلس بعدما وعدهم بتقديم المعونة لهم وتلبية استغاثتهم له في مقابل أن يقوموا بثورةٍ على الحكومة الإسبانية الصليبية لتزداد ثقته بهم وصدقهم فيما يصبون إليه، ولكنه -قبَّحه الله- خذلهم وغشَّهم.. ولذلك فإنَّ حاكماً كهذا يجب أن يُخلَع ويزال، وهذا ما أدى لحدوث مواجهةٍ بينه وبين عمَّه عبد الملك ومعه المنصور، فاستطاع عبد الملك إحراز النصر على ابن أخيه ودخل فاس بعدها واستولى عليها، ثم انتصر عليه مرةً ثانيةً على مقربة من سلا، فلما انهزم المتوكل تقهقر وترك عرشه في مراكش التي دخلها عمُّه عبد الملك، ثم راسل المتوكل-كما هو متوقع- ملك البرتغال الصليبي سيباستيان من أجل استرداد عرشه من عمه عبد الملك (و هذا بعد فشله في استقدام ملك إسبانيا فيليب الثاني)، في مقابل التنازل له عن جميع شواطئ المغرب ، فقبل سيباستيان هذا العرض المغري، وجمع جيوشه وتوجَّه بها نحو المغرب، وانضم إليه المتوكل بجيشه الصغير، فدارت هناك أحداث موقعة وادي المخازن الشهيرة التي كتب الله فيها النصر لعبد الملك وأصحابه سنة (986هـ/1578م)، وقد كان للدولة العثمانية فضلٌ كبير في تحقيقه حيث أرسلت الجنود والخبراء الحربيين

للمشاركة في الموقعة الكبيرة، زيادةً على الدعم المسبق الذي قدَّمته لعبد الملك الذي استشهد في الموقعة، ثم من بعده لأخيه المنصور أحمد، ومن هنا توطدت العلاقات بين الدولة العثمانية والمغرب (الدولة السعدية) وإن لم تدخل في حكمها.

- وأما ليبيا فإنه رغم ما بلغته الدولة العثمانية من ضعفٍ ووَهَنٍ غير أنَّ العثمانيين أحاطوها بالاهتمام ووفروا لها الحماية أمام الأطماع الإيطالية الصليبية حتى الرمق الأخير، ويظهر لنا ذلك جلياً في سنوات خلافة عبد الحميد الثاني رحمه الله.. ففي الوقت الذي عزمت فيه القوى الأوروبية الصليبية على غزو الشمال الإفريقي وتقاسمت فيما بينها (كعكتها)، كان الطليان يُتابعون بكثب الأوضاع في البلاد الليبية ويُحدِّقون بها كما تُحدِّق الضباع بفرائسها، وقاموا بإنشاء عشرات المدارس والبنوك وغيرها من المؤسسات الخدمية، وراحوا يُكثفون جهودهم الدبلوماسية في أرجاء أوروبات ابتغاء نيل التفويض والاعتراف بأطماعهم في غزو الأراضي الليبية الإسلامية. فلما ظنوا أن الأمر صار مناسباً لبدء تحركاتهم أعلن الطليان الحرب على الدولة العثمانية، ولكن يبدوا أنَّ أوراقهم قد كُشِفت مبكراً للسلطان الكبير عبد الحميد الثاني الذي جاءته المعلومات الاستخباراتية بمساعي الطليان وأهدافهم وأطماعهم القذرة في ليبيا، فقام رحمه الله باتخاذ التدابير اللازمة أمام تلك الأطماع، وأمدَّ القوات المتواجدة في ليبيا بـ(15،000) جندي، وظلَّ يقِظاً حسَّاساً تجاه التحركات الإيطالية، ويُتابعها شخصياً وبدقة، ويُطالع كل ما يتعلق بالشؤون الليبية بنفسه بواسطة سفير الدولة العثمانية في روما، ووالي طرابلس، مما جعل الإيطاليين يضطرون إلى تأجيل احتلال ليبيا، ولم ينجحوا في ذلك إلا في عهد جمعية الاتحاد والترقي [1]!

(1) انظر: الدولة العثمانية، للصلابي ص 436-437.

فتوحاتنا وفتوحاتهم

«ملكنا فكان العفو منا سجيةً فلما ملكتم
سال بالدم أبطح و ما عجبت هذا التفاوت بيننا
فكل إناءٍ بالذي فيه ينضح»

(الشاعر البغدادي أبو الفوارس شهاب الدين)

تخيَّل معي عزيزي القارئ لو أنَّنا أتينا بالماء ومزجناه بالزيت، ثم هززنا المزيج هزاً حتى تكاد كل قطرة ماء تختلط بأختها من الزيت، فيتشكل بذلك لدينا سائلٌ موحدٌ، ولكن حتى إذا ما زال الهزُّ ينفصل الاثنان فيرجع الماء ماءً والزيت زيتاً..

ثم فلتتخيل معي- من جانب آخر- لو أنَّنا مزجنا الماء بالخل، وفعلنا ما فعلناه سابقاً، أترى المزيج ينفصل مثل سابقه؟!..

طبعا لا!

والمقصود أنَّ هتين الصورتين تكادان أن تكونا من أوضح الصور التي نسوقها هنا لنُشير إلى البون الشاسع بين الفتح الإسلامي والفتح غير الإسلامي لكلِّ مصرٍ من الأمصار، وقطرٍ من الأقطار، على مرِّ القرون والأعصار.

فالصورة الأولى تمثِّل الحال التي تكون عليه البلاد التي يفتحها الفاتحون غير المسلمون عبر التاريخ، لأنَّهم ما داموا لم يفتحوها إلا لنهب البلاد وقتل العباد وإقامة قواعد الظلم والطغيان والاستبداد فيها فإنَّ أهاليها لن يقبلوا بأيِّ حالٍ من الأحوال وجود هذه القوة الفاتحة بينهم، وسيظل التنافر والصراع بين الطرفين مستمراً حتى

يؤول النصر إلى أحدهما، أما أن يحدث التعايش والتفاهم بينهما فهذا من ضروب المستحيل، والتاريخ ما زال حياً ينبض بأمثال تلك الفتوحات العبثية!!.

أما الصورة الثانية فهي تُظهِر لنا جلياً ما يحدث عندما يفتح المسلمون بلداً أو قطراً من المعمورة، فما دامت رسالة الإسلام هي الهدف الأول والأخير الذي يريدونه من هذا الفتح، فإنَّ أهالي البلاد المفتوحة سرعان ما ستأسر هذه الرسالة قلوبهم قبل ألبابهم، فيقبلون بوجود هؤلاء الفاتحين بينهم لأنهم ما جاؤوا ليقتلوا ويخربوا ويُفسدوا، ومن ثم فسيكون من الطبيعي جداً أن يمتزج ويختلط هؤلاء بهؤلاء ليُكوِّنوا مجتمعاً جديداً أساسه الإسلام، هذا الدين الرائع الذي ما عُرِض على بشرٍ إلا انشرح صدره للدخول تحت مظلته التي تسع الجميع!!.

وشتان بين الصورتين، وشتان بين الحالين!

***

- لقد أقام المجوس الساسانيون لهم إمبراطوريةً في بلاد فارس وضمَّت إليها العراق وغيرها، وبقيت على تلك الحال قروناً ذاقت فيها شعوب تلك المناطق صنوف الاستعباد والبطش والقهر، حتى بزغ نور الإسلام وزحفت الكتائب المحمدية فاتحةً لتلك الربوع قطراً بعد قطر، فلم تلبث طويلاً حتى دخل الناسُ هذا الدينَ أفواجاً، وكأنما لم يعرفوا مجوسيةً ولا زرادشتيةً ولا وثنية! بل وخرج من بينهم مجاهدون يُدافعون عن هذا الدين بأنفسهم وأموالهم وأهلهم، فلم يستغرق فتح العراق وفارس كاملتين معاً سوى بضعة عشرة سنةً في خلافتي عمر وعثمان!.. وها هي راية الإسلام لازالت إلى اليوم -و بعد مضي أربعة عشرة قرناً- خفَّاقةً فيهما!!..
- أمَّا الروم فإنهم لما دخلوا بلاد الشام ومصر والشمال الإفريقي أكثروا فيها الفساد، وعتوا عُتُوَ المجرمين الأوغاد، فاستُعْبِدَ الناس فيها أيما استعباد، وعصفت

بهم رياح الضرائب والمكوس، ولكن هاهي جيوش الإسلام تأتي من جزيرة العرب لتدُكَّ جيوش القهر والبطش دكاً، فلم ينقضِ القرن الهجري الأول حتى تنعَّمت شعوب تلك البلاد بنعمة الإسلام، بل وتحولت إلى الدفاع عنه بعدما رأت ذلك واجباً عليها! وأراضيها إلى اليوم أراضٍ إسلامية خالصة!.. فهل بقي للروم شيءٌ اليوم سوى الآثار والعمران؟!

- وعندما استولى القوط الغربيون على بلاد الأندلس زهاء قرنين قبل الفتح الإسلامي، عانى الشعب الأندلسي خلالهما الأمرَّين، ومزَّقه الشقاء والبؤس والذل والحرمان، ولكن في عام (92هـ) بدأ ذلك الشعب يشمُّ رائحة الإسلام الطَّيِّبة بدخول المسلمين الأندلس فاتحين لها، فلم تكد تمرُّ ثلاث سنوات حتى اكتمل الفتح وانتشر الدين، وأحبَّه الأندلسيون حباً جماً!.. وما ذاك إلا بسبب تعطُّش الناس هناك لما يُقيم لهم حياتهم ويمنحهم حقوقهم ويُدخل السعادة الحقيقية في قلوبهم!

- ولما احتلت جحافل الصليبيين الساحل الشامي أواخر القرن الخامس الهجري لم تتوانى في ممارسة أساليب البطش والظلم في حق المسلمين، وارتكبوا المجازر والمذابح دون مبالاة، ولكن كان ذلك مستحيلاً أن يفعله أمثال عماد الدين زنكي أو ابنه نور الدين أو صلاح الدين الذين دوَّن المؤرخون لكل واحدٍ منهم مواقفاً كثيرة لتسامحهم مع أهالي البلاد التي يفتحونها وهم على غير دينهم، حتى أنَّ الكثير من مؤرخي النصارى لم يقدروا على كظم ذهولهم ودهشتهم من صنائع أولئك العظماء الفاتحين الأفذاذ!

- وسطَّر الإرهاب التتري في القرن السابع الهجري كلما اجتاح أرضاً أبشع صور الإبادة لجنس الإنسان والتدمير والتخريب الذي لم يذق طعمه المسلمون فقط، بل ذاقه أيضاً النصارى بمختلف مذاهبهم، فأبادوا الملايين في طريقهم إلى عاصمة الخلافة العباسية بغداد، وفي هذه الأخيرة وحدها قتلوا ما يزيد عن مليون إنسان بين شيوخ وأطفال ونساء ورجال دون تفريق!.. فكيف لنا أن نُقارن بين هذا الفتح

وبين فتح الصحابة والتابعين لهم بإحسان لنفس البلاد!!.. ثم أين أثر الفتح التتري؟ هل خلَّفوا علماً أو حضارةً أو شيئاً نافعاً ملموساً؟!

- وفي الأندلس يتجه الصليبيون الإسبان جنوباً لابتلاع ما تبقى من أراضي الدولة الأندلسية المسلمة في غرناطة وغيرها، فكان أن قامت في خلال ذلك محاكم التفتيش البشعة بحق المسلمين الذين سمَّوْهُم بـ(الموريسكيين) احتقاراً لهم، ولا زالت شهادة المؤرخين حيَّةً تنبض قصصاً تشيب لها الولدان لهول ما تحويه من مشاهد التعذيب والتنكيل، فيا ليت شعري أين هذا الفتح الصليبي الإسباني من الفتح العربي- البربري الإسلامي للأندلس قبل ذلك بأكثر من ثمانية قرون؟!..[1]

- ولما اجتاحت الجيوش الفرنسية النابليونية أرض مصر ارتكبوا فيها الجرائم والمذابح بحق المسلمين، ورغم بقائهم فيها لسنوات إلا أنهم لم يُفلحوا في ترك آثارٍ لهم لكأنهم لم يدخلوها قط! فيما أنَّ الصحابة قبلهم بأكثر من اثني عشر قرناً دخلوها وفتحوها كأسهل ما يكون الفتح، فلم يذبِّحوا إنساناً هناك ولا حيوان، ولكنهم نشروا فيها الإسلام حتى أصبحت قطراً إسلامياً له تاريخه وعراقته!!.. وشتان ما بين الفتحين!

- وقبل ما يقرب الثمانين عاماً اجتاحت الجيوش النازية نصف القارة الأوروبية، ودخلت إلى قلب فرنسا، ولكن أين الآن ما فتحوه؟! لم يبق من ذلك الفتح سوى اللعنات التي لاحقت هتلر حتى بعد مماته، والتعويضات التي لازالت ألمانيا تدفعها لإخوان القردة والخنازير، والذكريات السوداء التي يرويها عجائز وشيوخ أوروبا لأبنائهم وأحفادهم.. فأين هذا الفتح الغبي من الفتح العثماني الخالد قبله

(1) وتبقى الأندلس (إسبانيا والبرتغال) الاستثناء الوحيد من حيث استمرار بقاء الإسلام فيه، ولذلك الاستثناء أسبابٌ وظروفٌ ليس هنا مكان التعرض لها، ولكن على العموم فما زالت هناك آثار إسلامية كثيرة فيها باقية.

لنصف أوروبا الشرقي حيث رفرفت في تلك البقاع راية الإسلام عالياً، وهي الراية التي لا تزال ترفرف اليوم في تلك الربوع الأوروبية [1] المباركة!!

- بل ولقد بقيت فرنسا الصليبية (132) عاماً كاملةً في بلادنا الجزائر سعت خلالها جاهدةً لتنصير المسلمين وفرنسة لسانهم، وارتكبت إلى جانب ذلك مئات المجازر والمذابح التي راح ضحيتها الملايين، ولكن دارت الأيام وأخذت الجزائر استقلالها، ثم ها قد أصبح اليوم 99% من أهلها مسلمون ولله الحمد والمنَّة!.. وأمست محاولات فرنسا الصليبية لتنصير الجزائريين لأكثر من قرن وثلاثين عاماً كالهباء المنثور!.

***

يقول الأديب والشيخ العلَّامة علي الطنطاوي طيَّب الله ثراه: « الفتح الإسلامي أكبر لغزٍ من ألغاز العبقرية، وأروع أحجية من أحاجي النبوغ، وأجلُّ مظهر من مظاهر العظمة في تاريخ البشر. ولقد مرَّت عليه إلى اليوم قرونٌ طويلة، وأعصار مديدة، ارتقى فيها فن الحرب، وتقدم في البشر أشواطاً في كل ميدان من ميادين الحضارة، وغاص المؤرخون في أعماق الحوادث التاريخية، فكشفوا أسرارها وعرفوا أسبابها، فبدت لهم هيِّنةً ضئيلة، بعد أن كانوا يرونها لغزاً لا يُحل، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكشفوا سر الفتوحات الإسلامية ولم يُدركوا كنهها. وستمُرُّ قرونٌ أخرى وأعصار قبل أن يُكشف ذلك السر، وقبل أن يرى تاريخ البشر حادثاً أعجب وأعظم من الفتح الإسلامي » [2].

وفي كلمة جميلةٍ بديعةٍ يقول الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله: « إنَّ حسن الخلق، ولين الجانب، والرحمة بالضعيف، والتسامح مع الجار القريب، تفعله

(1) من الدول التي شملها الفتح العثماني في أوروبا وبقيت مسلمةً موحدةً بالكامل إلى اليوم: تركيا، البوسنة، كوسوفا، ألبانيا، الشيشان وغيرها..و لله الحمد والمنَّة.

(2) فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص 135.

كل أمة في أوقات السلم مهما أوغلت في الهمجية. ولكن حسن المعاملة في الحرب، ولين الجانب مع الأعداء، والرحمة بالنساء والأطفال والشيوخ، والتسامح مع المغلوبين، لا تستطيع كل أمة أن تفعله، ولا يستطيع كل قائدٍ حربي أن يتصف به. إنَّ رؤية الدم تثير الدم، والعداء يؤجج نيران الحقد والغضب، ونشوة النصر تُسكر الفاتحين فتوقعهم في أبشع أنواع التشفي والانتقام، ذلك هو تاريخ الدول قديمها وحديثها، بل هو تاريخ الإنسان منذ سفك قابيل دم أخيه هابيل: ﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّۘ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِۚ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ٢٧﴾ [المائدة:27]. وهنا يضع التاريخ إكليل الخلود على قادة حضارتنا عسكريين ومدنيين، فاتحين وحاكمين، إذ انفردوا من بين عظماء الحضارات كلها بالإنسانية الرحيمة العادلة في أشد المعارك احتداماً، وفي أوقات الحالات التي تحمل على الانتقام والثأر وسفك الدماء، وأقسم لولا أنَّ التاريخ يتحدث عن هذه المعجزة الفريدة في تاريخ الأخلاق الحربية بصدق لا مجال للشك فيه، لقُلتُ إنَّها خرافةٌ من الخرافات، وأسطورة لا ظل لها على الأرض!» [1].

فما أروع الإسلام! وما أروع ما جاء به!.. وما أعظم أجدادنا الفاتحين! وما أعظم ما خلَّد التاريخ عن فتوحاتهم!

وباختصار: إنَّ دين الله تعالى هو السراج المنير الذي نزل على في حراء، وأمَرَ الله تعالى نبيه والمسلمين بتبليغه إلى كل الأرجاء، ليهتدي الناس بهُدَاه وتستنير حياتهم بنوره، ففعلوا ذلك، وليس لأحد الحق في منع وصوله إلى إلى الناس من الملوك والحكام، فإن فعلوا ذلك فقد وجب على المسلمين قتالهم وردعهم لأنهم يمنعون الناسَ ذلك الخير ومعرفة الحق، فإنَّ الناس إن عرفوا الحق عرفوا الباطل من حولهم ومن ثم سعوا لإزالته.

(1) من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، ص 151-152.

وبهذا تظل فتوحاتنا الإسلامية فريدةً لا تدانيها فتوحات ما سواها.. ومحيرةً لعقول من لا يفهم رسالة الإسلام وتعاليمه!.

اندحار هرقل

«إذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ»

(رسول الله ﷺ)

ذُهِل ملك الروم هرقل وتحير وهو يسمع أخبار انهزام جيوشه واندحارها أمام العرب المسلمين، تأتيه بعد كل معركةٍ يخوضونها ضد أولئك الذين لم يكونوا قبل سنواتٍ سوى قبائل مشتتة تكاد لا تعرف سبيلاً إلى التفاهم فيما بينها، فضلاً عن إقامة دولةٍ لها والسعي لفتح العالم!.. وكأنَّ لسان حاله يقول: «أهؤلاء بشرٌ من الأرض حقاً أم هم ملائكة من السماء؟!»..

«كيف يغزو المسلمون العرب بلادي وأنا هرقل ملك الروم.. ملك أقوى دولة في العالم؟!»..

«أنا هرقل الذي ذاع صيته وركع له الملوك وخضعت له الشعوب، أوَ بعدَ هذا كله تجرؤ شرذمةٌ قليلةٌ من العرب لا مال لهم ولا سلاح، حفاةٌ عراةٌ، على رفع السيوف في وجوهنا وقتالنا! بل ويهزموننا وهم شرذمةٌ قليلون أمام جحافلنا التي لا يُحصى عددها؟!.. لا! لا بدَّ أنَّ هناك سراً ما!»..

وحدث قبل ذلك أن أتت رسالة النبي العربي ﷺ إلى هرقل الذي أمر فوراً الترجمان بقراءة الرسالة، وإذ به يسمع هذا الكلمات التي دوَّت على مسامعه دويَّ الصاعقة [1]:

(1) صحيح: صحيح البخاري (7)، صحيح مسلم (1773).

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولُ الله إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِني أَدْعُوكَ بِدَعْوَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيينَ.. و ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: 64]

وكان هرقل قد دعا في تلك اللحظة أبا سفيان بن حرب (قبل إسلامه) وحاوره حواره الشهير، وفيه عبر هرقل عن استيائه من أن يكون هذا النبي الخاتم قد بُعِثَ في هؤلاء العرب احتقاراً منه لهم واستصغاراً لشأنهم، ولذلك فقد عظُمَ في قلبه أن يُحاربه أولئك العرب!..

لقد كان هرقل ملكاً لأعظم دولة في العالم آنذاك، مناصفةً مع الدولة الفارسية التي كانت تُعتبر القطب الثاني، وكانت بينهما حروبٌ طاحنةٌ سجال، ولكن كان النصر الأخير لصالح جيوش هرقل سنة (6هـ/627م) في معركة نينوى الشهيرة، وبذلك انفردوا نسبياً بالزعامة العالمية على وجه الأرض دون منازع.. ولكن شاء الله تعالى ألاَّ يدوم هذا الانفراد طويلاً حيث ظهر على جزيرة العرب فجأةً جيلٌ عبقريٌ يقوده أعظم قائدٍ في التاريخ اسمه محمد بن عبد الله ﷺ، فكان هرقل ينظر بقلبه بداية النهاية لدولته (التي لا تُقهر!) على أراضي الشام ومصر وما تلاها دون أوروبا، وذلك أنَّه كان عالماً بالكتاب وببعثة هذا النبي الخاتم في جزيرة العرب، فكان يواجهه ويواجه الصحابة من بعده بالجيوش رغم علمه بصدق الرسالة السماوية وصدق أولئك الصحابة في تبلغيها، ولكنه ضنَّ بمُلكِه وأعرض عن الحق!.. وهذا من أكثر حقائق التاريخ غرابةً!!

وعلى كلٍّ؛ فقد أصبح هرقل- حقيقةً لا مجازاً- يعدُّ العدَّ التنازلي قبل النهاية المحتومة أمام جيوش المسلمي!..

ولقد طفح الرعب والخوف في نفس هرقل (الذي كان يقيم ببيت المقدس يومئذٍ بعد انتصاره الشهير على الفرس) كما لم يطفحا من قبل، حيث بمجرد سماعه خبر زحف المسلمين صوب ساحته ببلاد الشام قال لرجال مجلسه من القادة والخواص: «أَرَى مِنَ الرَّأْيِ أَلَّا تُقَاتِلُوا هَؤُلَاءِ القَوْم، وأَنْ تُصَالِحُوهُمْ؛ فَوَ اللهِ لأن تُعْطُوهُمْ نِصْفَ مَا أَخْرَجَتْ الشَّامُ وتَأْخُذُوا نِصْفاً وتَقَرَّ لَكُمْ جِبَالُ الرُّوم، خَير لَكُمْ مِنْ أنْ يَبْلُغُوكُمْ عَلَى الشَّامِ ويُشَارْكُوكُمْ في جِبَالِ الرُّومِ!» [1].. ولكنهم أبوا عليه رأيه، وردُّوا عليه قوله، وتغلَّبت العامة على الخاصة وذوي الرأي، وأخذتهم العزة بالإثم، فاضطرَّ هرقل أن ينزل على رأيهم، ويسير بهم لقتال المسلمين!!.

فنشبت بين الروم والمسلمين العديد من المعارك والمواجهات التي لم يخسر المسلمون في واحدةٍ منها قطُّ، ولذلك كان هرقل دائماً ما يتساءل ويسأل أصحابه الذي شهدوا المعارك عن أولئك المسلمين فقال لهم يوماً: «وَيْلَكُمْ! أخْبروني عَنْ هَؤُلاءِ القَوْمِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ أَلَيْسُوا بَشَراً مِثْلَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى! قال: فَأَنْتُم أَكْثَرُ أمْ هُمْ؟ قالوا: نَحْنُ أَكْثَرُ مِنْهُمْ أضْعَافاً فِي كُلِّ مَوْطِنٍ، قال: فَمَا بَالُكُمْ تَنْهَزِمُونَ؟ فقال شيخٌ من عظمائهم: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ يَقُومُونَ اللَّيْلَ ويَصُومُونَ النَّهارَ، ويُوفُونَ بِالعَهْدِ، ويَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ، ويَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ، ويَتَنَاصَفُونَ بَيْنَهُمْ.. ومِنْ أجْلِ أنَّا نَشْرَبُ الخَمْرَ، ونَزْني، ونَرْكَبُ الحَرَامَ، ونَنْقُضُ العَهْدَ، ونَغْصَبُ ونُظْلِمُ، ونَأْمُرُ بالسَّخَطِ، ونَنْهَى عَمَّا يرضِي اللهَ، ونُفْسِدَ فِي الأَرْضِ.. فقال: أَنْتَ صَدَقْتَني!!» [2]..

وما هي إلاَّ شهورٌ قليلةٌ حتى بدأ هرقل في إعداد جيوشه لمعركة المصير، وهي معركة اليرموك الخالدة؛ فإمَّا أن ينتصر على المسلمين ويثبت أركانه ببلاد الشام، وإما الاندحار عنها في حال الهزيمة.. ولكن رغم تعداده الذي ناهز الـ(240،000) مقاتل

(1) تاريخ الرسل والملوك (402/3).

(2) المجالسة وجواهر العلم، رقم (1259)، البداية والنهاية (15/7).

إلا أنَّ الكتائب الإسلامية انتصرت نصراً مؤزَّراً، ومزَّقت جيش هرقل شر ممزق.. فتلقى هرقل الخبر وهو دون مدينة حمص، ولا شك أنَّه تيقن عند تلك اللحظة من عدم جدوى مواجهة المسلمين، فإنَّ هؤلاء القوم لو أرادو إزالة الجبال لأزالوها كما وصفهم ملكُ الصينِ!!.

ثم ظهر عمرَ بن الخطاب ليقوم بشؤون الخلافة بعد وفاة أبي بكر، وفي عهده بلغت هزائم جيوش هرقل الذروة أمام المسلمين، وخسر كامل بلاد الشام، فسقطت أول ما سقطت منها مدن: دمشق، وفحل، وبيسان، وطبرية، وحمص، وحماة، وحلب، وعامة بلاد سورية، فحزم هرقل حقائبه متجها صوب القسطنطينية، فلما وصل إلى شمشاط (جنوبي تركيا الآن)، علا على شَرَفٍ والتفت وراءه نحو سورية، وقال مودعاً:

«عليك السلام يا سورية سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك روميٌّ أبداً إلا خائفاً!!» [1]

وبعدها انتقلت الجيوش الإسلامية صوب فلسطين أين سيكون تحرير بيت المقدس المهمة التالية، وفعلاً نجح المسلمون في فتحه وتسلَّم عمر بن الخطاب بنفسه مفاتيح البيت سنة (16هـ)، وعقد مع أهالي تلك الربوع المباركة المعاهدة العمرية العظيمة، ولا ريب في أنَّ الخبر نزل كالصاعقة على مسامع الملك هرقل رغم يقينه الكبير بأن يستولي المسلمون على كل ما أقبلوا عليه من البلاد، وليس ذلك بالحديد والنار، بل بالإيمان العظيم الذي لا يزعزعه شيءٌ في الارض!.. وفي هذا الموضع نذكر المعجزة المحمدية بانتهاء ملك الروم على الشام إلى أبد الدهر، حيث ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا

(1) تاريخ الرسل والملوك (603/3).

كِسْرَى بَعْدَهُ، وإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللهِ» [1]..

ثم ها هي الكتائب المحمدية مجدَّداً تسعى للانتقال للديار المصرية، وقد بدأ سيرهم نحوها بعد فتح القدس مباشرةً، فنجح عمرو بن العاص ومن معه من المجاهدين الأبطال في فتح المدينة تلو المدينة بدءً بالعريش وانتهاءً بالإسكندرية سنة (20هـ) أو (21هـ) على حسب اختلاف المؤرخين.. وفي هذا الوقت توفي هرقل بالقسطنطينية وقد ناهز خمسا وسبعين عاماً، وخلفه على حكم الروم ابنُهُ (قسطنطين بن هرقل)..

وبهذا يكون هرقل قد شهد سقوط دولته في بلاد الشام وغالب أراضي بلاد مصر قبل وفاته!!..

فليت شعري كم كدَّر المسلمون حياةَ هرقل وأفسدوها عليه بفتوحاتهم الباهرة!!

(1) صحيح: صحيح البخاري (3120)، صحيح مسلم (2918)..

عماد الدين زنكي وفتح الرها [1]

«و كان هذا فتح الفتوح حقاً، وأشبههم ببدرٍ صدقاً!»

(المؤرخ الإسلامي ابن الأثير معلِّقاً على فتح الرها)

عماد الدين زنكي!..

عَلَمٌ لطالما شغفت بسيرته وأُعجبت بشخصيته، واستغربت قلة شهرته وسماع الناس به وكأنَّ الله تعالى لم يخلقه، أو كأنَّ اسمه وأعماله لم تُذكر في كتب التاريخ المشهورة التي نعرفها!.. كيف لا وهو الذي يستحق شهرةً كشهرة صلاح الدين، واهتماماً به من الكتاب والمؤلفين والباحثين كاهتمامهم بصلاح الدين!

ولئن كان صلاح الدين رحمه الله قد حقق بفتحه القدس ما لم يحققه غيره، فإنَّ ذلك لم يكن ليحصل لولا وجود نور الدين محمود زنكي الذي توفي سنة (569هـ) بعد أن عبَّد لصلاح الدين الطريق نحو القدس.. ثم إنَّ كلاهما - أقصد صلاح الدين ونور الدين- لم يكونا ليحققا ما حققاه لولا أن خلق الله قبلهما رجلاً مجاهدًا وزعيماً فذًّا يقال له: عماد الدين زنكي، وهو بالمناسبة والد نور الدين زنكي!!.. فكان هذا الرجل هو أول أربعةٍ بزغت نجومهم أكثر من غيرهم في سماء الحروب الصليبية: عماد الدين، نور الدين، صلاح الدين، وبيبرس!

وإنَّ هناك فتحاً مُبيناً من الأهمية بمكان سُطِّر باسمِ عماد الدين زنكي يكاد يكون في مستوى أهمية فتح صلاح الدين لبيت المقدس، وهو فتح إمارة الرها

(1) انظر تفاصيل الفتح وأخباره في كتاب: قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي، للدكتور راغب السرجاني.

الصليبية، مع قناعتنا التامة بأفضلية بيت المقدس وقدوسيته عن الرها ولا ريب.. إلا أنَّنا مجبرون على إنصاف عماد الدين ومنحه حقه الوافي الذي يستحقه رحمه الله، وقد كان فتح الرها أعظم أعمال عماد الدين على الإطلاق..

فمُنذ أن بات عماد الدين زنكي على رأس إمارة الموصل شمال العراق (بعهدٍ من السلطان السلجوقي محمود بن محمد) شهر رمضان من سنة (421هـ) وهو يُعِدُّ العدَّة لدحر الصليبين المحتلين للأراضي الإسلامية وإسقاط ما بنوه وأسسوه من إمارات فيها، وقد استهل رحمه الله مهامه في منصبه الخطير كأحسن ما يكون، وقد كان يعلم أنَّ هذا المنصب ليس تشريفاً بل هو تكليف، فاجتهد رحمه الله في أكثر من باب أحسن اجتهاد في سبيل تثبيت دعائم إمارته الموصلية قبل بدء مشروعه الجهادي ضد الصليبيين، فلما وفَّقه الله لذلك شرع في تنفيذ ذلك المشروع العظيم، وقد كان رحمه الله واضح الرؤية لحقيقة الوضع في المنطقة، ورأى بأنَّ هؤلاء الصليبيون ما جاؤوا إلا ليستقروا ويستوطنوا في أراضي المسلمين بعد احتلالها، ولن يكون هناك حلٌّ لرعبهم وصدِّهم إلا الجهاد!.. فقد كان رحمه الله فاهماً للقاعدة التي تقول: «مَا أُخِذَ بِالقُوَّةِ لَا يُسْترجَعُ إِلَّا بِالقُوَّةِ»!!.

ولكن كان هناك هدفٌ معينٌ من أهداف ذلك المشروع وضعه عماد الدين نصب عينيه وعمل على تحقيقه لسنوات طويلة منذ توليه رئاسة الموصل، وذاك هو فتح مدينة الرها الصليبية وتحريرها من الصليبيين.. فكان ذكر هذه المدينة -كما يقول المؤرخ ابن القلانسي- جائلاً في خلده، وأمرها ماثلاً في خاطره وقلبه [1].. ويكفي هذا الهدف أهميةً وخطورةً أنَّ إمارة الرها كانت أولى الإمارات الصليبية تأسيساً بعد زحف الجيوش الصليبية نحو بلاد الشام والعراق، وكان ذلك سنة (491هـ)، وبالتالي فقد نشأ في هذه الإمارة جيلٌ كاملٌ من الصليبيين الذين ظنوا أنَّ هذه الأرض أرضهم،

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص 282.

وعَزْمُ عماد الدين على فتحها سيجعلهم يستميتون في مقاومته أشد استماتة!.. ولكن الله تعالى يسَّر الطريق لعبده عماد الدين بعد أن رأى الإخلاص والتجرد في قلبه، والحرص على وحدة المسلمين لجهاد عبدة الصليب، فزحف رحمه الله صوب الرها في أواخر ربيع الثاني سنة (539هـ) بعد أن أمر جميع الأمراء والجنود ألاَّ يتخلفوا عن هذه الموقعة التاريخية.. فلما وصل أطبق أحكم الحصار على الإمارة لمدة قاربت الشهر عانى فيها أهل الرها الويلات جراء ذلك الحصار، فكان عماد الدين مصراً على مواصلة الحصار حتى يخضعوا له ويُسلِّموا أمرهم له، علماً بأنَّ أمير الرها في ذلك الحين هو (جوسلين الثاني) الذي كانت متواجداً عند حصار عماد الدين لإمارته في مدينة تل باشر التي لا يفصلها عن الرها سوى نهر الفرات، وذلك بعد خطة عبقرية نفذها عماد الدين وأثمرت عن سحب جوسلين خارج إمارته والابتعاد عنها، فخاف جوسلين أن يعود إليها ويصطدم بجيش عماد الدين القوي!!.

وهكذا لم يزل عماد الدين محاصراً للرها حتى فوجئ المسلمون بانهيار جزءٍ من صور المدينة بعد الضرب المركز الشديد الذي تعرضت له من آلات الحصار الضخمة التي استعملها عماد الدين، فاجتاحت القوات الإسلامية المدينة وسيطرت عى الأوضاع فيها، وكان ذلك في السادس والعشرين من جمادى الآخر سنة (539هـ)..

لقد كان يوماً من أيام الله!..

وكان يوماً من أيام الله المشهودة!..

وإذا كنا قد عجبنا من إصرار عماد الدين على فتح الرها ونجاحه الكبير في ذلك، فإنَّنا سنعجب أكثر عند اطِّلاعنا على القرارات الحاسمة التي قرَّرها هذا البطل العظيم بعد الفتح، وهي من أروع القرارات الإنسانية التي لا يُقدم على اتِّخاذها إلا من كان على شاكلة وخصال عماد الدين!!..

فيا ترى ما هذه القرارات؟!..

أولاً: عدم الاعتداء على أملاك الأرمن واليعاقبة، وهؤلاء هم النصارى الشرقيون الذين يعيشون في البلد منذ عشرات السنين، أي أنَّهم من السكان الأصليين!.

ثانياً: على كل الجنود المسلمين أن يُعيدوا إلى الأرمن واليعاقبة كلَّ ما أخذوه من أموال أو غنائم أو سبي أو غيره..فأعاد الجنود كلَّ ما أخذوه، وعادت البلد إلى الحال التي كانت عليه قبل الفتح الإسلامي!.

ثالثاً: إطلاق الحرية الدينية لهم، وعدم المساس بكنائسهم.

رابعاً: إعطاء الأرمن واليعاقبة صورة من الحكم الذاتي لتصريف أحوالهم داخل المدينة دون الرجوع للمسلمين، على أن تكون تبعيتهم للحكومة الإسلامية!.

خامساً: تخصيص الأساقفة بالعطف والرعاية وإسداء الهدايا؛ فهؤلاء هم الذين يقودون شعوبهم!.

سادساً: دعوة الأرمن الذين هجروا البلد نتيجة اضطهاد الصليبيين إلى العودة مرةً ثانية إلى الرها للعيش في أمانٍ في ظل الحكم الإسلامي!.

وهكذا بهذه السياسة الحكيمة، وبهذه الروح المتسامحة استقرت الأوضاع في مدينة الرها، وعادت إلى أيدي المسلمين بعد قرابة الخمسين عاماً، وعادت بهيئتها التي كانت عليها قبل أم يمتلكها الصليبيون، وذلك كمدينة ذات طابعٍ نصراني تحت حكمٍ إسلامي!.

فيا ليت شعري ما أشبه صنيع عماد الدين السالف بصنيع عمر بن الخطاب بعد فتح بيت المقدس، وبصنيع عمرٍ بن العاص بعد فتح مصر، وبصنيع صلاح الدين ومحمد الفاتح من بعده عقب فتحها لبيت المقدس والقسطنطينية على التوالي!... وكأنَّ التسامح الديني (الحقيقي وليس المزعوم) ظلَّ حكراً على عظماء الإسلام فقط!

ولكن الجدير بالذِّكر أنَّ أهل الرها النصارى - وخاصةً الأرمن- رغم ما أسداه إليهم المسلمون تحت قيادة عماد الدين زنكي من تسامحٍ وتعايشٍ ورحمةٍ بهم، بيد أنَّهم بعد مقتل عماد الدين سنة (541هـ) مباشرةً حاولوا الانقلاب على الحامية

المسلمة في المدينة لصالح الأمير الصليبي جوسلين الثاني بتحريضٍ من هذا الأخير، ولكن الحمد لله الذي سخَّر يومئذٍ نور الدين زنكي ابن عماد الدين فقضى على ذلك التمرد وقطع دابره قبل استفحاله!.. وهكذا هم النصارى واليهود عبر التاريخ، لطالما كانت صفات الغدر والخيانة و نقض العهود والمواثيق وتناسي المعروف المُسدى إليهم متجذِّرةً في نفوسهم، راسخةً في أركانهم.

من روائع خالد بن الوليد

«عجِزَت النساء أن يلِدْنَ مثل خالدٍ!»
(أبو بكر الصديق)

لا أحد اليوم يُنكر حقيقة كون سيف الله المسلول هو أحد أعظم القادة العسكريين التاريخيين عبقريةً ونجاحاً على الإطلاق (إن لم يكن أعظمهم)!..

فقد تربَّع ابن الوليد على عرش القيادة العسكرية الناجحة بعد أن قاد ما لا يقلُّ عن (15) معركةً ضد الإمبراطورية الفارسية المجوسية وحدها على أرض العراق دون أن ينهزم في واحدة منها قطُّ! [1] وهذا رقمٌ - لولا صدق التاريخ- لقُلنا أنَّه من نسج الخيال ولا ريب، فما بالك لو أضفنا إليه ما أنجزه خالد في الشام ضد الإمبراطورية الرومانية!!.

وكل ذلك دفع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب إلى أن يعزله عن القيادة بعد أن افتتن الناس به وأصبحوا يثقون به ثقةً عمياء، ومن ثم اعتقدوا أنَّ الانتصارات المتتالية التي حقَّقوها تحت قيادة خالد هي بفضله بالدرجة الأولى لا بفضل الله تعالى [2] !!.

---

(1) ولا ينبغي أن نميل نحن- بدورنا- كلَّ الميل حتى نتناسى ما قدَّمه آلاف المجاهدين الأبطال الذين كانوا مع خالد في معاركه وفتوحاته، فتلك الانتصارات ليست من صنع خالدٍ وحده بل هي من صنعهم كذلك، ولكن مع ذلك يبقى خالد رمزاً لا يتكرر في العبقرية الحربية.

(2) انظر: قادة فتح العراق والجزيرة، لمحمد شيت خطاب، ص 136-141. وقد بات معلوماً أنَّ عمر لم يعزل خالداً عن عداوةٍ بينهما، أو بسبب قتله لمالك بن نويرة وتزوجه بامرأته، وإنما عزله كان للسبب الذي ذكرناه لا غير.

وها نحن ذا على موعدٍ ماتعٍ مع بعض ما دوَّنه المؤرخون الثقات عن مسيرة خالد بن الوليد الجهادية العظيمة، وروائعه وعجائبه في معاركه وفتوحاته الجليلة..

***

- في معركة مؤتة (8هـ) وبعد أن استشهد قادة الجيش الإسلامي الثلاثة (زيدٌ وجعفرٌ وابن رواحة) وكان الجيش قاب قوسين أو أدنى من أن يُمزَّق شر ممزَّقٍ أمام جيش الروم.. عندها حمل راية المسلمين خالد بن الوليد وقد مضى على إسلامه ما يقل عن ثلاثة أشهر فقط، فحمل على عاتقه مهمة إنقاذ الجيش من الفناء وإخراجه من مأزقه الخطير، وهو الذي مضى كمجاهدٍ وجنديٍّ عاديٍّ لا يبحث عن القيادة رغم أنَّه كان مُقَدَّما في قومه، عزيزاً في عشيرته، قائداً في فرسانه، ولكن ها هي ذي الفرصة تسنح له وتتقدم منه في موقفٍ شديد الصعوبة، فأعاد خالد تنظيم قواته بسرعة، وانطلق بهجومٍ جبهي، وكان اندفاعه وحماسته كافيين لإثارة حمية القتال والتحريض على الجهاد [1].. وما هي إلَّا سويعات قليلة حتى نجح سيف الله المسلول في رسم حلِّ الانسحاب الذي لم يكن هناك حلٌّ غيره، وكان ذلك بعد إعداد خطَّةٍ عبقريةٍ لا يقدر على رسمها إلَّا أمثال خالد! ولم يفقد الجيش الإسلامي من مجاهديه إلا ثلاثة عشر شهيداً فقط [2] من مجموع ثلاثة آلاف (3،000) مجاهد، وبالمقابل كانت خسارة الروم وحلفائهم أكبر بكثير وهم الذين كان تعدادهم في المعركة مائتي ألف مقاتل (200،000)!!.

والجدير بالذِّكر أنَّه قد انكسرت في موقعة مؤتة تسعة أسيافٍ في يد خالدٍ بن الوليد وحده!!.

---

(1) قادة فتح بلاد العراق والشام، بسام العسلي، 156.

(2) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، د/أكرم ضياء العمري، ص 486-487.

- وفي عهد الصِّدِّيق كان ابن الوليد على موعدٍ تاريخي مع الانتصارات ضد الفرس المجوس في أرض العراق؛ فقد قضى بمن معه من المجاهدين على أشرسَ قادة الفرس وأبرز أبطالهم كـ(هرمز) في معركة ذات السلاسل، و(قارن) و(قُبَاذ) و(أنوشجان) دفعةً واحدة في معركة المذار (أو الثِّني كما يُطلق عليها أيضاً)، وكذلك (الأنْدَرْزَغَر) في معركة الولجة!.. فها أنت ترى كيف تم القضاء على ستةٍ من أشجع قادة الدولة المجوسية العسكريين أمام أسود المسلمين بقيادة خالد بن الوليد الذين لم يواجهوا صعوباتٍ كبيرةٍ في تحقيق الانتصار تلو الانتصار ضد أعدائهم!!.. كل ذلك جعل الخليفة الصِّدِّيق أبو بكر يقول قولته المشهورة في حق خالد: «عَجِزَت النِّسَاءُ أنْ يَلِدْنَ مِثْلَ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ!!»[1].

- وبعد فتح الحيرة سار خالد صوب (الأنبار) لخوض معركةٍ جديدة مع المجوس، وهنالك قام بخطَّة ذكيةٍ رغم بساطتها! وهي أنَّه لما رأى أهل الأنبار قد تحصَّنوا بها وخندقوا عليها وأشرفوا من حصونهم، تقدَّم إلى رُمَاته فأوصاهم قائلاً: «إنـي أَرَى أَقْوَاماً لَا عِلْمَ لَهُمْ بالحَرْبِ، فَارْمُوا عُيُونَهُمْ ولَا تُوَخُّوا غَيرهَا!». فنفَّذ المجاهدون الرُّماة وصية خالدٍ وفقؤوا ألف عينٍ يومئذٍ!! فسُمِّيت تلك الوقعة بـ(ذات العيون) [2].

- ومن العجائب التي رُوِيَت عن خالد أنَّه أخذ سمًّا وتلا هذا الدعاء: «بِسْمِ اللهِ خَيرِ الأَسْمَاءِ، رَبِّ الأَرْضِ والسَّمَاءِ، الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ دَاءٌ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ثم وضع السمَّ في فمه، وبادروه ليمنعوه، ولكنَّه سبقهم فابتلعه، وانتظروا ساعةً ليصرح السُّمُّ خالداً، فمضت ولم يضرّ السمُّ خالداً!!.. قال الإمام الذهبي معلِّقاً على القصة: «قُلْتُ: هَذِهِ واللهِ الكَرَامَةُ، وهَذِهِ الشَّجَاعَةُ» [3].

---

(1) تاريخ الرسل والملوك (359/3)، البداية والنهاية (347/6).

(2) انظر: تاريخ الرسل والملوك (374/3).

(3) سير أعلام النبلاء (376/1)، أصحاب الرسول، محمود المصري (279/2).

- وبعث سيف الله المسلول برسالةٍ شديدة اللهجة إلى ملوك الفرس المجوس يُهدِّدُهم وفيها يتوعَّدُهم إن لم ينزلوا تحت أمره، وكُلُّه عزَّةٌ بالإسلام.. فكتب ما نصُّه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس؛ أما بعد؛ فالحمد لله الذي حلَّ نظامكم، ووهَّن كيدكم، وفرَّق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرًّا لكم، فادخلوا في أمرنا نَدعكم وأرضكم، ونَجُوزكم إلى غيركم، وإلَّا كان ذلك وأنتم كارهون على غَلَبٍ، على أيدي قومٍ يُحبُّون الموت كما تُحبُّون الحياة!» [1].

- وللمرة الأولى في تاريخ الإسلام تتَّحِدُ إمبراطورية الفُرسُ مع إمبراطورية الرومُ، ومعهما بعض قبائل العرب النصرانية ضد خالدٍ وأصحابه من المجاهدين المسلمين، وذلك بعد أن اتَّحدت مخاوفهم واشتركت من هؤلاء القوم الذين باتوا أكبر خطرٍ يُهدِّدُ مُلك فارس والروم؛ فاجتمعت جيوشهما في أرض (الفِرَاض)، وقال الروم وفارس بعضهم لبعض: «اِحْتَسِبُوا مُلكَكُمْ، هَذَا رَجَلٌ يُقَاتِلُ عَلَى دِينٍ، ولَهُ عقلٌ وعلمٌ، ووَاللهِ لَيُنْصَرَنَّ ولَنُخْذَلَنَّ!»، ثم قال الروم للفُرس: «اِمْتَازُوا حَتَّى نَعْرِفَ اليَوْمَ مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ أوْ قَبِيحٍ، مِن أيّنا يجيءُ! فَفَعَلُوا».. فنشب القتال بين الجمعين بشدةٍ وضراوةٍ، فانهزم الروم والفرس ومَن معهم، وأمَرَ خالدٌ أصحابَه أن يُلحُّوا عليهم وألاَّ يرفِّهوا عنهم [2]، أي ألَّا يُمْهِلوهم ولا يُخفِّفوا عنهم، بل يُطاردونهم بتماسٍّ شديدٍ دون هوادة!.

- وفي حادثةٍ عجيبةٍ لا توصف إلاَّ بكونها معجزةً... يعبر خالد بن الوليد بجيشه من العراق إلى الشام عبر صحراءٍ قاحلةٍ (و هي المعروفة الآن ببادية الشام) يخاف الراكب المفرد على نفسه من عبورها، فكيف بجيشٍ يتكون من آلاف!! وهي اليوم طريق السيارات بين دمشق وبغداد، وهو زُهاء (1370كم) تقطعه السيارات في نحو عشرين ساعة مع الاستراحة [3] !.. وملخص القصة أنَّه لما أمر أبو بكر خالداً بالمسير

(1) انظر: المصدر السالف (370/3).

(2) انظر: المصدر السالف (383/3-384).

(3) انظر: أبو بكر الصديق، عبد الستار الشيخ، ص 685.

إلى الشام والانضمام إلى جيوشها بقيادة أبي عبيدة قبل معركة اليرموك، تساءل خالدٌ قائلاً - وهو يضع مخطَّطه للتحرك نحو الشام-: «كَيْفَ لِي بِطَرِيقٍ أَخْرُجُ فِيهِ مِنْ وَرَاءِ جُمُوعِ الرُّومِ؟! فَإِني إنْ اسْتَقْبَلْتُهَا حَسِبَتْني مِنْ غيَاثِ المسْلِمِينَ»، فأجابوه: «لَا نَعْرِفُ إِلَّا طَرِيقاً لَا يَحْمِلُ الجُيُوشَ، إِنَّمَا يَأْخُذُهُ الفَذُّ الرَّاكِبُ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُغَرِّرَ بِالمُسْلِمِيَن!»، فعزم خالدٌ على العبور من ذلك الطريق وشجَّع أصحابه وحثَّهم على المسير منه، فقال لهم: «لَا يَخْتَلِفَنَّ هَدْيُكُمْ ولَا يَضْعُفَنَّ يَقِينُكُمْ، واعْلَمُوا أنَّ المعُونَةَ تَأْتِي عَلَى قَدْرِ النية،وَ الأَجْرُ عَلَى قَدْرِ الحِسْبَةِ، وأنَّ المسْلِمَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أنْ يَكْترثَ بِشَيءٍ يَقَعُ فِيهِ مَعَ مَعُونَةِ اللهِ لَهُ»، فكان ردُّ أصحابه عليه: «أَنْتَ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ اللهُ لكَ الخير، فَشَأنُكَ!»..

وفعلاً... انطلق سيف الله المسلول بجيشه عبر الصحراء رغم التحذير الذي تلقاه من دليله رافع بن عميرة الطائي (له صُحبة) وأنَّ مسيره ذلك سيستغرق خمس ليالٍ لا يُصاب فيها ماء، وهنا أمر خالد أصحابه بأن يستكثروا من الماء وأمر كل صاحب خيلٍ أن يُعدَّ لها الماء بقدر ما يسقيها، وجمع عدداً من الإبل السمان ظمأها حتى إذا أجهدها عطشاً أوردها الماء عللاً بعد نهل، فلما امتلأت صرَّ آذانها وشدَّ مشافرها لئلا تجتر..

وأخيراً، استطاع خالد أن يعبر كلًّا من: الحيرة - دومة الجندل - وادي سرحان - قراقر - سوى- تدمر- حوارين- قصم- أذرعات- بصرى- اليرموك !! وأن يصل إلى تخوم الشام دون أن يموت رجلٌ واحد عطشاً أو جوعاً!! [1].

فرضي الله عن خالدٍ وأرضاه.

(1) انظر: قادة فتح العراق والشام، محمود شيت خطاب، ص 121-125.

من روائع القعقاع

«لصوت القعقاع بن عمرو في الجيش خير من ألف رجل»
(أبو بكر الصديق)

«لم أر فارساً مثل القعقاع بن عمرو»
(سعد بن أبي وقاص)

رغم جهاده الطويل وبطولاته الكثيرة وشجاعته النادرة وكلِّ ما قدَّمه للإسلام والمسلمين.. إلَّا أنَّ سيدنا القعقاع الفاتح الكبير، والمجاهد العظيم لم ينل بعدُ حقَّه الوافر من التأليف في سيرته والتعريف بمسيرته الجهادية كما يجب مثلما ناله كثير من المجاهدين العظماء في صورة خالد وسعد وأبي عبيدة وعمرو وغيرهم!..

وها نحن هنا نورد شذرات ماتعة من المسيرة الجهادية العظيمة لهذا الرجل العظيم..

***

- بعد أن سار خالد بن الوليد إلى العراق عقب القضاء على المرتدين في اليمامة احتاج إلى الإمدادات (و ذلك بعد أن أمره أبو بكر بأن لا يُسير معه أحدٌ ارتد، فكان عدد المجاهدين الذين معه قليلاً)، فبعث إلى الخليفة أبو بكر الصديق يستمده، ولكن اختيار الصِّدِّيق للمدد كان مثيراً للغرابة والعجب، فقد كان متوقعاً منه أن يبعث بمجموعةٍ من المجاهدين، ولكنه خالف التوقعات وبعث بالقعقاع وحده كمددٍ

لخالد!! وهنا قيل له: «أتُمدُّ رجلاً قد ارفضَّ عنه جنوده برجل؟!» ، فقال قولته المشهورة:

«لا يُهزم جيشٌ فيهم مثل هذا!»

فلما وصل القعقاع إلى خالد كانت موقعة «ذات السلاسل» ضد الفرس أولى الوقائع التي يشهدها، وفيها كاد يُقضى على خالد بن الوليد حيث خرج لمبارزة قائد الفرس هرمز الذي اتفق قبل خروجه للمبارزة مع بعض أصحابه على الغدر بخالد، فلما التقيا احتضن خالدٌ هرمز، وحاول أصحاب هرمز أن يحملوا غدراً على خالد، وهنا تفطن القعقاع لخطة هرمز القذرة فحمل عليهم حين رآهم يحملون على صاحبه خالد حتى كشفهم ومكَّن لابن الوليد من قتل القائد الفارسي هرمز!.. [1] وبذلك صدقت فراسة أبي بكر الصِّدِّيق في القعقاع!!.

- وفي «حُصَيد» كان القعقاع على موعدٍ متجدِّدٍ مع البطولة حيث قام بقتل قائد الفرس (زرمهر) بيده، وقاد أصحابه المجاهدين لتحقيق النصر على الفرس المجوس وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وغنموا يومئذٍ غنائم كثيرة [2].
- ولما انتقل خالدٌ إلى الشام بأمر الخليفة اصطحب معه القعقاع.. فشهد هذا الأخير موقعة اليرموك الخالدة وأبلى فيها بلاء الأبطال وضرب لرجاله أروع صور الشجاعة والإقدام، وكان على رأس إحدى الكراديس التي أعدَّها خالد بن الوليد [3].

(1) انظر: تاريخ الرسل والملوك (3/346-349، 347). وقد كان القائد الفارسي هرمز مضرب المثل في الخبث حتى قالوا: أخبث من هرمز.. واكفر من هرمز!.

(2) انظر: تاريخ الرسل والملوك (3/380)، البداية والنهاية (6/351).

(3) انظر: تاريخ الرسل والملوك (3/396)، الكامل في التاريخ (2/260). والكردوس: القطعة من الخيل العظيمة.

- وفي موقعة القادسية الخالدة سطَّر القعقاع أعظم الأمثلة على فروسيته النادرة وشجاعته الفذَّة.. فبعد فتح دمشق ورد كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح أن «اصرف أهل العراق إلى العراق، وأمرهم بالحث إلى سعد بن أبي وقاص»، فأمر أبو عبيدة هاشم بن عتبة على جند العراق، وجعل على مقدمته القعقاع، فعجَّل القعقاع في مسيرته حيث وصل إلى العراق في صبيحة اليوم الثاني من أيام القادسية، وهو يوم (أغواث) [1].. وكان أثناء قدومه قد فكر بعمل يرفع به من معنوية المسلمين فقسَّم جيشه إلى مائة قسمٍ، كل قسمٍ مكون من عشرة، وأمرهم بأن يقدموا تباعاً كلما غاب منهم عشرة عن مدى إدراك البصر سرحوا خلفهم عشرة، فقدم هو في العشرة الأوائل وصاروا يقدمون تباعاً كلما سرح القعقاع بصره في الأفق فأبصرطائفةً منهم كبر فكبر المسلمون، ونشطوا في قتال أعدائهم، وهذه خطة حربية ناجحة لرفع معنوية المقاتلين، فإنَّ وصول ألفٍ لا يعني مدداً كبيراً لجيش بلغ ثلاثين ألفاً، ولكن هذا الابتكار الذي هدى الله القعقاع إليه قد عوَّض نقص هذا المدد بما قوى به عزيمة المسلمين [2].. ثم تقدم القعقاع ونادى: «مَنْ يُبَارِزْ؟!» فقالوا فيه بقول أبي بكر: «لا يُهزم جيشٌ فيهم مثل هذا»؛ وسكنوا إليه، فخرج إليه ذو الحاجب، فقال له القعقاع: «مَنْ أَنْتَ؟» قال: «أَنَا بَهْمَنْ جَاذَوَيْه». وهنا تذكَّر القعقاع مصيبة المسلمين الكبرى يوم الجسر على يد هذا القائد، فأخذته حميته الإسلامية فنادى: «يَالِثَارَاتِ أَبِي عُبَيْدٍ وسُلَيْطٍ وأَصْحَابَ الجِسْرِ!!» فاجتلدا، فقتله القعقاع [3]!.

---

(1) قادة فتح العراق والجزيرة، ص 305-306. وأيام القادسية أربعةٌ هي على التوالي: 1- يوم أرماث 2- يوم أغواث 3- يوم عماس 4- يوم القادسية.

(2) تاريخ الرسل والملوك (543/3)، التاريخ الإسلامي، الخلفاء الراشدين، للحميدي (454/1-455).

(3) تاريخ الرسل والملوك (543/3). وقد سأل القعقاع جاذويه؛ لأنه كان لا يعرفه، لأن القعقاع يوم الجسر كان في الشام.

ثم نادى القعقاع مرة أخرى: «مَنْ يُبَارِزْ؟!» فخرج إليه رجلان، أحدهما البيرزان والآخر البندوان، فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان، فبارز القعقاع بيرزان (و هو قائد مؤخرة الفرس ويتبعه أربعةٌ وعشرون ألف مقاتل) فقتله القعقاع، وبارز ابن ظبيان بندوان (و هو من أبطال الفرس) فقتله ابن ظبيان..

وهكذا قضى القعقاع في أول النهار على قائدين من قادة الفرس الخمسة، ولاشك أنَّ ذلك قد أوقع أربعة وعشرين ألف مقاتل من الفرس في الحيرة والاضطراب لفقد قائدَيهم إلى جانب انكسار معنوية بقية الجيش الفارسي.. وهكذا رأينا القعقاع، هذا البطل العظيم يطوي الأرض طيًّا بين الشام والعراق ليُمد الجيش الإسلامي بنفسه ومن معه، فيواصل الليل مع النهار، حتى إذا وصل وشاهد ما يُكابده المسلمون في قتال أعدائهم بادر إلى أشد نوعٍ من القتال: وهو المبارزة، في الوقت الذي كان بحاجة إلى أن ياخذ قسطاً من الراحة بعد سفرٍ شاقٍّ طويل، ولكن أنَّى له أن يستريح وهم يملك قلباً كبيراً يحمل همَّ الأمة الإسلامية ومستقبل الإسلام؟!..[1]

ثم إنَّ القعقاع لم يكتفِ بما سبق.. بل قام بعدها بالاتفاق مع أخيه المجاهد عاصم بن عمرو التميمي للقضاء على كبير الفيلة التي كان الفرس يعتمدون عليها في كبرى معاركهم، وقد سبَّبت للمسلمين متاعباً كبيرة وكبَّدتهم خسائر فادحة في اليوم الأول، فوضعوا هذه المرة رجالاً يحمونها وتكون الفيلة بهم آنسة.. فتقدَّم القعقاع وعاصم نحو الفيل الأبيض (و هو أخطر الفيلة) وتوجَّه أحدهما نحو الميمنة، والآخر نحو الميسرة، ليرفع كلٌّ منها رمحه ويدُقَّان به عيني الفيل الأبيض، فتراجع الحيوان من الألم وطرح سائسه، ودلَّى مشفره فضربه القعقاع بسيفه فقطع مشفره!!..

- و في معركة نهاوند الحاسمة قاتل القعقاع تحت لواء النعمان بن مقرن المزني، وكان له في هذه المعركة أثرٌ وأيُّ أثر!..

(1) تاريخ الرسل والملوك (543/3)، التاريخ الإسلامي، الخلفاء الراشدين، للحميدي (456/1-457).

كان القعقاع على المجردة [1] وقد خشي المسلمون أن يطول حصار المدينة دون جدوى، إذا كان الفرس قد تحصنوا داخلها فلا يخرجون منها إلا إذا أرادوا الخروج.. وعقد النعمان بن مقرن المزني مؤتمراً استشارياً ليجد حلا مناسباً يُعينه على فتح المدينة، فاستقرَّ الرأي على أن يبعث النعمان خيلاً لينشب القتال، ثم تنسحب الخيل مُظهرةً الفرار حتى يتعقبها الفرس، وعند ذلك يُهاجمهم المسلمون في معركة تدور رحاها خارج أسوار المدينة الحصينة.. فمن يقود الخيل لتنفيذ هذه الخطة بدقةٍ وإتقانٍ واندفاع؟..

أمر النعمان القعقاع، فقاد الخيل وأنشب القتال، فلما خرج الفرس لقتاله، نكص، ثم نكص، ثم نكص، وظن الأعاجم أنها هزيمة فاغتنموها، وخرجوا حتى لم يبق منهم سوى من يحرس الأبواب!.. وتقهقر القعقاع إلى المسلمين حتى انقطع الفرس عن حصونهم، فلما هاجمهم المسلمون في العراء، استطاعوا التغلب عليهم بيسر، وبذلك انتهت معركة نهاوند التي أطلق عليها المؤخون اسم (فتح الفتوح) بنصرالمسلمين، وكان للقعقاع في هذا النصر مصيبٌ مرموق.. وفَّر الفيرزان قائد الفرس ناجياً بنفسه، فتعقبه نعيم بن مقرن المزني وقدم القعقاع أمامه، فأدركه القعقاع في ناحية همذان حيث ترجَّل ليصعد جبلاً قريباً، ولكن القعقاع تبعه راجلاً فأدركه وقتله، ثم دخل همذاتن فاتحاً مع نعيم بن مقرن المزني [2] !!.

وبهذه البطولات (التي تُعد بعضاً من الكل فقط!) سطَّر القعقاع بن عمرو التميمي اسمه بحروف من ذهب في سجل المجاهدين العظماء، والفاتحين الخالدين.

---

(1) المجردة: هي القطع الراكبة في الاصطلاحات العسكرية الحديثة، وهي القوات المؤلفة من الفرسان التي تتقدم أمام المقدمة لحمايتها.

(2) قادة فتح العراق والجزيرة، ص 312-313. وهمذان: مدينةٌ من أكبر مدن إيران وأقدمها. انظر: معجم البلدان (471/5).

من روائع عماد الدين زنكي

«و كانت سيرة - الشهيد أتابك زنكي- من أحسن سِير الملوك وأكثرها حزماً وضبطاً للأمور، وكانت رعيته في أمنٍ شاملٍ يعجز القوي عن التعدِّي على الضعيف»

(الإمام المؤرخ أبو شامة)

في عام (521هـ) يرسل أحدُ المماليك الأتراك -و اسمه جاولي- رَسولين من عنده إلى السلطان السلجوقي مغيث الدين محمود بن محمد من أجل تنصيب ابن أمير الموصل وما حولها الذي توفي حينئذٍ (و هو عز الدين مسعود البرسقي) على رأس الإمارة، وكان هذا الابن صغيراً دون الحلم، ومن ثم سيكون جاولي هو الوصي عليه ليكون الحاكم الفعلي من خلفه..

وسبحان الله!..

فقد شاء الله تعالى أن يكون هذان الرسولان اللذان بعثهما جاولي من الصَّلاح والتقوى والإخلاص بمكان، وهما: القاضي الشهير بهاء الدين الشهرزوري، وصلاح الدين محمد حاجب أمير الموصل المتوفي عز الدين مسعود.. إذ كان هذان الرجلان يعلمان أنَّ أحوال المسلمين في منطقتا العراق والشام تتجه نحو الأسوأ، وتولية رجلٍ مثل جاولي على إمارة مهمة كالموصل تُغير من الأوضاع شيئاً، بل قد تزيدها سوءً فوق سوء، ولذلك فبمجرد التقائهم بالسلطان السلجوقي أغفلا ذِكر جاولي من الأساس، فعرضا عليه ورشَّحا له عوضاً عنه مجموعةً من الأسماء البارزة التي تصلح لإمارة

الموصل ويُتوَسَّمُ فيها الأمل لرفع راية الجهاد ضد الصليبيين، ولكنهما من بين تلك المجموعة حسَّنا له اسماً معيناً وركَّزا حديثهما حوله، فقبِلَ السلطان هذا الاسم إذ خَبر بنفسه قوته وذكاءه وصلاحه وكفاءته الإدارية، ومن ثم أصدر أمره بولاية هذا الاسم على الموصل وما حولها في مطلع شهر رمضان المبارك!..

ذاك هو المجاهد الكبير، والبطل الشهير، والزعيم الصالح، عماد الدين زنكي ابن آق سنقر!!..

وهذه بعض روائعه الإدارية والجهادية والأخلاقية منذ أن ولي إمارة الموصل..

***

- في عام (532هـ) بدأ الزعيم المجاهد عماد الدين زنكي في حصار مدينة حمص في طريقه لضم مدينة دمشق العريقة لدولته الزنكية الناشئة، وقد كانت دمشق من أكبر العقبات التي اعترضت طريق عماد الدين للسير على تنفيذ مشروعه الجهادي الكبير، وهو إخراج الصليبيين من أراضي المسلمين.. ولكن بينما هو محاصرٌ لحمص إذ بالأخبار تردُ إليه فجأةً وتُفيد بأنَّ هنالك تحالفاً صليبياً بيزنطياً ضخم في طريقه الآن إلى حلب التابعة لعماد الدين، وسقوطها يعني انهيار مشروعه الجهادي من الأساس، ولذلك فقد استعدَّ رحمه الله لهذا الخطر القادم أروع استعداد، ومن ذلك أنَّه بعث برسالةٍ عاجلةٍ إلى السلطان السلجوقي يومئذٍ غياث الدين مسعود بن محمد يطلب منه إرسال جيشٍ يُؤازره في صد التحالف الصليبي-البيزنطي، وهي رسالةٌ تدل على تجرد عماد الدين الواضح لله تعالى وإخلاصه العمل من أجل وحدة الأمة وعزتها، وهنا قال القاضي الشهرزوري لعماد الدين بمنتهى الصراحة: «أَخَافُ أَنْ تَخْرُجَ البَلادُ مِنْ أَيْدِينَا ويَجْعَلَ السُّلْطَانُ (مسعود) هَذَا حُجَّةً عَلَيْنَا ويُنْفِذَ العَسَاكِرَ، فَإِذَا تَوَسَّطُوا

البِلَادَ مَلَكُوهَا!».. فكيف ردَّ عليه الزعيم المخلص والغيور عماد الدين زنكي يا ترى؟!.. قال له:

«إنَّ هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى من الكفار بها «!!![1]

- وكان عماد الدين رحمه الله شديد الحرص على حقوق وممتلكات الفلاحين البسطاء، حيث كان يأمر جنوده بأن يسيروا وسط المزارع في منتهى الحذر؛ لئلا يدوس أحدهم زرعاً لفلاح، ولم يكن في زمانه يجسر جندي على أن يأخذ تبناً لفرسه من فلاح بلا ثمن [2]، مع أنَّ التبن سيؤخذ علفاً لخيول الجهاد إلا أنَّ ذلك لابد أن يكون بثمن!..

- وإذا كان عماد الدين زنكي لا يُسامح جنوده في تبنٍ أخذوه بغير ثمن، فما بالك بالأراضي والأملاك والديار؟!... لقد كان من عادة الأمراء قبل عماد الدين زنكي أنهم إذا دخلوا مدينةً أو قريةً كانت في حوزة غيرهم أخذوها وقسموها على الأجناد، وبذلك تضيع ملكيات المالكين الأصليين، حتى جاء عماد الدين زنكي فأقرَّ نظام الإقطاعيات، ورفض نظام الأملاك، بمعنى أنه كان يُعطي الأمير أو الجندي إقطاعيةً معينةً في البلد المفتوحة يتولى إدارتها وتنظيمها وحمايتها دون أن يتملكها، بل تبقى الملكية في يد المالك الأصلي، ويدفع المالك ضريبةً معينةً ومخففةً للحكومة نظير التأمين والرعاية، ومن هذه الضريبة يأخذ الأمير صاحب الإقطاع شيئاً؛ أما الأرض فتبقى في يد مالكها ويتوارثها أبناؤه.. ولما ذهب إليه بعض أمرائه وجنوده الكبار يطلبون أملاكاً، كما يفعل العزماء غير عماد الدين زنكي، قال لهم رحمه الله كلاماً من نور: «مَا دَامَتِ البِلَادُ بِأَيْدِينَا، فَأَيُّ حَاجَةٍ بِكُمْ إلى الأَمْلَاكِ؟! فَإنَّ الإقْطَاعَاتِ تُغْني

(1) مفرج الكروب، لابن واصل (79/1)، الباهر لابن الأثير، ص 62.

(2) انظر: زبدة الحلب، لابن العديم (583/2-584).

عَنْهَا، فَإِنْ خَرَجَتْ البِلَادُ مِنْ أَيْدِينَا فَإِنَّ الأَمْلَاكَ تَذْهَبُ مَعَهَا (أي إذا تملَّك الصليبيون البلد، فلن تنفع حينئذٍ ملكيته»، ثم يكمل فيقول: « وَمَتَى صَارَتِ الأَمْلَاكُ لأَصْحَابِ السُّلْطَانِ ظَلَمُوا الرَّعِيَةَ، وتَعَدَّوا عَلَيْهِم، وغَصَبُوا أَمْلَاكَهُمْ!»... وبهذا التصرف العادل يضع عماد الدين زنكي مصلحة الشعب والفقراء والبسطاء والضعفاء فوق مصلحة الامراء والقادة ورجال الحكومة، لكنه في الوقت نفسه طمأن قلوب الأمراء بأنه جعل لهم الإقطاعيات [1].

- ومن أروع مواقف عماد الدين بخصوص قضية الأملاك والإقطاعيات ما حدث عند فتحه للمعرَّة، وأخذها من يد الصليبيين بعد احتلال عدة سنوات.. فلقد كان رحمه الله حنفيَّ المذهب، وفي مذهب أبي حنيفة أنَّ الأرض إذا احتلها الأعداء غير المسلمين صارت دار حرب، ثم إذا ردَّها المسلمون بعد ذلك صارت من أملاك الدولة، فيأخذها بيت المال، ويُقسِّمها بمعرفته على من شاء من الناس دون اللنظر إلى الملكية السابقة للأراضي والديار.. فعند فتح المعرَّة جاء أهلها السابقون من كل مكان يطلبون أملاكهم القديمة، فجاء عماد الدين زنكي بالفقهاء ليقولوا رأيهم في المسألة، فأفتوا جميعاً برأي أبي حنيفة؛ فقال: «إنَّ الأَرْضَ لَم تَعُدْ مِلْكاً لهُمْ، بَلْ لِبَيْتِ المالِ (أي للدولة)!». فماذا فعل عماد الدين زنكي؟!.. لقد قال رحمه الله في فقهٍ عميق: «إذَا كَانَ الفرَنْجُ يَأخُذُونَ أمْلَاكَهُمْ، ونَحْنُ نَأْخُذُ أَمْلَاكَهُمْ، فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَنَا وبَيْنَ الفرَنْجِ؟! كُلُّ مَنْ أتَى بِكِتَابٍ يَدُلُّ عَلَى أنَّه مَالِكٌ لأرْضٍ فَلْيَأْخُذْهَا!!».. وبذلك ردَّ عماد الدين زنكي إلى الناس جميع أملاكهم، ولم يتعرض لشيءٍ منها [2]..

- ولم يكن العدل الذي أرساء عماد الدين زنكي حكراً على رعيته من المسلمين فقط، بل شمل اليهود والنصارى.. فقد كان في ذات يوم في جزيرة ابن عمر، فدخل

(1) انظر: قصة الحروب الصليبية، ص 361-362.

(2) المصدر السالف، ص 362-363، مفرج الكروب (75/1).

عليه يهوديٌّ يشتكي أنَّ عز الدين أبا بكر الدبيسي (و هو من أكبر أمراء عماد الدين زنكي) أخذ داره ليسكن فيها مدة بقاء الجند في الجزيرة، فنظر عماد الدين نظر غشب شديدة لعز الدين، ولم يكلمه كلمةً واحدة، فتأخر عز الدين القهقرى، وعاد إلى البلد فأخرج خيامه ونصبها خارج البلد في مطرٍ شديد، ولم يستطع ان يؤخِّر إعادة الحق إلى اليهودي ليلةً واحدة [1] !!..

- ومن جهة أخرى كان بطلنا عماد الدين زنكي يُحسن سياسة جنده أيما إحسان، ويُتقن سياسة الترغيب والترهيب أجمل إتقان؛ فبينما كان يُضاعف لهم رواتبهم، ويتعامل معهم بالرأفة والمودة كان عقابه صارماً، ولا يقبل تهاوناً أبداً في أداء الوظيفة، ولقد سمع مرَّةً أنَّ أحد قوَّاده تعرَّ للنساء، بينما كان عماد الدين زنكي وجنوده في سفرٍ بعيد، فأرسل فوراً من يعزله من منصبه، ويُجرِّده من كل ممتلكاته، بل لمَّا عَلِمَ أنَّ الأمر تجاوز التعرُّض إلى التحرُّش الصريح أمر بقتله! ثم قال كلمته الصارمة: «إنَّ جُنُودِي لَا يُفَارِقُونِي فِي أَسْفَارِي، وقَلَّما يُقِيمُونَ عِنْدَ أَهْلِهِم، فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَمْنَعْ مِنَ التَّعرُّضِ إلى حُرُمِهِمْ هَلَكْنَ وفَسَدْنَا!» [2] .. وبعد هذا العقاب الرادع لم يتجاسر أحدٌ على التعرُّض للنساء طيلة حكم عماد الدين زنكي رحمه الله [3] ..

***

أما من الجانب الجهادي والحربي؛ فقد بلغ عماد الدين الغاية فيهما، وما هي إلا سنوات قليلة حتى أضحى رقماً صعباً وله وزن ثقيل بين شخصيات الساحة السياسية والحربية في كامل المنطقة، وأصبح الأعداء -و على رأسهم الصليبيون-

(1) المصدر السالف، ص 363-364، الباهر، ص 77.

(2) انظر: الباهر، ص 84.

(3) قصة الحروب الصليبية، ص 363-364. بتصرف يسير.

يحسبون له ألف حساب، وروائعه ومحاسنه في هذا الباب كثيرة وفيرة، زخرت بها مدة حكمه البالغة عشرين سنةً حتى وفاته عام (541هـ).. كما أنَّ عماد الدين كان يُتقن فن استمالة الشخصيات وجذبها إليه -و إن كانت معادية- أعظم إتقان؛ فمن ذلك قصة دبيس بن صدقة..

- فقد كان هناك رجل ثائر اسمه دبيس بن صدقة وهو شيعي رافضي وزعيم قبيلته (بني مزيد)، فأثار دبيسٌ هذا الفوضى والاضطراب حتى أنَّه تجرأ على محاصرة حاضرة الخلافة العباسية بغداد!.. كما حدث أن قام بموالاة الصليبيين وتعاون معهم مراراً ضد المسلمين [1]، فلما ولي عماد الدين إمارة الموصل وضع دبيس في دائرة اهتماماته (إذ قد سبق وأن تواجه الطرفان وتصارعا [2] حتى استطاع عماد الدين أن ينتصر عليه)، وهنا وقع دبيس بن صدقة في الأسر على يد أمير دمشق (تاج الملوك طغتكين) سنة (525هـ) وقام فوراً بتسليمه لعماد الدين زنكي.. وإنَّ الناظر لتاريخ دبيس الأسود سيتوقع ارتياحاً ورضاً لدى عماد الدين زنكي حيث سيتخلص من هذه الشخصية الشيعية الفاسدة، والتي قد تكون عقبةً في طريق مشروعه الهادف لإخراج الصليبيين من أراضي الإسلام، ولكن الذي حدث كان عكس ذلك تماماً!.. فرغم فساد دبيس بن صدقة الفاضح وتعاونه مع الصليبيين المتكرر وعدائه لعماد الدين زنكي المتواصل، إلا أنَّ هذا الأخير حافظ عليه وقرَّبه منه ورفض تسليمه إلى الخليفة!! بل إنَّه استخدمه وولَّاه بعض الإقطاعات [3]!! وهذا ما لم يكن

(1) انظر: الكامل في التاريخ (229-232،230-233).

(2) كان هذا قبل سنوات قليلة من ولاية عماد الدين على الموصل، وبالتحديد في عهد آق سنقر البرسقي أمير الموصل (و ليس والد عماد الدين) بعد محاصرة دبيس لبغداد مباشرةً، فوكَّل آق سنقر مهمة إخضاع دبيس بن صدقة لعماد الدين لما كان يرى فيه من الكفاءة والقدرة.

(3) انظر: الكامل في التاريخ (9/258-).

يتوقعه دبي بن صدقة نفسه، وكل ذلك من أجل استمالة قبيلته الكبيرة بني مزيد إلى جانبه، وهذا عين الدهاء والذكاء وحسن السياسة!..

ثم ها هي الأيام تتوالى، والأحداث تتسارع، والسنوات تمر، حتى جلس على كرسي السلطنة السلجوقية (مسعود بن محمد) الذي دبر محاولةً خبيثةً لاغتيال عماد الدين زنكي! ولكن سبحان الله!.. فقد كان الزعيم الشيعي الفاسد دبيس بنصدقة سبباً رئيساً في نجاة عماد الدين وكشف مخطط السلطان مسعود، حيث بعث دبيس برسالةٍ عاجلةٍ -و كان متواجداً عند السلطان السلجوقي- إلى عماد الدين يُحذِّرُه فيها من القدوم إلى بلاط السلطان مسعود لئلا يتم اغتياله!.. ثم علم السلطان مسعود أنَّ دبيس بن صدقة هو الذي كشف مؤامرته وفضحه، فقام فوراً بقتله جزاءً له على فعلته، فلما سمع عماد الدين الخبر تأثَّر كثيراً وقال قولته الجميلة: «فَدَيْنَاهُ بِالمالِ، فَفَدَانَا بِالرُّوحِ!»[1].

- و قريبةٌ من قصة دبيس قصة جاولي الذي حاول السيطرة على الحكم في الموصل حتى فشل في ذلك بعد أن ذهبت الولاية إلى عماد الدين زنكي، ولكن ها نحن ذا نرى هذا الزعيم الكبير يُقطع جاولي إقليم الرحبة في حلب! ولم يقصِهِ عن كلِّ شيء؛ وبذلك تجنَّب أذاه، وأراح قلبه، واستفاد من طاقاته وقدراته[2].

ونختم حديثنا عن الزعيم العظيم عماد الدين زنكي بإحدى مواقفه الفذة التي أبان فيها عن شجاعته الفائقة:

- فذات يومٍ من أيام حصاره لإمارة الرها سنة (539هـ) يجمع عماد الدين أمراءه وأعيان جيشه، بعد أن مدَّ السماط، وقال لهم: «لا يأكل معي على مائدتي إلا من يطعن معي غداً في باب الرها!».. فلم يتقدم إليه غير أمير واحد، وصبيٍّ واحد لا

(1) انظر: زبدة الحلب (250/2).

(2) قصة الحروب الصليبية، ص 370، الباهر، ص 34.

يعرفه! وذلك لما يعرفون من إقدامه وشجاعته، وأنَّ أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب. فقال الأمير لذلك الصبي: «مَا أَنْتَ وهَذَا المَقَامِ؟!» (أي أنَّه استصغر الصبي وقلَّل من شأنه) فقال عماد الدين: «دَعْهُ! فَإني أَرَى وَجْهاً لَا يَتَخَلَّفُ عَني!» [1].

فرحمة الله على عماد الدين زنكي وجزاه عن الإسلام خير الجزاء..

(1) مفرج الكروب (93/1).

من روائع نور الدين زنكي

«قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرةً من الملك العادل نور الدين!!»

(الإمام المؤرخ ابن الأثير)

وبعد عماد الدين زنكي ها هو ذا نجله البطل نور الدين محمود يُطِلُّ علينا بباقةٍ عطرةٍ من روائع فِعاله ومحاسن أعماله ومكارم أخلاقه، فكان على قدر مسؤولية حَمْلِهِ للواء الجهاد والزعامة بعد وفاة أبيه المجاهد البطل، وهو الذي عبَّد الطريق من بعده للناصر صلاح الدين حتى أفلح هذا الأخير في فتح بيت المقدس، ويا له من فتح!.

***

- بعد مقتل عماد الدين زنكي شهر ربيع الآخر سنة (541هـ) تقاسم ولداه نور الدين محمود وسيف الدين غازي-و هو الأكبر سناً- دولته، فأخذ الأول القسم الغربي منها واستقر في حلب، فيما ملك الثاني القسم الشرقي ومنها الموصل والجزيرة، وفي هذه الأثناء ظنَّ الأعداء والخونة والعملاء أنَّ الانقسام سيورث العداوة والشقاق بين الأخوين، ومن ثم فالحرب ستكون متوقعة بينهما!! ولكن خاب ظنُّهم وتبخرت مطامعهم؛ فقد حدث أن أمَرَ سيف الدين غازي أخاه نور الدين -و كان متواجداً

بحلب- بالمجيء إليه والاجتماع به، إلا أنَّ صاحب حلب تأخر في تلبية الدعوة معلِّلاً تصرفه بانهماكه في محاربة الصليبيين، مما جعل هناك شيئاً من التوتر ينشأ بينهما، ولكن سرعان ما حصل الاجتماع في الخابور، وفيه اعتذر نور الدين لأخيه عن تأخره في الحضور، وأظهر له الطاعة والاحترام من جهته [1]، ولشدة حذر نور الدين اشترط أن يكون الاجتماع ومع كلٍّ منهما خمسمائة فارس، فقَبِل سيف الدين، وخرج نور الدين ومعه خمسمائة فارس، فرأى أخاه سف الدين وليس معه إلا خمسة فوارس! فتأكد من حسن نيته واقتربا وتعانقا وبكيا، وقال له سيف الدين في مشهد رائع: «مَنْ لِي غَيرِكَ يَا نُورَ الدِّينِ؟! ولِمَنْ أدَّخِرُ الخَير إنْ أَسَأتُ إلَى أَخِي؟!»، فبعدها كان نور الدين يخرج إلى معسكر سيف الدين للخدمة وصفت الأمور بينه وبين أخيه، وسكن روعه وعاد إلى حلب حيث جمع عساكره وتجهَّز، ثم عاد للاستقرار في كنف أخيه، ووضع نفسه تحت تصرفه، إلا سيف الدين غازي الأول أمره بالعودة إلى بلاده، وقال له: «لَا غَرَضَ لِي فِي مَقَامِكَ عِنْدِي، وإنَّما غَرَضِي أنْ تَعْلَمَ المُلُوكُ والفِرَنْجُ اتِّفَاقَنَا، فَمَنْ يردِ السُّوءَ بِنَا يَكُفُّ عَنَّا»، فلم يرجع نور الدين ولزمه حتى قضيا ما كانا فيه، وعاد كل واحدٍ منهما إلى بلده[2]!!.

- وقد ورث نور الدين من والده عماد الدين السياسة الحسنة والحيلة والذكاء المتوقدين لاستمالة الأطراف المعادية، فنجح بفضل الله تعالى ثم بفضل هذه الصفات في فتح دمشق التي استعصت من قبل على والده لسنوات رغم المحاولات المتكررة لفتحها، وقصة ذلك أنَّه أدرك أنَّ اعتماد العنف في فتحها سيستفزُّ حكامها ويدفعهم إلى مراسلة الصليبيين والاستعانة بهم، فعمد إلى إعمال الحيلة والسياسة فأخذ يراسل صاحبها مجير الدين ويستميله، ويبعث إليه بالهدايا الموصولة ويُظهر له

(1) وقد كانت الأعراف والتقاليد التركية تقضي بأن تكون السيادة بعد وفاة الزعيم أو الحاكم للابن الأكبر.

(2) انظر: الدولة الزنكية، ص 170-174.

المودة حتى وثق إليه، وأخذ نورالدين يُكاتبه مشكِّكاً إياه بنوايا عددٍ من أمرائه، وأنَّهم بصدد الاتصال به ضد ملكهم، الأمر الذي دفع مُجير الدين إلى إبعاد واعتقال عددٍ من أبرز أصحابه، فلما خلت دمشق من زهرة أمرائها، انتقل نور الدين إلى خطوة أخرى فاتَّصل بأحداث دمشق -أي حرسها الشعبي- وجماهيرها واستمالهم فاجابوه إلى تسليم البلد[1]، وعند ذاك تقدَّم لحصار دمشق وتمكَّن بمعونة أهلها انفسهم من دخولها بسهولةٍ بالغةٍ ودونما إراقةٍ للدماء[2]!!..

- ويصِفُ المؤرخ الإسلامي ابن الأثير نورَ الدين في كتابه «الباهر» بأنّه كان لا يُهمِل أمراً من أمور رعيته، وقد صدَّقت سيرة نور الدين هذا الوصف حيث حدث أنْ هاجم صليبيو اللاذقية سنة (567هـ) مَرْكَبين للمسلمين كانا مملوءين بالأمتعة مكتضين بالتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع الخبر استعظمه وأرسل إلى الصليبيين يطلب إعادة ما أخذوه، فغالطوه، فلم يقبل مغالطتهم إذ ما لبث أن جمع عساكره وبثَّ سراياه في بلاد الصليبيين بين أنطاكية وطرابلس، وقام بحصار حصن عرقة وتخريب ربضه، والاستيلاء على حصني صافيتا والعزيمة شمالي اللاذقية، وإجراء أعمال نهب وتخريب واسعة النطاق؛ الأمر الذي اضطرَّ الصليبيين إلى مراسلة نور الدين يعرضون عليه استعدادهم لإعادة ما أخذوه من المركبين وتجديد الهندة بين الطرفين!! فأجابهم نور الدين إلى ذلك[3]..

- ومن ذلك أيضاً أنّه كان رحيماً ورؤوفاً بالفقراء والمساكين والفلاحين البسطاء، وقد أحزَنَه أمرُ هؤلاء وأشفق على وضعيتهم السيئة في دمشق تحت حكم مجير الدين وبطانته الفاسدة، وكل ذلك نابعٌ من شعوره بالمسؤولية تجاه المسلمين

(1) وذلك بعد أن أحبُّوه ووثقوا فيه وبَدَت لهم منه صفات الزعيم المجاهد القوي، في نفس الوقت الذي كان فيه حاكمهم مجير الدين ضعيفاً وموالياً للصليبيين وليّناً معهم إلى حدٍّ خطير.

(2) الدولة الزنكية، ص 179.

(3) انظر: المصدر السالف، ص 178.

الضعفاء ولو كانوا في بلاد غيره من الأمراء، فحدث أن كتب إلى حكام دمشق كتاباً جاء فيه: «إنَّني مَا قَصَدْتُ بِنُزُولِي هَذَا المَنْزِلَ طَالِباً لمحَارَبَتِكُمْ، وإنَّمَا دَعَاني إلَى هَذَا الأمْرِ كَثْرَةُ شِكَايَةِ المسْلِمِينَ.. بَأنَّ الفلاحين أُخِذَتْ أمْوَالهُمْ وشُتَّتْ نِسَاؤُهُم وأطْفَالُهمْ بِيَدِ الفرنجِ وانْعِدَامِ النَّاصِرِ لهُمْ، فَلَا يَسَعُني مَعَ مَا أعْطَاني اللهُ -وَ لَهُ الحَمْدُ- مِنَ الاقْتِدَارِ عَلَى نُصْرَةِ المسْلِمِينَ وجِهَادِ المشْرِكِينَ وكَثْرَةِ المالِ والرِّجَالِ، ولَا يَحِلُّ لي القُعُودُ عَنْهُمْ والانْتِصَارُ لَهم؛ مَعَ مَعْرِفَتِي بِعَجْزِكُمْ عَنْ حِفْظِ أعْمَالِكُمْ والذَّبِّ عَنْهَا والتَّقْصِير الَّذي دَعَاكُمْ إلى الاسْتِصْرَاخِ بِالفَرَنْجِ عَلَى مُحَارَبَتِي، وبِذَلِكُم لهمْ أمْوَالُ الضُّعَفَاءِ والمسَاكِينِ مِنَ الرَّعِية ظُلْماً لهُمْ وتَعَدِّياً عَلَيْهِمْ، وهَذا مَا لَا يرضِي اللهَ تَعَالَى ولاَ أَحَداً مِنَ المسْلِمِينَ!»[1].. ولذلك فلا عجب أن يُحبَّه أهل دمشق ويُعاونوه في الإطاحة بحاكمهم الفاسد وبطانته الفاسدة.

- ولعلَّ من أروع روائع نور الدين إطلاقاً موقفه من هلاك الملك الصليبي بلدوين الثالث صاحب بيت المقدس سنة (557هـ)، وهو الموقف الذي تجلت فيه مروءته وقابله الصليبيون هناك بالدهشة والذهول!.. فقد رُوِيَ أنه لما بلغ نعي ذلك الملك الصليبي مسامع القادة المسلمين (و على رأسهم نور الدين زنكي) وهم يُعدُّون لغارات جديدة، عقدوا مجلساً للمداولة في ما بينهم، وقالوا لنور الدين: «إنَّنَا نَسْتَعِدُّ لمهَاجَمَةِ مِينَاءِ عَسْقَلانَ الَّتِي هِيَ مِنْ المُلْكَةِ بِمَثَابَةِ الرِّئَةِ مِنَ الجَسَد، فالفُرْصَةُ سَانِحَةٌ الآنَ لِلْقِيَامِ بهُجُومٍ خَاطِفٍ عَلَى المدِينَةِ، ثمَّ لمواصَلَةِ الزَّحْفِ نَحْوَ المَوَانِئ الأخْرَى ونَحْوَ بَيْتِ المقْدِسِ والحُصُونِ الجَبَلِيَّة لِلاسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا قَبْلَ أنْ تَجَفَّ دُمُوعُ الصَّلِيبِيينَ وقَبْلَ أنْ يَصْحُوا مِنْ ذُهُولِهِمْ، فَلْنَضْرِبهم ضَرْبَةً قَاضِيَةً، وهُمْ في هَذِهِ الحَالَةِ مِنَ التَّضَعْضُعِ والضَّعْفِ، إنَّ حُزْنَهُم وحِدَادَهُمْ حَلِيفَانِ لَنَا فِي هَذِهِ الحَرْبِ!»، فلم يشاطرهم نور الدين الرأي وقال لهم: «إنَّ مُهَاجَمَةَ الصَّلِيبيينَ وهُمْ عَلَى هَذِهِ

(1) دمشق، لابن القلانسي، ص 308-309.

الحَالَةِ مِنَ الخَوْرِ والقَلَقِ، عَمَلٌ لا يليقُ بي وبِكُمْ، بَلْ يُلحَقُ بِنَا جَمِيعاً وَصْمة عَارٍ لَن تَمْحُوهَا الأيَّام، فَلَوْ فَعَلْنَا لَكَانَ هُجُومُنَا عَلَيْهِم أشْبَهَ بعَمَلِ فارسٍ جَبَانٍ يجهز على خَصْمٍ سَقَطَ عَنْ جَوَادِهِ مُثْخَناً بِالجِرَاحِ! إنَّ أعْدَاءَنَا لَا يَقْوَوْنَ اليومَ عَلَى الدِّفَاعِ عَنْ أنفُسِهِم، وقَدْ أحَاطَ قُوادُهُم بجثة مَلَكهم يبكونَهُ ويَترحَّمون عليه، وعندما يُصبحون من جَدِيدٍ قَادِرِينَ عَلَى الدفاع سَنُهَاجمهُمْ ونُخرِجُهُمْ مِنْ أرْضِ نَعدُّها مِلْكاً لَنَا، ونَرْفَعُ عَلَيْهَا أعْلَامَنَا.. أمَّا اليَوْمَ، فَإني سَأَبْعَثُ إلَيْهِم بِوَفْدٍ مِنْ أبْطَالِنَا، لَا للتَّحدِّي ولَكن للتَّعزية!!!»..

وما لبث رحمه الله أن أرسل إلى القدس وفداً من خيرة فرسانه فقابل الملكة الأرملة [1] معزّياً إياها بوفاة العاهل الراحل، وقدَّم إليها رسولُ نور الدين عِقداً ثميناً كان الإمبراطور البيزنطي قد أرسله هديةً لها، فوقع في يد نور الدين مع غنائم أخرى، فحزنت على ضياعه كثيراً، وأكَّد لها الرسول أنَّ نور الدين لم يشرع في وجوه الصليبيين سلاحاً، مادامت مملكة القدس بلا ملك وما دامت جيوشها بلا قائدٍ، فتأثَّرت الملكة الحزينة لشهامة نور الدين وبعثت إليه مع رسوله منديلها الحريري مبلَّلاً بدموعها اعترافاً بجميله ومروءته!!.

فرحمة الله على نور الدين وطيَّب الله ثراه وقدَّس روحه..

(1) هي الأميرة البيزنطية (تيودورا)، وكانت قد زُفَّت إلى بلدوين الثالث سنة (553هـ/1185م) وهي في الثالث عشر من عمرها، وقد بلغت يوم وفاة زوجها سن السابعة عشرة.

من روائع القانوني [1]

«كان السلطان سليمان أشد خطراً علينا من صلاح الدين نفسه!»

(المؤرخ الألماني هالمر)

سليمان القانوني بن سليم الأول..

عاشر سلاطين آل عثمان..

ارتقى رحمه الله عرش السلطنة العثمانية في السادسة والعشرين من عمره بعد وفاة أبيه سنة (926هـ/1520م)، فكان من أقوى السلاطين العثمانيين إدارةً وتسييراً وسيادةً، ومن أكثرهم غزواً وجهاداً وتجييشاً، ومن أشدهم وطأةً على أعداء الإسلام ورعباً في قلوبهم.

ومثلما كان عصر عمر بن عبد العزيز هو العصر الذهبي للدولة الأموية، وعصر هارون الرشيد هو العصر الذهبي للدولة العباسية، وعصر عبد الرحمن الناصر هو العصر الذهبي في الدولة الأموية بالأندلس.. فإنَّ عصر سليمان القانوني كان هو العصر الذهبي للدولة العثمانية.

وهذه بعض روائعه..

***

- كانت رودس جزيرة مشاكسة وحصناً حصيناً لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يقطعون الطريق أمام الحجاج المسلمين الأتراك إلى حجاز، فضلاً عن أعمالهم العدوانية ضد الدولة العثمانية، فلما حكم سليمان القانوني عزم على فتح هذه

(1) انظر: روائع من التاريخ العثماني، ص 77-91.

الجزيرة وتخليص المسلمين من شرور فرسانها واعتداءاتهم المتكررة ضدهم، فجهَّز حملةً كبرةً لفتحها، وبدأ في حصار الجزيرة أواخر سنة (1522م) حصاراً شديداً، وراح يقذف بالمدافع قلاعها وأسوارها قذفاً كثيفاً، وفي خلال ذلك كان السلطان يبعث إلى قائد فرسان الجزيرة يُنذِرُ بوجوب الاستسلام في مقابل تأمينهم والحفاظ على دمائهم، وإلا فإنَّهم سيُسقِطون القلاع فوق رؤوسهم.. وهنا قررَّت الأغلبية من الفرسان مواصلة المقاومة ورفضوا الاستسلام، وكانوا يعتقدون أنَّهم إن استسلموا وسلَّموا الجزيرة للسلطان فسيخلف وعده بحفظ دمائهم، وسيقتُلُهم جزاءً لهم عما سفكوه من دماء كثير من المسلمين سابقاً.. فلما اشتد عليهم الحصار وخارت كل قواهم في مقاومة الحصار العثماني ونفذ صبرهم على ذلك قرَّروا الاستسلام.. وهنا كان المتوقع أن يرفض هذا الاستسلام المتأخر فتُقطع رقاب هؤلاء الفرسان المُعاندون، ولكن السلطان الرحيم سليمان القانوني خالف المتوقع وقرَّر العفو عنهم والسماح لهم بمغادرة الجزيرة [1] آمنين سالمين!! ولا شكَّ أنَّ هذا التعامل النبيل مع أولئك الفرسان المجرمين لا يُشبه في شيء تعاملهم هم مع من يقع بين أيديهم من المسلمين، إذ كانوا إما أن يقتلوهم ويقضون عليهم، أو يُقيّدوهم بالأغلال في سراديب التعذيب، وفي أحسن الأحوال يرهقوهم بالأعمال الشاقة طول اليوم!

- وفي معركة «بافيا» يقع الملك الفرنسي فرنسيس (أو فرونسوا) الأول أسيراً بين يدي إمبراطور ألمانيا الشهير شارلكان سنة (1525م)، وهنا لم يجد هذا الملك الفرنسي الضعيف من سبيلٍ للخلاص مما هو فيه سوى مراسلة أقوى حاكمٍ في أوروبا (بل وفي العالم) آنذاك، وهو السلطان العثماني المسلم سليمان القانوني رحمه الله، وفي نفس هذا الوقت بعثت والدة ملك فرنسا هي الأخرى رسالةً إلى السلطان العثماني عن طريق أحد مبعوثيها من أجل إيجاد حلٍّ لإطلاق سراح ابنها، وقد تزامن

(1) غادروها واتجهوا بعدها إلى جزيرة مالطا وحكموها، ولا زالوا كذلك إلى اليوم!

مع هتين الرسالتين تجهيز القوى الأوروبية النصرانية لتحالفٍ عسكري مشترك ضخم لمواجهة العثمانيين، فجرت معركة موهاكس الشرسة سنة (932هـ/1526م) وسحق فيها العثمانيون جيوش النصارى المتحالفة سحقاً قاسياً عليهم، وقد كان الملك الألماني شارلكان مشاركاً بجيشه في هذا التحالف ولكنه بعد الهزيمة اضطر إلى إخلاء سبيل ملك فرنسا لعلمه برغبة السلطان سليمان في ذلك!!

- وفي عاصمة الخلافة رغب السلطان القانوني في بناء جامعٍ فريدٍ عن بقية الجوامع التي شيَّدها أجداده من قبل فيها، ويُقال أنَّ سبب ذلك رؤية رآها السلطان سليمان لرسول الله ﷺ أشار إليه فيها بتعمير مسجد، فتفرق رجال السلطان في أرجاء إسطنبول يبحثون له عن أنسب مكانٍ لبناء هذا الجامع، فلما وجدوا هذا المكان وقفت في طريقهم عقبةٌ صغيرةٌ ولكنها صعبة عليهم، وهي أنَّ يهودياً صاحب كوخٍ صغير يسكن في وسط تلك البقعة التي أرادوا فيها بناء جامع السلطان سليمان، فلما أرادوه أن يتخلى لهم عن أرضه التي يسكن بها مقابل ما يستحقه من مال أبى عليهم.. ثم حاولوا معه فأبى.. ثم ضاعفوا السعر المعروض عليه فأبى.. فلما يئسوا من قبوله لعرضهم رفعوا الأمر إلى السلطان مباشرةً، وطلبوا منه طرد هذا اليهودي العنيد وهدم كوخه لأنَّ بناء الجامع أصبح منوطاً بذلك حسب رأيهم!.. فهل نزل السلطان عند رغبتهم؟!.. كلا، لم يفعل، بل انطلق بنفسه نحو مسكن اليهودي لإقناعه وإرضائه ببيعه له مهما كان الثمن، وذلك بعد استشارته لشيخ الإسلام في دولته الذي أبى على السلطان هدم كوخ اليهودي قهراً وطرده، فلما فتح اليهودي بابه إذا به يتفاجأ بوجود السلطان وبعض رجاله أمامه، وذُهِلَ وهو يستمع إلى السلطان، وهو يرجوا منه بيع الكوخ.. فلم يستطع أن يرفض هذه المرة، ولا سيما وأنَّ السلطان عرض عليه أضعاف المبلغ المعروض عليه سابقاً من قِبَلِ رجاله.. وهكذا تم شراء ذلك الكوخ.. وهكذا تم بناء جامع السليمانية الفخم الذي يُعدُّ آيةً من آيات الفن المعماري الإسلامي.. وكان تصرف السلطان في هذا الأمر شاهداً من شواهد العدالة

الإسلامية. العدالة والرحمة للناس جميعاً.. وصدق الله العظيم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[الأنبياء:107].

فرحمة الله على السلطان سليمان القانوني وجزاه خيراً عمَّا قدَّمه للإسلام والمسلمين..

وفاء العظماء

﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾
(الإسراء: 34)

الوفاء خُلقٌ قويمٌ راسخ في نفوس المسلمين، وصفةٌ راقيةٌ تسمو بها نفوس بني آدم لتصل بهم إلى قمة العظمة البشرية، ورسولنا العظيم ﷺ يقول: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ» [1].. وقد تكرر الحديث عن الوفاء بالعهد في صورٍ شتى في القرآن والحديث؛ سواءً في ذلك عهد الله وعهد الناس، عهد الفرد وعهد الجماعة وعهد الدولة، عهد الحاكم وعهد المحكوم. وقد بلغ الإسلام في واقعه التاريخي شأواً بعيداً في الوفاء بالعهود لم تبلغه البشرية إلاَّ في ظل الإسلام؛ حيث تعدَّى حدود العقيدة والدين ليشمل حتى من هم أعداء لهذا الدين وأهله، فالوفاء لا يقف عند حدود الدين والعقيدة، ولو أنَّ كافراً - على سبيل المثال لا الحصر- قَتَلَ مسلماً بعد أن أعطى له الأمان فلا ينبغي للمسلم أن يصنع صنيع ذلك الكافر بحجة المثل بالمثل، بل يجب أن تُقابل الإساءة بالإحسان قدر المستطاع!!.

وهاك عزيزي القارئ شيئاً قليلاً من تاريخنا المشرق عن وفاء العظماء بالعهود والمواثيق..

***

- إبَّان فتح المسلمين لأرض العراق في خلافة عمر بن الخطاب دارت وقعة النمارق سنة (13هـ) بين المسلمين تحت قيادة المجاهد البطل أبي عبيد الثقفي، وبين

(1) صحيح: صحيح الترغيب والترهيب، للألباني، رقم (3004).

الفرس تحت قيادة جابان، فانهزمت القوات الفارسية بعد قتالٍ شديد، وأُسِرَ في المعركة قائدهم جابان، فاستطاع بدهائه أن يأخذ الأمان لنفسه ممَّن أسره، فقال المسلمون لأبي عبيدٍ: «أُقتُلْهُ فإنَّهُ الأَمِير!»، فقال أبو عبيد:

«إني أخاف الله أن أقتله وقد أمَّنه رجلٌ مسلم!! المسلمون في التواد والتناصر كالجسد، فما لزم بعضهم فقد لزم كلهم!!»

فلما ألحُّوا عليه ذاكرين له أنَّ الذي أعطاه الأمان لا يعرف أنه أمير الفرس، أصرَّ أبو عبيد على موقفه قائلاً: «لاَ أَغْدِرُ!!».. وتركه [1] !.

- وكان في في الإسكندرية أسقفٌ للقبط يقال له (بنيامين) ظل هارباً في الصحراء بسبب الاضطهاد الذي مارسه عليه الروم وعلى الأقبطا عموماً، فلما سمع عمرو بن العاص بعد دخوله المدينة فاتحاً بالقصة كتب إلى عمَّال مصر كتاباً يقول فيه: «المَوْضِعُ الَّذي فِيهِ بِنيامِين بِطَرِيقِ النَّصَارَى القِبْط لَهُ العَهْدُ والأَمَانُ والسَّلامَةُ مِنَ اللهِ، فَلْيَحَظر آمناً مطمئنًّا ويدبر حَالَ بَيْعَتِهِ وسَيَاسَةَ طَائِفَتِهِ!».. فلما سمع بنيامين هذا عاد إلى الإسكندرية بفرحٍ عظيمٍ بعد غيبة ثلاث عشرة سنة، وقد أكرمه عمرو وجاد به واحتفى!!.

- وقد فتح المجاهد وفاتح الشام أبو عبيدة بن الجراح أرض حمص، وأخذ من أهلها الجزية، ولكنه اضطرَّ بعد ذلك إلى الانسحاب منها، فردَّ الجزية التي أخذها من السكَّان، وقال: «إنَّمَا رَدَدْنَا عَلَيْكُم أَمْوَالَكُمْ لأَنَّه قَدْ بَلَغَنَا مَا جُمِعَ لَنَا مِنَ الجُمُوعِ، وأَنْتُمْ قَدْ اشْترطْتُمْ عَلَيْنَا أنْ نَمْنَعَكُمْ، وإنَّا لا نَقْدِرُ عَلى ذَلكَ.. وقَدْ رَدَدْنَا عَلَيْكُم مَا أَخَذْنَا مِنْكُم، ونَحْنُ لَكُمْ عَلَى الشَّرْطِ، ومَا كَتَبْنَا بَيْنَنَا وبَيْنَكُم إنْ نَصَرَنَا اللهُ عَلَيهِمْ» [2] !!.

---

(1) انظر: تاريخ الرسل والملوك (449/3)، قادة فتح العراق والجزيرة، ص 214.

(2) الخراج، لأبي يوسف، ص 81.

- وبعد فتح تستر اقتاد المسلمون قائد الفرس (الهرمزان) إلى المدينة حيث أمير المؤمنين عمر.. فجرى ما جرى من حوار بين الطرفين قد قرأه وسمعه كثير جُلُّنا، وفيه قال عمر للهرمزان [1]: «مَا حُجَّتكَ ومَا عُذْرُكَ في انْتِقَاضِكَ مَرَّةً بَعْدَ أخْرَى؟ فقال: أخَافُ أنْ تَقْتُلَني قَبل أن أُخْبرك. قال: لَا تَخَفْ ذَلكَ!.. واستسقى ماءً فأُتي به في قدحٍ غليظٍ، فقال: لَو مِتُّ عَطشاً لم أسْتَطِعْ أنْ أشْرَبَ فِي مِثْلِ هَذَا، فأُتي به في إناءٍ يرضاه، فجعلت يده ترتجف، فقال: إني أخَافُ أنْ أُقْتَلَ وأنَا أَشْرَبُ! فقال عمر: لا بَأْسَ عَلَيْكَ حَتَّى تَشْرَبَه. فأكفأه، فقال عمر: أعِيدُوا عَلَيْهِ ولا تُجمِعُوا عَليه بَيْنَ القَتْلِ والعَطَشِ، فقال: لَا حَاجَةَ لي في الماءِ، إنَّما أرَدْتُ أنْ اسِتأمِنَ بِهِ، فقال عمر له: إني قَاتِلُكَ! فقال: قَدْ أمَّنْتَني! فقال: كَذَبْتَ، قال أنس (ابن مالك): صَدَقَ يا أمير المؤمنين قد أمَّنته، قال عمر: وَيْحَكَ يَا أَنَسْ! أنَا أؤمِّن قَاتِلَ مَجزأة بنِ ثَوْرٍ والبراءَ بْنَ مَالِكٍ؟! والله لَتَأتِيَنَّ بِمَخْرَجٍ أوْ أعَاقِبَنَّكَ!.. وبعدها أسلم الهرمزان وأقام بالمدينة وفرض له عمر من بيت المال».

- ولما حضرتْ عبد الله بن عمر ﷺ الوفاةُ، قال: «إنه كان خطب إليَّ ابنتي رجل من قريش، وقد كان مني إليه شبه الوعد، فوالله لا ألقى اللهَ بثلث النفاق، أُشْهِدُكم أني قد زوجته ابنتي!»..

- وقال عمرو بن معد يكرب: «خَرَجْتُ يَوْمًا حَتَّى انْتَهَيْتُ إلى حَي، فإذا بفَرسٍ مشدودةٍ، ورُمحٍ مركوزٍ، وإذا صَاحِبُه في وَهْدةٍ يقضي حاجَةُ لَهُ، فقلت له: خُذْ حِذْرَك، فَإني قاتِلُكَ. قال: ومن أنت؟ قلت: أنا ابن مَعْدِ يَكْرِبٍ. قال: يا أبا ثور، ما أنْصَفْتَني، أنتَ عَلَى ظَهْرِ فَرَسِك وأنَا في بِئرٍ، فَأعْطِني عَهدًا أنّك لا تقتلني حتَّى أرْكَبَ فَرَسي وآخذ حِذري. فأعْطَيْتُهُ عَهدًا أني لا أقتُلُهُ حتَّى يركَبَ فرَسَهُ ويأخذ حِذره، فَخَرَج من المَوْضِعِ الَّذي كَان فيه حَتَّى احْتَبى بِسَيفِهِ وجَلَسَ، فَقُلْتُ له: مَا هَذا؟ قال:

(1) انظر: الكامل في التاريخ (2/391-392).

مَا أنا براكِبٍ فَرَسي ولا مُقَاتِلُك، فَإنْ نَكَثْتَ عَهدًا فأنْتَ أعْلَم!.. فتركته ومضيت، فهذا أحْيَلَ مَنْ رأيتُ!!» [1].

- و كان عند الإمام الثقة يونس بن عبيد العبدي رحمه الله حُلَلٌ مختلفة الأثمان، ضرب قيمة كل حلة منها أربعمائة وضرب كل حلة قيمتها مائتان، فمرّ إلى الصلاة وخلَّف ابن أخيه في الدكان، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمائة، فعرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها فاشتراها، فمضى بها وهي على يديه، فاستقبله يونس فعرف حلته فقال للأعرابي: «بِكَمْ اشْتريْتَ؟ فقال: بْأرْبَعِمائةٍ. فقال: لَا تُسَاوِي أكثرَ مِنْ مَائَتَيْنِ فَارجِعْ حَتَّى تردَّهَا!. فقال: هَذِهِ دُنيا بما فِيهَا».. ثم ردّه إلى الدكان وردّ عليه مائتي درهم وخاصم ابن أخيه في ذلك وقاتله، وقال: أمَا اسْتَحْيَيْتَ؟! أمَا اتَّقيتَ اللهَ تربَحُ مثلَ الثَّمَنِ وتَتركُ النُّصْحَ للمُسْلمينَ!.. فقال: وَاللهِ مَا أَخَذَهَا إلَّا وهُوَ راضٍ بهَا. قال:فهلَّا رَضَيْتَ له بما ترضَاهُ لِنَفْسِكَ؟!!» [2].

- وفي عهد مؤسس الدولة العثمانية عثمان بن أرطغرل كان الوفاء صفةً بارزةً وخُلُقاً متأصِّلاً في شخصية هذا البطل الإسلامي، فعندما اشترط أمير قلعة (أولباد) البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني أن لا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلى داخل القلعة التزم عثمان بذلك، وكذلك من جاء بعده [3]!.

وفي الأخير لا يسعني إلا أن أنوّه بأنَّ المسلمين عبر تاريخهم يكادون أن يكونوا الطرف الوحيد الذي وفَّى بعهوده ووعوده مع الطرف الآخر من أعدائهم وخصمائهم غير المسلمين، وغالباً ما كان المسلمون ضحية الغدر والخيانة والنكث بالعهود والمواثيق، ولا عجب في ذلك لأنَّ صفتا الغدر وخيانة العهود متأصلة في نفوس غير

(1) أخبار الظراف والمتماجنين، لابن الجوزي، ص 113.

(2) انظر: إحياء علوم الدين (82/2).

(3) الدولة العثمانية، علي الصلابي، ص48.

المسلمين، سواءً كانوا نصارى أو يهود أو مجوس أو ملحدين أو غيرهم، أو حتى من الشيعة الروافض! وذلك ما لا يفقهه كثير من حكامنا اليوم وحواشيهم كونهم لا يقرأون تاريخهم!

عملاقٌ في زمن الأقزام [1]

«إنني لن أنخدع بكلامهم المعسول، ولن أخشى جيش المغول، وسأضرب بالسيف ما دمت حياً!!»

(الكامل محمد الأيوبي الشهيد)

وكما جرت العادة..

في كل حقبةٍ من تاريخنا يكثر فيها الأنذال ويتسلط فيها الخونة يأبى الله إلا أن يخلق - في الحقبة ذاتها- من يُخلص لدينه، وتأخُذُه الغيرة على أمته، ويرفع راية الجهاد في سبيله عالياً!.

وهذا هو الحال الحاصل مع البطل الذي وقف في وجه التتار وقاومهم في الوقت الذي ركع لهم غالب أمراء المسلمين في الشام والعراق والأناضول ووَالَوْهم أقذر موالاة.

إنه البطل الأيوبي الكامل ناصر الدين، أمير مدينة ميافارقين!.

فها هم التتار بعد إسقاطهم حاضرة الخلافة العباسية بغداد يزحفون نحو بلاد الشام بقيادة المجرم السفاح هولاكو، ليُسقطوا المدينة تلو المدينة، فسعى الأمراء المسلمون في الشام والعراق والأناضول (تركيا) وسارعوا لتقديم فروض الطاعة والولاء لهولاكو؛ فعقدوا معه الأحلاف والمعاهدات، وأغدقوا عليه بالهدايا والهِبات.. كل ذلك وقد ضُرِبت عليهم الذِّلَّة والمسكنة قبَّحهم الله..

(1) انظر: قصة التتار، د/راغب السرجاني، السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت، د/الصلابي.

وبذلك تكون الأبواب قد فُتِحت أمام هولاكو دون أدنى جهد، وصارت الطريق إلى الشام مُعبَّدةً له ولجيشه، فلن تواجهه مشكلةٌ قط ما دام أمراء الشام والعراق ومن حولهم في قبضته وتحت طاعته، وحتى إذا ما حاول أحدهم شق عصا الطاعة فلن يبذل في سبيل القضاء عليه الجهد الكبير..

ولكن..

فجأةً تتطاير الأخبار إلى مسامع هولاكو أنَّ أحد الأمراء المسلمين يرفض الطاعة ويمتنع عن عقد معاهدة سلام مع التتار!..

أتدرون من ذلك الرجل؟!..

إنه الكامل الأيوبي رحمه الله!..

وبطبيعة الحال فقد نظر هولاكو إلى الكامل على أنَّه (إرهابيٌّ) و(متطرّف) يريد زعزعة استقرار الجيش التتري وأمـ. أقصد زعزعة استقرار المنطقة وأمنها!..و لا شكَّ أنَّ هولاكو كان يعلم أنَّ هذا الرجل لا يُمثِّل دين الإسلام؛ لأنَّ الإسلام دين السماحة والرحمة والحب والسلام..!

ولكن هولاكو آثر أن يتريث قليلاً حيث بعث إلى الكامل رسولاً نصرانياً عربياً اسمه (قسيس يعقوبي)..

فماذا فعل الكامل مع رسول هولاكو يا ترى؟!..

لقد قام الكامل بقطع رأس الرسول!..

ثم قال: «إنَّني لَنْ أنْخَدِعَ بِكَلاَمِهِم المَعْسُولِ، ولَنْ أخْشَى جَيْشَ المَغُولِ، وسَأضْرِبُ بالسَّيْفِ مَا دُمْتُ حَياًّ!!» ..

ورغم أنَّ الكامل قتل الرسول مع أنَّ الأعراف تقتضي ألَّا يُقتل الرسل بموجب أحاديث النبي "حيث نهى" عن قتل الرسل (مهما كانوا وأيًّا كانوا).. ولكن الذي لا ريب فيه هنا هو أنَّ الكامل بقتله لرسول هولاكو يكون قد أعلن الحرب عليه، زيادةً على

أنَّ ذلك يُعدُّ كنوعٍ من شفاء الغليل والانتقام للمليون مسلمٍ الذي أبادهم هولاكو وقضى عليهم دون رحمة.

وهنا أدرك هولاكو إدراكا تاماً أنَّ الكامل أمير منطقة ميافارقين سيكون بمثابة الشوكة التي ستقصم ظهره وتُعيق زحفه إلى الشام، ومن بعدها إلى مصر، لذلك فقد وجب القضاء عليه على الفور، وهذا ما شرع في تنفيذه المجرمُ هولاكو!.

فقد بعث على الفور ابنه (أشموط) وسيره إلى ميافارقين وكلَّفه بالقضاء على الكامل (الإرهابي)، وكان ذلك سنة (657هـ)، فحوصِر الكامل حصاراً شديداً قابله بصمودٍ شديد، وذلك رغم كل الخذلان الذي تلقاه من جانب أمراء المدن والمناطق الأخر، وكذلك رغم أنَّ التتار لم كانوا يتلقون المساندة الكاملة من الممالك النصرانية المجاورة كمملكتي أرمينيا والكرج.

لقد كان كريماً في زمان اللئام!..

وكان شجاعاً في زمن الجبناء!..

لقد كان من المفروض في هذا الحصار البشع الذي ضُرِب على ميافارقين أن يأتيها المدد من الإمارات الإسلامية الملاصقة لها.. لكن هذا لم يحدث.. لم تتسرب إليها أي أسلحة ولا أطعمة ولا أدوية.. لقد احترم الأمراء المسلمون النظام الدولي الجديد الذي فرضته القوة الأولى في العالم على إخوانهم وأخواتهم وأبنائهم وبناتهم وآبائهم وأمهاتهم المسلمين!..

وعلى العموم..

سقطت ميافارقين بعد عامٍ ونصف العام من الصمود والمقاومة الهائلين، وكانت المفاجأة المؤسفة هلاك كافة سكان ميافارقين جوعاً وعطشاً! ما عدا سبعين شخصاً نصف أحياء كان من بينهم الكامل الأيوبي!!

وهنا سُير رحمه الله إلى هولاكو، فعنَّفه هذا الأخير وأمر بتقطيعه وهو حي، فأخذ جنوده المجرمون يُقطِّعون لحمه قِطعاً صغيرةً ويدفعون بها إلى فمه حتى مات، ثم

قطعوا رأسه وحملوه على رمح وطافوا به في البلاد، حتى وصل إلى دمشق، فعلَّقوه على باب الفراديس، حتى أنزله الأهالي ودفنوه..

وقام التتار بقتل كل من وجدوه حياً في ميافارقين، وهدموا كل ما وقع في أيديهم، وهذا يدل على شدة حنقهم من الملك الكامل رحمة الله عليه، ومن مقاومته لهم، ولا شك أنَّ هذه المقاومة ساهمت في تحطيم سمعة التتار الحربية المرعبة لأنَّ مقاومة الكامل أصبحت رمزاً لإرادة المقاومة ضد التتار، وأصبح الكامل بموته قدوةً ومثالاً للتضحية والشهادة رحمه الله تعالى..

وقد رثاه الإمام المؤرخ أبو شامة المقدسي قائلًا: [الخفيف]

ابنُ غازي غزا وجاهد قومًا   أثخنوا في العراق والمشرقين
طاهرا عاليا ومات شهيدًا   بعد صبر عليهم عامين
لم يشنه أن طيف بالرأس منه   فله أسوة برأس الحسين
وافق السبط في الشهادة والحمـ   ـل لقد حاز أجره مرتين
ثم واروا في مشهد الرأس ذاك   الرأس فاستعجبوا من الحالين
وارتجوا أنه يجيء لدى البعث   رفيق الحسين في الجنتين

ملاذكرد و أسر إمبراطور الروم

«تُعدُّ معركة ملاذكرد أشد ما وقع في التاريخ البيزنطي من كوارث، بل إنها أكبر كارثةٍ حلت بالإمبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الخامس الهجري!»

«و تُعتبر هزيمة البيزنطيين في ملاذكرد نقطة تحول في التاريخ الإسلامي البيزنطي، فلأول مرة يقع الإمبراطور نفسه أسيراً في أيدي المسلمين!»
(المؤرخ الإسلامي علي الصلابي)

كانت الفترة الأولى من الخلافة العباسية تتسم بالقوة والشدة نظراً لوجود خلفاء أقوياء وأشداء في صورة الخليفة المنصور، والمهدي، والرشيد، والمعتصم، وتمتد تلك الفترة من يوم تأسست الدولة سنة (132هـ) إلى (247هـ)..

ولكن ما أن تنقضي تلك الفترة القوية حتى يبدأ الضعف بالانسلال داخل الجسد العباسي (تماماً كما تقتضيه سنَّة الله في قيام الدول ثم ضعفها وسقوطها)، ونتيجةً لذلك فقد برزت على الساحة دولٌ إسلامية نشأت تحت مظلة الخلافة العباسية وحملت على عاتقها مقاومة الغزو الصليبي في الشرق والغرب، وصد الخطر الشيعي البويهي في مركز الخلافة ببغداد، ثم العبيدي (و ما هو على الصحيح بالفاطمي) بمصر والشمال الأفريقي، وكذلك الحملات المغولية في بداية القرن السابع الهجري..

ومن تلك الدويلات الإسلامية العظيمة دولة السلاجقة الأتراك!

ودولة السلاجقة هذه ارتبط بها اسمُ عظيمٍ من عظماء الإسلام، ومجاهدٌ كبير من مجاهديه، وعلمٌ بارز من أعلامه..ألا وهو الأسد الشجاع، الملك العادل، السلطان الكبير، ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق!

وهو نفسه الرجل الذي ارتبط اسمه باسم معركةٍ غيرت مجرى التاريخ.. ألا وهي معركة ملاذ كرت!

ورغم أننا نقرأ عن قصة هذه الموقعة الخالدة ونسمعها مراراً، إلا أنَّنا-و الله- لا نكل ولا نمل! وهذا شأن بقية صفحات تاريخنا الإسلامي، فإنَّ المرء لا يكاد تضيق نفسك أحياناً من الواقع المؤلم حتى يتجه نحو بطون كتب التاريخ الإسلامي ويبدأ بتقليب صفحاته المشرقة، فيزداد أملاً وإيماناً، وحباً لعظماء تاريخه، وتعلقاً بهم، واستشرافاً للمستقبل وتفاؤلاً بالقادم!

وقصة موقعة ملا ذكرت تبدأ من يوم وفاة ملك السلاجقة طغرل بك سنة (455هـ) وخلافة ألب أرسلان له، فمن يومها بدأ ألب في ترتيب أمور الدولة الداخلية، خاصةً بعد أن ضمن اجتماع الكلمة عليه، وقرَّب منه الوزير الصادق المخلص نظام الملك..

حتى دخلت سنة (463هـ)..

ففيها أقبل ملك الروم البيزنطي (أرمانوس) بجحافله العظيمة الممزوجة بالروم والكرخ والفرنج، والذي يفوق عددهم الـ(200،000)، أمَّا الأسد السلجوقي ألب أرسلان فقد جهَّز له مالا يزيد عن الـ(20،000) مجاهدٍ فقط!.. أي أقل من عُشر (10/1) الجيش الصليبي! فألب أرسلان لم يكن لديه وقت لاستدعاء مددٍ من المناطق التابعة له، وقال قولته المشهورة: أنا أحتسب عند الله نفسي، وإن سعدت بالشهادة ففي حواصل الطير الخضر من حواصل النسور الغبر رمسي، وإن نُصرت فما أسعدني وأنا أمسي ويومي خير من أمسي[1] ! ورغم ذلك فإنَّه لم يُخف خوفه من عدد البيزنطيين كما سنرى الآن..

ولكن شتان بين الجيشين!!

(1) دولة السلاجقة، علي الصلابي، ص 79.

شتان بين جيشٍ مفعمٍ بالإيمان الصادق يبتغي شهادةً في سبيل الله أو نصراً يردع به أعداء الله، وبين جيشٍ مفعم بالغطرسة والتكبر وجنون العظمة ومن عزمه- قبَّحه الله- أن يُبيد الإسلام وأهله، والقدر يقول له-كما قال ابن كثير ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر:72]

شتان بين فريقٍ مؤيَّدٍ بنصر الله خالق الكون والبشر، وبين فريقٍ يحارب دين الله ويتطاول على قانونه!

وبإيجاز فذاك فريق الآخرة والجنة، وذاك فريق الدنيا والنار، فعلى من تكون الشفقة إذاً وربنا يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴿١٤١﴾﴾ [النساء:141] ؟!!

والتقى الجمعان يوم الأربعاء (25 ذي القعدة 463هـ) مكانٍ يُقال له الزهوة، وخاف السلطان من كثرة جند الروم، فأشار عليه الفقيه (أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري) بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال، حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين، فلما كان ذلك الوقت وتواجه الفريقان، نزل السلطان عن فرسه وسجد لله ﷻ، ومرَّغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره، فأنزل نصره على المسلمين ومنحهم أكتافهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأُسِر ملكهم أرمانوس، أسره غلامٌ رومي!..

فلمَّا أوقف بين يدي الملك ألب أرسلان ضربه بيده ثلاث مقارع وقال: «لَوْ كُنْتُ أنَا الأَسِير بَيْنَ يَدَيْكَ مَا كُنْتَ تَفْعَلُ؟»، قال: «كُلَّ قَبِيحٍ»، قال: «فَما ظَنُّكَ بِي؟»، فقال: «إمَّا أَنْ تَقْتُلَ وتُشَهِّرَني فِي بِلَادِكَ، وإمَّا أَنْ تَعْفُو وتَأْخُذَ الفِدَاءَ وتُعِيدَني». قال: «مَا عَزَمْتُ عَلَى غَيرِ العَفْوِ والفِدَاءِ»!!. فافتدى نفسه منه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. فقام بين يدي الملك وسقاه شربةً من ماء وقبَّل الأرض بين يديه! وقبَّل الأرض إلى جهة الخليفة إجلالاً وإكراماً! وأطلق له الملك عشرة آلاف دينار ليتجهز بها، وأطلق معه جماعةً من البطارقة وشيعه فرسخاً، وأرسل معه جيشاً يحفظونه في

بلاده، ومعهم رايةٌ مكتوبةٌ عليها «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»! فلما انتهى إلى بلاده وجد الرومَ قد ملَّكوا عليهم غيره، فأرسل إلى السلطان يعتذر إليه، وبعث من الذهب والجواهر ما يُقارب ثلاثمائة ألف دينارٍ، وتزهَّد ولبس الصوف، ثم استغاث بملك الأرمن فأخذه وكحَّله، وأرسله إلى السلطان يتقرب إليه بذلك [1].

فرحمة الله على البطل الإسلامي الفذ ألب أرسلان وعلى أسود السلاجقة..

(1) البداية والنهاية (12/100-101).

مصرع إمبراطورية المجوس

«إذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ»

(رسول الله ﷺ)

كانت الدولة الفارسية الساسانية المجوسية في الغرب (و مركزها إيران) هي الأكبر والأكثر نفوذاً في العالم قبل وأثناء بزوغ فجر الإسلام، مناصفةً مع دولة الروم النصرانية في الشرق (و مركزها القسطنطينية).. وقد كانت هاتان الإمبراطوريتان في نظر شعوب العالم آنذاك كما هي الولايات المتحدة الأمريكية والصين في نظر شعوب العالم اليوم!.

ولكن ما أن خضعت كامل الجزيرة العربية للإسلام، وتوفي رسول الله ﷺ وجاء بعده خليفته الصِّدِّيق ﷺ حتى بدأت مهمة تبليغ الرسالة إلى أمم الأرض بعد التخلص من مشكلة الرِّدَّة ورؤوسها، فراحت جيوش الفاتحين تزحف زحفاً إلى العراق حيث دولة الفرس، وإلى الشام حيث دولة الروم، والذي يعنينا هنا هو دولة الفرس المجوس..

فقد تواصلت فتوحات الصحابة والمسلمين في أرض العراق وتوالت انتصاراتهم أمام جحافل فارس، وبلغت تلك الانتصارات الذروة في عهد عمر والشطر الأول من عهد عثمان، ومن أشهر المعارك الخالدة التي خاضها المسلمون ضد المجوس:

- معركة ذات السلاسل (محرم 12هـ).
- معركة المذار « الثني » (صفر 12هـ).
- معركة الوَلَجة (صفر 12هـ).
- معركة الأنبار « ذات العيون » (رجب 12هـ).

- معركة عين التمر (رجب 12هـ).

- معركة فتح دومة الجندل (رجب 12هـ).

وكل هذه المعارك المهمة إضافةً إلى تسعةٍ أخرى خاضها خالد بن الوليد ومعه أبطال وقادةٌ كبار كالقعقاع بن عمرو والمثنى بن حارثة وعياض بن غنم، وبذلك يكون مجموع تلك المعارك خمس عشرة معركةً على أرض العراق، فلم ينهزم سيف الله المسلول في واحدةٍ قطُّ! وقد امتدت من محرم سنة (12هـ) إلى صفر من السنة التالية (13هـ)!!.. وبعد توجُّه ابن الوليد إلى الشام بأمر الخليفة الأول تواصلت وقائع المسلمين ضد الفرس المجوس، وكان من أبرز قادة المسلمين فيها المثنى بن حارثة الشيباني، أبو عبيد بن مسعود الثقفي، القعقاع بن عمرو التميمي، سعد بن أبي وقاص، النعمان بن مقرن، وغيرهم.. فخيضت المعارك الشهيرة التالية:

- معركة بابل (ربيع الأول 13هـ) وكانت الأخيرة في عهد أبي بكر وقبل خلافة عمر.

- معركة النمارق (شعبان 13هـ).

- معركة الجسر (شعبان 13هـ)، وشهدت انهزام المسلمين للمرة الأولى واستشهاد البطل أبو عبيد الثقفي.

- معركة البويب (رمضان 13هـ).

- معركة القادسية (شعبان 15هـ)، وهي أعظم معارك المسلمين ضد الفرس في العراق على الإطلاق، وقد انفتحت على أثارها أبوبا العراق للمسلمين، ومن وراء العراق فارس كلها.

وبعدها استطاع المسلمون تحت قيادة سعدٍ بن أبي وقاص من فتح المدائن عاصمة الدولة الفارسية (منتصف ذي الحجة- منتصف صفر 15هـ- 16هـ)، وقد كان فتحاً مُبيناً خالداً تحقَّقت فيه البشارة النبوية بفتح البيت الأبيض[1]، وهو قصر

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة، د/أكرم ضياء العمري، ص 425، وصحيح مسلم (1822).

كسرى الفرس في المدائن، كما تم تحصيل ما لا يُتخيَّل من الأموال والكنوز والتحف الكسروية في القصر، وكان في جملة ذلك تاج كسرى المكلَّل بالجواهر النفيسة، وسيفه وسِواره وقَباؤه، وبساط إيوانه، فأرسل سعدٌ خُمس الغنائم إلى عمر بالمدينة.. ولما نظر عمر إلى ذلك قال: «إنَّ قَوْماً أدَّوا هَذَا لأُمَنَاءُ!»، فقال له علي بن أبي طالب: «إنَّكَ عَفَفْتَ فَعَفَّتْ رَعيَّتُكَ، ولَوْ رَتَعْتَ لَرَتَعتْ» [1].

ثم توالت انتصارات المسلمين على الفرس وفُتِحت الكثير من أراضيهم، وخاضوا ضدهم معاركاً ووقائعاً كثيرة، حتى إذا ما دخلت سنة (21هـ) خاض الطرفان موقعةً كبرى وفاصلة هي موقعة نَهَاوَنْد (محرم 21هـ)؛ وتُسمى بـ(فتح الفتوح) لأنَّه لم تقم لأمة الفرس الساسانيين قائمةً بعدها، فانهارت إمبراطوريتهم انهياراً كُلِّياً بعد ما يزيد عن مئات السنين من الحكم والمُلك، وكان ذلك رسمياً يوم مقتل كسرى يزدجر بن شهريار..

ففي سنة (22هـ) اقترح الأحنف بن قيس على أمير المؤمنين عمر أن يغزو بلاد خراسان -وهي بلاد شاسعةٌ شرق فارس- حتى يُضيِّقوا على كسرى يزدجر، فإنَّه هو الذي يستحث الفرس والجنود على قتال المسلمين. فلما علم يزدجر بقدوم المسلمين كتب إلى ملك الصُّغد يستمده، وكتب إلى ملك الصين يستعينه، وكتب إلى خاقان ملك الترك يستمده، فلم يحفلوا برسائله.

ودخل الأحنف خراسان وأخذ يفتح البلد تلو البلد، ويزدجر يفر من أمامه إلى بلدٍ آخر، حتى اضطرَّ يزدجر أن يعبر النهر.. وتمكنَّ الأحنف من خراسان، واستخلف في كلِّ بلدةٍ أميراً، وكتب بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر، ينهاه عن العبور إلى ما وراء النهر وقال: احفظ ما بيدك من بلاد خراسان..

(1) تاريخ الرسل والملوك (20/4).

دخل يزدجر بلاد ما وراء النهر وكان قد استغاث بملوكها فلم يهتموا، ولكن لما لجأ إلى بلادهم تعيَّن عليهم إنجاده في شرع الملوك، فسار معه خاقان الأعظم ملك الترك، ورجع يزدجر بجنودٍ عظيمة فيها ملك الترك، واستردُّوا بعض مدن خراسان، ثم قصدوا إلى حيث يقيم الأحنف بن قيس وكان جميع من عنده عشرين ألفاً من الجند فقام الأحنف في الناس خطيباً: «إنَّكُمْ قَلِيلٌ وعَدُوُّكُمْ كثير، فَلَا يَهُولَنَّكُمْ، فَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئةً كَثِيرةً بإذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابرينَ». وكان من عادة الترك أنهم لا يخرجون للقتال من أماكنهم التي يكمنون فيها، حتى يخرج ثلاثة من كهولهم بين أيديهم، يضرب الأول بطبلةٍ ثم يخرج الثاني بطبلةٍ ثم يخرج الثالث بطبلةٍ ثم يخرجون بعد الثالث..

وكان الأحنف بن قيس قد خرج مع بعض أصحابه ليلاً يستطلعون أين يبيت عدوهم.. فلما قرب الصبح خرج الثلاثة الذين يضربون الطبل فقتلهم الأحنف الواحد تلو الآخر، فلما خرجت الترك ووجدوهم مقتولين، تشاءم بذلك ملكهم وتطير وقال: «مَالَنَا فِي قِتَالِ هَؤُلاءِ القَوْمِ مِنْ خَير، فَانْصَرِفُوا بِنَا»!..

ورجع كسرى خاسراً الصفقة، وتخلَّى عنه من كان يرجو النصر منه، وتحير إلى أين يذهب؟..

وأشار عليه بعض أولي النُّهى من قومه: «إنَّا نَرَى أنْ نُصَالِحَ هَؤُلاءِ القَوْمَ، فَإنَّ لهمْ ذِمَّةً ودِيناً يرجِعُونَ إلَيْهِ، فَنَكُونَ عَلَى بَعْضِ هَذِهِ البِلادِ وهُمْ مُجَاوِرُونَا، فَهُم خَير لَنَا مِنْ غَيرِهِمْ».. فأبى عليهم كسرى ذلك!!..

ثم بعث إلى ملك الصين يستغيث به، فجعل ملك الصين يسأل رسول يزدجر عن هؤلاء المسلمين الذين فتحوا البلاد وقهروا العباد فجعل الرسول يصفهم له: كيف يصلون؟ وكيف يقاتلون؟ فكتب إلى يزدجر[1]:

(1) انظر:الكامل في التاريخ (2/436-437).

«إنَّه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيشٍ أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق لك علي، ولكن هؤلاء الذين وصفهم لي رسولك، لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو خلا لهم سربهم أزالوني ما داموا على وصف، فسالِمهم وارضَ منهم بالمسالمة، ولا تُهيِّجهم ما لم يُهيِّجونك!».

هرب يزدجر في جماعةٍ يسيرةٍ إلى مرو، فسأل من بعض أهلها مالاً فمنعوه وخافوه على أنفسهم، فبعثوا إلى الترك يستفزونهم عليه، فأتوا فقتلوه أصحابه وهرب هو حتى أتى منزل رجلٍ ينقش الطواحين على شط، فأوى إليه ليلاً، فلما نام قتله وأخذ ما عليه من ملبسٍ وتيجان، وجاءت الترك فيطلبه فوجدوه قد قتله هذا الرجل، فقتلوا ذلك الرجل وأهل بيته وأخذوا ما كان مع كسرى، ووضعوا كسرى على تابوتٍ وحملوه إلى اصطخر، وهو آخر ملوك فارس في الدنيا على الإطلاق؛ لقول رسول الله ﷺ في حديث البخاري: «إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللهِ» [1]. وكان قتله بعد سنتين من إمارة عثمان [2].

(1) صحيح: صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ أحِلَّت لكم الغنائم، رقم (3120)..

(2) الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي (140/1).

الغزو الإسلامي لروما

«وليس في سير الحملات البحرية الإسلامية أغرب وأمتع من غزو المسلمين لمدينة رومة، فقد غزا المسلمون مدينة القياصرة مرتين. وليس لدينا سوى لمحاتٍ ضئيلةٍ من أخبار هذه الغزوة التي عنيت بالإشارة إليها تواريخ الفرنج فقط»

(الأستاذ الباحث محمد عبد الله عنان)

كأني أرى الدهشة وقد ارتسمت على وجوه بعض القراء الكرام وهم يقرأون هذا العنوان الغريب؟!..

نعم، أي والله! لقد غزونا روما غير ما مرةٍ عبر الحملات البحرية، بل واضطرَّ البابا فيها إلى دفع الجزية للمسلمين سنوياً!.. كان ذلك في القرن الثالث للهجرة النبوية الشريفة.

وأترك الحديث عن مجريات وأحداث ذلك الغزو للأستاذ القدير والباحث الكبير (محمد عبد الله عنان) رحمه الله حيث يقول: « وليس في سير الحملات البحرية الإسلامية أغرب وأمتع من غزو المسلمين لمدينة رومة. فقد غزا المسلمون مدينة القياصرة مرتين. وليس لدينا سوى لمحاتٍ ضئيلةٍ من أخبار هذه الغزوة التي عنيت بالإشارة إليها تواريخ الفرنج فقط. وقد نحمل صمت الرواية العربية على أنَّ هذه الغزوة لم تكن لحساب حكومة إسلامية منظمة، وإنما قامت بها عصابات قوية من المسلمين. غير أنه يلوح لنا من تكرر هذه الحملات على الشواطئ الإيطالية وعلى

رومة، ومن ضخامتها وانتظامها، ومن تعاهد قادتها مع البابا، ومن خروجها من ثغور صقلية وعودها إليها، أنها كانت على الأقل تعمل بوحي حكومة صقلية، أو بالأحرى إفريقية التي كانت صقلية تابعةً لها.

وكانت ملكة العالم رومة لا تزال حتى في ذلك العهد الذي فقدت فيه منعتها القديمة، تتمتع بلمحة من هيبتها الذاهبة. وكان القوط والوندال واللومبارد قد غزوها مراراً وأثخنوا في أنحائها الفخمة، ولكنهم احترموا دائماً أحياءها ومعاهدها المقدسة التي كانت تقع في ظاهر الفاتيكان وفي طريق ثغر أوستيا الواقع على مصب تقيري (التيبر)، ولكن المعاهد والأساطيل النصرانية لم تبث مثل هذه الروعة في أنفس البحارة المسلمين. ففي سنة 846م (231هـ) سارت حملةٌ كبيرةٌ من صقلية نحو الشمال بحذاء الشاطئ الإيطالي، وبعد أن عاثت في ثغوره وحاصرت جايتا ونهبت فوندي، رست عند مصب نهر تقيري. وليس في الرواية الإسلامية ما يلقي ضياءً على هذه الغزوة. ولكنها وقعت في عهد أبي العباس محمد بن الأغلب أمير إفريقية (226-242هـ)، وكان على صقلية يومئذ الفضل بن جعفر الهمذاني. والظاهر أنها كانت من السرايا البحرية الخاصة، ولكن لا ريب أنَّ لأمير صقلية يداً في تنظيمها وتوجيهها. وكان على كرسي البابوية يومئذ البابا سرجيوس الثاني. وكانت أسوار رومة لا تشمل كل المدينة القديمة، بل كان الحي المقدس، وفي كنيستا القديس بطرس والقديس بولس وطائفة كبيرة من المعابد والقبور القديمة، خارجاً عن الأسوار، معرضاً للاعتداء. فانقض البحارة المسلمون على ذلك الحي وجرَّدوا الهياكل والأصنام من حللها النفيسة، وانتزعوا هيكلاً فضياً من قبر القديس بولس، وضربوا الحصار على مدينة القياصرة. فارتاع البابا، واهتزَّ الشعب الروماني فرقاً ورعباً، وبادر الإمبراطور لويس الثاني ملك الفرنج واللومبارد بإرسال حملةٍ من جنده لمقاتلة الغزاة، وجهَّزت ثغور نابولي (نابل) وأمالفي وجايتا حملةً بحرية لمطاردتهم. وقدمت في ذلك الحين سفنٌ مسلمةٌ أخرى لتشد أزر الحملة. على أنَّ الذي أنقذ المدينة الخالدة من الوقوع

في يد المسلمين هو خلاف الزعماء المسلمين أنفسهم، فرفعوا الحصار بعد أن قاتلوا جند الإمبراطور وسفن الثغور الإيطالية قتالا رائعاً غرق فيه بعض سفنهم، وعادوا إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والأسرى (سنة 850م»).

ويضيف الأستاذ عنان: « وتوالت حملات السرايا المسلمة بعدئذٍ على الثغور الإيطالية. وكانت في الغالب حملات ناهبة. ولكن فكرة غزو المدينة الخالدة لبثت تجول في أذهان المسلمين أعواماً أخرى. ففي سنة 870م (256هـ) نشط أمراء البحر المسلمون في ثغور إفريقية والأندلس إلى تجهيز حملة كبيرة. ولم نجد في الرواية الإسلامية ما يلقي الضياء أيضاً على أخبار هذه الحملة. ولكن هنالك ما يدل على أنَّ حكومتي إفريقية وصقلية هما اللتان أشرفتا على إعدادها ومدها بالمؤازرة المادية. وكان أمير إفريقية يومئذٍ محمد بن أحمد بن الأغلب (250-261هـ)، وعلى صقلية محمد بن خفاجة. وكان بن الأغلب قد افتتح مالطة قبل ذلك بعام (255هـ) وظهر خفاجة بن سفيان أمير صقلية بحملاته البحرية في مياه قلورية. واجتمعت الوحدات المختلفة في بعض ثغور سردانية، ثم قصدت إلى الشاطئ الإيطالي فأثخنت فيه كعادتها، ورست عند مصب تقيري على قيد ستة عشر ميلاً من رومة. وكان البابا ليون الرابع قد عقد محالفة دفاعية مع مجمع الثغور الإمبراطورية، أعني نابولي وأمالفي وجايتا، فبادر أسطولها في الحال بالزحف على سفن المسلمين، تحت إمرة قائدٍ شجاع فتى يدعى قيصريوس. فخفَّ المسلمون إلى لقائه، ونشبت بين الفريقين معركة بحرية كبرى في مياه أوستيا ثغر رومة. ولكن عاصفة هائلة هبت عندئذٍ فارتدَّ الأسطول الفرنجي إلى الشاطئ، واصطدمت سفن المسلمين بعضها ببعض فغرق عددٌ منها. بيد أنَّ هذه الخسارة الجزئية لم ترد على المسلمين عن عزمهم، فلبثوا يهدِّدون المدينة بالحصار حتى اضطرَّ البابا يوحنا الثامن خلف البابا ليون أن يفاوضهم في الجلاء، على أن يدفع لهم جزيةً سنويةً قدرها خمسةٌ وعشرون ألف مثقال من الفضة.

وهكذا كانت خاتمة المحاولة التي بذلها المسلمون لغزو مدينة القياصرة. فلم يعودوا إلى تلك المياه في حملاتٍ كبيرةٍ منظمة. ولم يكن فتح رومة في ذلك العصر أمنية بعيدة المنال كفتح القسطنطينية مثلاً، ولكن الخلاف كان يجثم دائماً في طي هذه الحملات، وكان ظمأ الكسب يغال على فكرة الاستقرار والفتح السياسي المنظم.. فكانت فكرة افتتاح رومة في الواقع فكرة المغامرين من أمراء البحر والبحارة المسلمين، عليهم غرمها ولهم غنمها، وإن كانت حكومة إفريقية لم تضمن عليهم كما قدمنا بمؤازرتها المادية أحياناً، والمعنوية دائماً» [1].

سبحان الله! لقد كان بوسع المسلمين في القرن الثالث أن يفتحوا روما (و ما أدراك ما روما!) بتلك السهولة التي شاهدناها في أحداث غزواتهم المتكررة لها، لولا الخلاف الذي نشأ بين أمراء البحرية الإسلامية، رغم أنهم فرضوا الجزية على البابا!..

لقد كان بالإمكان أن يُخلِّد التاريخ رجالاً مغمورين مثل محمد بن أحمد بن الأغلب، أو محمد بن خفاجة، أو خفاجة بن سفيان، لو أنهم نجحوا في فتح مدينة القياصرة، كما خلَّد محمد الثاني فاتح القسطنطينية من بعدهم..

لقد كان بوسع أولئك الأبطال الأغالبة الذين غزوا روما أن يظفروا بشرف فتحها إذ بشَّر النبي ﷺ بذلك [2].. ولا أظن أنهم كانوا يغفلون عن هذه البشارة النبوية العظيمة.

وفي الأخير لا ننسى أنَّ فاتح القسطنطينية محمد الثاني بعد أن فتح مدينة (أوترانت) الإيطالية سنة (1480م/885هـ)، كان رحمه الله ينوي إكمال فتح إيطاليا كاملةً، ويُقال: أنَّه أقسم بأن يربط حِصانه في كنيسة القِدِّيس بُطرس بمدينة روما!! ولكن الأجل سبقه فتوفي رحمه الله قبل أن يُباشر ما طمح إليه[3].

(1) انظر: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، لمحمد عبد الله عنان، ص 99-103.

(2) صحيح: انظر: السلسلة الصحيحة (33/1)، رقم (4).

(3) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص 175-176.

ذهول المقوقس

«والذي يُحلف به! لو أنَّ هؤلاء استقبلوا
الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء
أحد!»

(المقوقس)

في البداية أودُّ القول بأنَّ فتح المسلمين لمصر ليس كغيره فتح، وروائع الأحداث والقصص التي رُوِيت حول ذلك الفتح كثيرةٌ كما لم يروى في فتحٍ آخر للمسلمين، سواءً من المصادر الإسلامية أو النصرانية أو القبطية، وذلك لعدة أسبابٍ منها عراقة هذه البلاد وعظمتها، وأهميتها بالنسبة للروم والمسلمين في ذلك الوقت على حد سواء، وإصرار الصحابة والمسلمين الكبير على فتحها، وغيرها من الأسباب..

ونحن الآن بصدد الحديث عن قصة ما جرى من محادثات ومراسلات دبلوماسية بين قائد المسلمين عمرو بن العاص وبين المقوقس نائب ملك الروم على مصر، حيث أظهر ابن العاص لحاكم مصر أهداف المسلمين الثابتة وغايتهم الواضحة من مجيئهم للبلاد، وفي مقدمة تلك الأهداف الدعوة إلى الإسلام والترغيب فيه، أو الجزية كخيارٍ ثاني، وإلا فالحرب في حالة رفض الخيارين الأولين! فهذه هي القاعدة الأساسية التي سار عليها الفاتحون المسلمون كلما أقبلوا على مصرٍ من الأمصار أو بلدٍ من البلاد؛ إسلامٌ أو جزيةٌ أو حرب.. وزيادةً على ذلك فقد رأى المقوقس من هيبة المسلمين وعزَّتهم بدينهم وثقتهم في ما يسعون إليه، ما أذهله وجعله يتيقن بأنَّ هؤلاء القوم -حتماً- سيغلبون الأمم ويسودون الدنيا!.. وقد أصاب في يقينه!!.

وهذه هي القصة..

لما حاصر عمرو بن العاص حصن بابليون، ورأى المقوقس إصراره على فتحه ومواصلة المسير نحو باقي الديار المصرية، أرسل إليه قائلاً: «أَنْتُم قَوْمٌ قَدْ وَلَجتُمْ في بِلَادِنَا وأَلححْتُمْ عَلَى قِتَالِنَا، وطَالَ مَقَامُكُمْ في أَرْضِنَا، وإنَّما أَنْتُمْ عُصْبَةٌ يَسِيرةٌ وقَدْ أظلَّتْكُمْ الرُّومُ، وجَهَّزُوا إلَيْكُمْ، ومَعَهُمْ مِنَ العُدَّةِ والسِّلاحِ [1] وقَدْ أحَاطَ بِكُم هَذَا النيلُ، وإنَّما أَنْتُمْ أسَارَى في أَيْدِينَا، فَابْعَثُوا إلينَا رِجَالاً مِنْكُم نَسْمَعُ مِنْ كَلامِهِمْ، فَلَعَلَّهُ أنْ يَأْتي الأَمْرُ فِيما بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ عَلَى مَا تُحبُّونَ ونُحِبُّ، ويَنْقطعُ عنَّا وعنْكُم هَذَا القِتَالُ قَبْل أنْ تَغْشَاكُم جُمُوعُ الرُّومِ، فَلا ينْفَعُنَا الكَلَامُ ولَا نَقْدِرُ عَلَيْهِ، ولَعَلَّكُم أنْ تَنْدَموا إنْ كَانَ الأَمْرُ مخَالِفاً لِطَلَبتكم ورَجَائِكُم، فابعَثْ إلينَا رِجَالاً مِنْ أصْحَابِكُم نُعَاملُهُم عَلَى مَا نَرْضَى بِهِ نَحْنُ وهُمْ مِنْ شَيءٍ».

فلما أتت عمرو بن العاص رسلُ المقوقس حبسهم منذ يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس، فقال لأصحابه: «أتروْنَ أنَّهمْ يَقْتُلُونَ الرُّسُلَ، ويَحْبِسُونَهم، ويَسْتَحِلُّونَ ذَلِكَ في دِينِهِم»؟!.. وإنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين.

فردَّ عليهم عمرو مع رسله أنه: «لَيْسَ بَيْني وبَيْنَكُم إلا إحْدَى ثَلاثِ خِصَالٍ؛ إمَّا أنْ دَخَلتُمْ في الإسْلامِ فَكُنْتُمْ إخْوَانَنَا، وكَانَ لَكُمْ مَا لنَا، وإنْ أَبَيْتُم فَأعْطَيْتُم الجِزْيَةَ عَنْ يدٍ وأَنْتُمْ صَاغِرُونَ، وإمَّا أنْ جَاهَدْنَاكُم بالصَّبر والقِتَالِ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْننَا وهُوَ خَير الحَاكِمِينَ»... فلما جاءت رسلُ المقوقس إليه قال لهم: «كَيْفَ رَأَيْتُمُوهُمْ؟»، قالوا: «رَأَينَا قَوْماً الموتُ أحَبُّ إلى أَحَدِهِم مِنَ الحيَاةِ، والتَّواضُعَ أحَبُّ إليهِ مِنَ الرِّفْعَةِ، لَيْسَ لأحَدِهِمْ في الدُّنيا رَغْبَةٌ ولا نَهَمَةٌ، إنَّما جُلُوسُهُم عَلَى التراب، وأَكْلُهُم عَلَى رُكَبِهِمْ وأجِيرهُمْ كَوَاحدٍ مِنْهُم، مَا يُعرَفُ رَفِيعُهُمْ مِنْ وَضِيعِهِمْ، ولا السَّيدُ مِنهُمْ مِنَ العَبْدِ،

(1) ولا غرابة في أن يتعجب المقوقس-كما سنرى- من قوة المسلمين حيث لم يكن يعرف السر في ذلك، وهو (القوة الإيمانية أو الروح المعنوية المستمدة من اليقين بالنصر الذي وعد الله به عباده المؤمنين مهما كانت الظروف)، فدفعه ذلك العجب إلى أن يقول: « والذي يُحلف به! لو أنَّ هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد!!».

وإذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ لم يَتَخَلَّفْ عَنْهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ، يَغْسِلُونَ أطْرَافَهُم بالماءِ، ويَتَخَشَّعُونَ في صَلَاتِهِمْ!».. فقال عند ذلك المقوقس: « والَّذي يُحلَفُ بِهِ! لَوْ أنَّ هَؤُلاءِ اسْتَقْبَلُوا الجِبَالَ لَأزالُوهَا، ومَا يَقْوَى عَلَى قِتَالِ هَؤُلاءِ أَحَدٌ! ولَئِنْ لم نَغْتَنِمْ صُلْحَهُم اليَوْمَ وهُمْ محْصُورُونَ بهذَا النيلِ لم يُجِيبُونَا بَعْدَ اليَومِ إذَا أمَكَنَتْهُم الأرْضُ وقَوَوا عَلَى الخرُوجِ مِنْ مَوضِعِهِمْ» [1].

وهكذا انكشف لنا جانب من جوانب عبقرية هذا القائد الملهم عمرو بن العاص، حيث أبقى أولئك الرسل يومين ليروا عظمة المسلمين فيحملوا هذه الرسالة الوصيفة لزعيمهم، وإنما دفعه لهذا التصرف ما يدركه من ذلك الرصيد الضخم الذي يملكه المسلمون آنذاك من الرقي الأخلاقي الذي أذهل أفراد الأمم وقادتها.

إنَّ واقع المسلمين في ذلك العصر يُعتبر داعيةً قوية للمسلمين، وليس في حياتهم ما يُستحى منه ويحرص القادة على إخفائه عن أنظار الأعداء، بل هو صفحةٌ بيضاء من مكارم الأخلاق، وسجل حافل من مظاهر المروءة.. ولذلك عاد أولئك الرسل وقد مُلئوا إعجاباً بجيش المسلمين أفاداً وقادةً، وسجَّلوا هذا الإعجاب بما وصفوه به ذلك الجيش من الشجاعة النادرة، التي أوصلتهم إلى حب الموت أكثر من حب الحياة [2]، والتواضع الجم، والزهد الرفيع في الدنيا والمساواة بينهم، حيث لم يجدوا في حياتهم فرقاً في المظاهر بين أمير ومأمور، وشريفٍ ووضيع، وسدي وعبد.. كما أبدوا إعجابهم بانتظام المسلمين جميعاً في الصلاة حيث لا يتخلف منهم أحد، وهو مظهر مهم من مظاهر الانضباط عند المسلمين، كما أبدوا إعجابهم بما يقومون به بين يدي الصلاة من الوضوء، ثم في مظهر السكينة والخشوع الذي يعلو وجوه المؤمنين ويحكم جوارحهم وهم يؤدون الصلاة [3].

---

(1) فتوح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم (1/96-97).

(2) هذا إذا كان في قلوبهم حبٌّ للحياة أصلاً!

(3) انظر: التاريخ الإسلامي، للحميدي (4/309-310) الخلفاء الراشدون.

المنصورة وأسر ملك فرنسا [1]

انطلقت حملة ملك فرنسا لويس التاسع من باريس لاحتلال مصر سنة (646هـ/1548م) بعد أن تبنَّاها البابا أنوسنت الرابع وباركها وأحاطها بالدعم، وقد حدث قبل الانطلاق أن مرض الملك الفرنسي حتى أشرف على الموت، ولما أفاق من شدة المرض نذر إن منَّ الله عليه بالشفاء أن يحمل الصليب ويذهل لغزو الأراضي المقدسة!!..

وهذه الحملة هي التي عُرفت في التاريخ بـ»الحملة الصليبية السابعة».. ورغم أنَّ الصليبيين استغرقوا ثلاث سنوات كاملة للإعداد لها بيد أنَّها ولدت ميتةً، وانقشعت في مهدها كما ينقشع السحاب، إذ أنها اصطدمت بالمسلمين الذين كان يقودهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، ومعه القادة الكبار من أمثال الظاهر بيبرس البندقداري وفارس الدين أقطاي.. فحطَّم هذا الاصطدام حملة لويس التاسع الصليبية وشتَّت جموعه، بل ونجح المسلمون في أسره شخصياً!.. وبذلك أُعلِن عن فشل تلك الحملة في مهدها دون أن تحقق شيئاً قط!!.

وقد سُمِّيت الموقعة التي قضى فيها المسلمون على جيش لويس التاسع بـ(موقعة المنصورة) نسبةً إلى المنطقة الواقعة بين القاهرة ودمياط..

وكان الملك الصالح أيوب قد علم من الإمبراطور البيزنطي- سراً- نبأ قدوم الصليبيين وعينهم على احتلال مصر، فولَّى رحمه الله راجعاً من بلاد الشام -بعد أن عقد مع حاكم حمص الصلح- وراح يُعدُّ العدَّة لصدِّ عبدة الصليب، ولكن سرعان ما تفاجأ الجميع باحتلال الصليبيين لمدينة دمياط (حيث كان بها أهم ميناء في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط) بعد أن هرب منها أهلها وحاميتها، فعاقب

(1) انظر: الأيوبيون بعد صلاح الدين الأيوبي، للدكتور علي الصلابي.

الملك الصالح المسؤولين عن هذا الخطأ الفادح الذي كلَّفهم ضياع مدينةٍ بحجم دمياط، ولكنه استمر في إعداده لملاقاة الأعداء إعداداً عظيماً، وتوقع أن يزحفوا إلى القاهرة مباشرةً بعد احتلال دمياط، لذلك أمر بالتوجه ناحية المنصورة الواقعة في الطريق بين القاهرة ودمياط أين سينتظر قدوم الصليبيين، فكان توقعه صائباً ووصل الصليبيون إلى المنصورة بالفعل..

وكان لويس التاسع -قبل سيطرة قواته على دمياط- قد بعث إلى الملك الصالح رسائل تحمل بين ثناياها تهديداً وعيداً من الملك الفرنسي [1]، وما ذلك إلا دليلٌ على غرور الملك الصليبي وغطرسته وعصبيته المفرطة..

فماذا كان رد الملك الصالح أيوب يا ترى؟!..

لقد بعث رحمه الله إلى الملك الصليبي كتاباً يقطر نخوةً وعزَّةً بخط القاضي بهاء الدين زهير بن محمد كاتب الإنشاء، وجاء فيه:

«أما بعد.. فإنَّه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك، وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قُتِل منا قرنٌ إلا جدَّدناه، ولا بغى علينا باغٍ إلَّا دمَّرناه، فلو رأت عينك أيها المغرور حدَّ سيوفنا وعِظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك ان تعُضَّ على أناملك بالندم، ولابد أن تزلَّ بك القدم في يومٍ أوَّلُه لنا وآخره عليك، فهنالك نُسيء بك الظنون: ﴿...وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء:227]، فإذا قرأت كتابي هذا فكُن فيه على أول سورة النحل ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ...﴾ [النحل:1]، وكن على آخر سورة ص ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴿٨٨﴾﴾[ص:88]، ونعود إلى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿... كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ

(1) انظر: السلوك في معرفة دول الملوك، للمقريزي (438/1).

بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴿٢٤٩﴾ [البقرة:249]، وإلى قول الحكماء: إنَّ الباغي له مصرع، وإلى البلاء يقلبك.. والسلام»!!.

رحمة الله عليك أيها الملك الصالح والزعيم الفالح!.

ياله من ردٍّ عظيمٍ لا يقدم عليه إلَّا أصحاب النفوس القوية والعزيزة بالإسلام وأهله!..

ولكن..

ما أن أشرقت شمس النصف من شهر شعبان (647هـ) حتى حدث أمرٌ خطير كاد أن يُغير من مجرى الأحداث لصالح العدو الصليبي، وهو وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب عن عمرٍ يُناهز الـ(44) عاماً بسبب المرض!.. وهنا ظهرت المرأة القوية والشهيرة شجرة الدر على مسرح الأحداث الساخنة وكتمت خبر وفاة الملك الصالح لئلا تنهار معنويات المجاهدين فتنقلب الموازين إلى ضدهم، وفي انتظار مجيء ابنه تورانشاه ليتسلم الزعامة والقيادة العامة للجيش الإسلامي.. وإلى ذلك الحين راحت شجرة الدر رفقة قادة الحرب المسلمين -وفي مقدمتهم بيبرس وفارس الدين أقطاي- في اتخاذ الإجراءات المناسبة ووضع الخطط الحربية قبل الموقعة المرتقبة، وقد جرت مناوشات ومواجهات بين الطرفين الإسلامي والصليبي في طريق قدوم الصليبيين إلى القاهرة، علماً بأنَّ الملك الفرنسي لويس التاسع كان متأخراً عن طليعة جيشه التي كان يقودها قائدٌ صليبي اسمه (روبرت أرنو)، فاغتر هذا الأخير بقوته بعد أن حقَّق نصراً صغيراً على المسلمين وتقدم بطليعة الجيش ظنّاً منه أنَّ له طاقةً بالجيش الإسلامي المرابط بالمنصورة.

وبالفعل؛ فقد تمكَّن المسلمون هنالك من القضاء على أرنو وطليعة جيش لويس التاسع ولم يفلت من القتل إلاَّ من ألقى بنفسه في النيل فمات غريقاً، أو كان يُقاتل في أطراف المدينة، حتى قال المؤرخون أنَّ المنصورة كانت مقبرة الصليبيين!!.. وكان ذلك أول ابتداء النصر عليهم..

فلما أتى خبر الهزيمة لويس التاسع صُدِمَ منه وجزع، وتيقَّن أنَّ أنَّ موقفه صعبٌ للغاية، ومع ذلك فقد تمالك نفسه وبقي ما يقرب ثمانية أسابيع يطمع في حدوث انقلاب أو تشققات داخل المعسكر الإسلامي!..

ولكن هيهات هيهات أن يحدث ذلك!..

ثم ولَّى الملك الفرنسي القهقرى حتى إذا ما وصل إلى موقع فارسكور شنَّ المسلمون على جيشه هجوماً عاماً بعد وصول تورانشاه الذي وضع خطة الهجوم المحكمة، فلم يقوَ لويس التاسع على القتال، وتم تطويق جيشه تطويقاً كاملاً، قبل أن تحصل له الهزيمة المنكرة بعد أن سقط كل أفراد جيشه العرمرم بين قتيل وجريح وأسير، بل إنَّ الملك الفرنسي كان م بين الأسرى!!..

لقد كان يوماً من أيام الله الخالدة حقاً!

فإذا كان جيل صلاح الدين الأيوبي قد دحر الصليبيين في حملتهم الثالثة وحرَّر منهم كثيراً من بلاد المسلمين وعلى رأسها بيت المقدس، فإنَّ جيل الملك الصالح نجم الدين أيوب قد حطَّم الحملة الصليبية السابعة من بدايتها، واقتلع جذورها قبل أن تنموا، بل وأوقعوا رأسها المدبر وهو الملك الفرنسي لويس التاسع في الأسر.. وقليلاً ما يقع الملوك في الأسر!.

هذا؛ وإنَّ من رحمة الله تعالى ومنِّه العظيم على أهل مصر بعد نصر المنصورة المؤزَّر أن كتب لهم نصراً ثانياً في موقعة تفوق موقعة المنصور شراسةً وضراوةً وشهرةً، وذلك بعدها بحوالي إحدى عشرة سنةٍ فقط، ولكن هذه المرة لم يكن العدو صليبياً، بل كان وحشاً كاسراً لا يرحم!!..

الطريق إلى عين جالوت [1]

«غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر
تركيٌّ يجود بنفسه بالشام أهلكهم وبدَّد شملهم
ولكل شيءٍ آفةٌ من جنسه»

(أبو شامة)

نحن الآن في عام سبعٍ وخمسين وستمائة للهجرة (657 هـ).. والمسرح أرض مصر!.

في تلك البقعة التاريخية من بقاع الأرض يرتج الناس فزعاً ورعباً على وقع أخبار وحوش التتار (المغول) المتلاحقة التي تأتيهم من جهة الشرق:

قتلٌ وإبادةٌ وتعذيبٌ وتنكيلٌ بالمسلمين من أقاصي المشرق حتى أطراف الشام!..

تخريبٌ للقرى والمدن والعمران والأراضي والمزروعات!..

أنهارٌ من الدماء تجري دون توقف!..

ثم يأتي الخبر المرعب الذي نزل كالصاعقة على قلوب المسلمين في شتى بقاع الأرض... ألا وهو اجتياح حاضرة الخلافة العباسية... بغداد!!.. ويكفي للدلالة على حجم همجية التتار -بقيادة هولاكو- ووحشيتهم التي قلَّ نظيرها في التاريخ أنَّهم قتلوا ببغداد -على الأقل- مليون مسلمٍ ما بين رجل وامرأة وطفل!.. ويقال: مليون وثمانمائة ألف!!.. ويقال: ألف ألف، أي مليونين!!

(1) انظر: قصة التتار؛ لراغب السرجاني، وعين جالوت؛ لشوقي أبو خليل.

وإن عجبت من هذا العدد المهول، فستعجب أكثر عندما تعلم بأنَّ تلك المجزرة الرهيبة قام بها التتار في غضون أربعين يوماً لا أكثر ولا أقل [1] !.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!..

وإننا لا نذكر هذه الأخبار إلا لنعلم أنَّ المصائب التي يلقاها المسلمون الآن مهما اشتدت فهي أهون من المصائب التي عانى منها أسلافنا أيام التتار وغيرها.. وكذلك لنعلمَ أنَّ نصر الله قريب وسنقوم وننتصر على تلك المصائب تماماً كما حدث مع المسلمين بعد كارثة بغداد.. وإنَّ ذلك اليوم آتٍ لا ريب فيه!

وبعد بغداد سعى التتار للانتقال صوب المحطة التالية... مصر!

وكانت آخر التطورات التي شهدتها مصر بعد اجتياح التتار لبغداد واستباحتها هي تولي البطل المظفر سيف الدين قطز لمقاليد الحكم في إجراء استثنائي طارئ بعدما اتفق كبار القادة والعلماء وأصحاب الرأي والمشورة على ضرورة تولي قطز الحكم عقب إزالة الولد الذي كان ملكاً وهو (نور الدين علي بن المعز أيبك)، وكان في الخامسة عشرة من عمره فقط، وذلك نظراً للأطماع التي كانت تحيط بكرسي العرش من أطراف عدة، فلم يكن لبقاء السلطان الصبي نور الدين علي على كرسي أهم دولة في المنطقة أي معنى وهي الدولة التي لم يعد هناك أمل في صد جحافل التتار إلا من خلالها.

وفي ظل حكم الملك المظفر قطز، واقتراب الخطر التتري الذي لم يترك في طريقه أخضراً ولا يابساً.. ظهرت شخصية شيخٍ جليلٍ في قلبه إيمانٌ لو صُبَّ في الحجر الصلد لانبجست منه الحياة، ولو وُجِّه إلى الجبل الراسي لأزاحه عن آخره.. شيخٌ كان يعلم أنَّ هذا الشعب المصري الذي هزَّه محمد ﷺ حتى أفاق وفتح الأرض، لا تزال في نفسه آثار البطولة التي فتح بها الأرض، إنَّ في عروقه ذكرى المعارك المظفرة

(1) انظر: البداية والنهاية (202/13).

التي خاضها، والدماء الزكية التي أراقها، والنصر الأبلج الذي انتزعه من كل عدو، كان يعلم أنَّ هذا الشعب ما دُعي مرةً إلى التضحية والجهاد إلا لبَّى، لأنَّ في نفسه الإيمان الذي يحوِّل الهزيمة ظفراً، والضعف قوةً، والفقر غنىً، ويصنع من الحجر قنبلة، ومن العصا سيفاً ماضياً..

أتدرون من ذاك الشيخ؟!!..

إنه سلطان العلماء، شيخ الإسلام.. العز بن عبد السلام!.

وكان هذا البطل الشامخ يوم تولى قطز الحكم قد ناهز الثمانين من عمره، وهو- كما نعلم- من أشهر وأعظم العلماء الذين لا يخافون في الله لومة لائم، وكان كثيراً ما يواجه السلاطين بأخطائهم، وينصحهم في الله دون خوف ولا وجل، ولذلك لقَّبه تلميذه الأول وعالم الإسلام المشهور (ابن دقيق العيد) رحمه الله بسلطان العلماء! فقد جمع العز بن عبد السلام بين العلم والعمل، وبين الاتباع الشديد للسنَّة والاجتهاد الصحيح عند الحاجة، وبين الفتوى في الأمور العبادية والعقائدية والفتوى في الأمور السياسية والاجتماعية.. فكان بحق سلطاناً للعلماء، وقدوة للعلماء، وأسوة للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وفور أن أصبح قطز هو الحاكم الفعلي بدأ رحمه الله في رسم الخطوط العريضة واتخاذ الإجراءات والخطوات اللازمة والتحضير الجاد لصد الخطر التتري الذي يقترب يوماً بعد يوم من الحدود المصرية!..

فقام بادئ ذي بدء بتصريحٍ قولي رائعٍ أبان عبره عن زهده في الإمارة فقال لمن حوله من القادة والأمراء مبرراً جلوسه على كرسي الحكم: «إني مَا قَصَدْتُ إلا أَنْ نَجْتَمِعَ عَلَى قِتَالِ التَّتَارِ، ولا يَأْتِي ذَلِكَ بِغَيرِ مُلْكٍ، فَإذا خَرَجْنَا وكَسَرْنَا هَذَا العَدُوَّ، فَالأَمْرُ لَكُم، أقِيمُوا في السَّلْطَنَةِ مَنْ شِئْتُمْ»!!..

الله أكبر!..

هكذا -و ربي- يكون الرجال، وهؤلاء هم العظماء حقاً، فقطز ليست له أطماع البتة من وراء حكمه ورئاسته، وهذا ما يجب على المسلم أن يعتقده في هذا البطل، فليس من الطبيعي أن يُخلِّد تاريخ المسلمين رجلاً اختلطت في قلبه النوايا، ولعبت به الأهواء، ولكن اللهم إلا طمعه في ردع التتار وهزمهم، وهذا ما وفَّقه الله له كما سنرى!!..

ثم قام رحمه الله بعدة إجراءات مهمة كالتخلص من كل من يمكن أن يُشكِّل تهديداً له ولمشروعه الرئيسي لصد جيوش التتار عن مصر، خاصة منهم الذين كانوا - و لا زالوا- يطمعون في كرسي الحكم حيث أنه لا يهدأ لهم بال حتى يجلس كل واحدٍ منهم عليه، ثم قام رحمه الله باختيار أركان دولته ويوطد دعائم حكمه بجعله للرجال المناسبين ذوي الكفاءة في الأماكن المناسبة، ولا ننسى صدور مرسوم عفوٍ شاملٍ حقيقي من قطز عن فئة المماليك البحرية (و ذلك بسبب حدوث فتنة بينهم وبين المماليك المعزية سنة اثنين وخمسين وستمائة للهجرة)، وكان من بين الذين استفادوا من عفو قطز البطل المملوكي الظاهر ركن الدين بيبرس، وهو الذي كان يعلم قطز أنه عنصر مهم للغاية نظراً لخبرته العسكرية وحنكته الكبيرة، فلم يكن قطز بالذي يضيع الكفاءات ويهمشهم بغض النظر عن تاريخهم، وهذا إجراء سيأتي بثماره ضد التتار.

وفي خضم إجراءات سيف الدين قطز وإعداداته لبسط الاستقرار الداخلي، تأتي إليه رسالة مفزعة تقطر سماً وفحشاً من قِبَلِ هولاكو رأس حربة الجيش التتري، وحملها إليه أربعة من وحوش التتار[1]، رسالة فيها من التهديد والوعيد والتغطرس وجنون العظمة وإعلان الحرب صراحةً -دون أدنى دبلوماسية- ما أشعل الغضب في

(1) انظر نص هذه الرسالة الكامل في كتاب: السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت، للصلابي، ص 114-115، وقصة التتار، للسرجاني، ص 269-270.

صدر البطل المظفر قطز وجعلته يقتل الرسل الأربعة ويُعلِّق رؤوسهم على باب زويلة بالقاهرة!! حتى يراها عامة الشعب المصري، وهو يرمي إلى طمأنتهم بأنَّ قائدهم لا يخاف التتار، وهذا سيرفع معنوياتهم كثيراً، كما أنَّ هذا الرد العنيف سيكون إعلاناً للتتار بأنهم قادمون على قوم يختلفون كثيراً عن الأقوام الذي قابلوهم من قبل، وهذا سيؤثر حتماً بالسلب على معنويات التتار، فيلقي في قلوبهم -و لو شيئاً- الرعب أو التردد، ويبقى الهدف الأكبر لقتل الرسل الأربعة هو قطع التفكير في أي حلٍّ سلمي للقضية، والاستعداد الكامل للجهاد دون غيره، فهكذا أعداء لا ينبغي مواجهتهم لا بمعاهدات السلام ولا باتفاقيات الهدنة، بل ينبغي مواجهتهم بالسيف فقط!!!

وفعلاً.... بدأت استعدادات أهل مصر الجادة لخوض موقعة منتظرة وحاسمة أمام التتار، ولكن قطز اصطدم بالأزمة الاقتصادية الطاحنة التي كانت تعاني منها مصر يومها، فعقد مجلساً استشارياً جمع فيه القادة والأمراء والعلماء، وفي مقدمتهم الشيخ العلامة الفذ العز بن عبد السلام، فكان اقتراح قطز أن تُفرض الضرائب لدعم الجيش، بيد أنَّ العز بن عبد السلام وقف في وجهه وأصدر فتواه الجريئة الآتية: «إذَا طَرَقَ العَدُوُّ البلادَ وَجَبَ عَلَى العَالمِ كُلِّهِ قِتَالُهمْ (أي العالم الإسلامي)، وجَازَ أنْ يُؤخَذَ مِنَ الرَّعِيَّة مَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى جِهَازِهِمْ (أي فوق الزكاة)، بِشَرْطِ ألَّا يَبْقَى في بَيْتِ المالِ شَيْءٌ مِنَ السِّلاحِ والسُّرُوجِ والذَّهَبِ والفِضَّةِ والسُّيوفِ المحلَّاةِ بالذَّهَبِ، وأنْ تَبِيعُوا مَا لَكُمِ مِنَ المُتَلَكَاتٍ والآلاتِ (أي يبيع الحكام والأمراء والوزراء ما يمتلكون)، ويَقْتَصِر كُلٌّ مِنْكُمْ عَلَى فَرَسِهِ وسِلَاحِهِ وتَسَاوَوا في ذَلِكَ أنْتُمْ والعَامَّة، وأمَّا أَخْذُ أمْوَالِ العَامَّة مَعَ بَقَاءَ مَا في أيْدِي قَادَةِ الجنْدِ مِنْ الأمْوَالِ والآلاتْ.. فَلَا!!».

فرحمة الله عليك يا سلطان العلماء!.. فقد كانت هذه الفتوى سبباً رئيساً في تحقيق النصر وهزيمة التتار في موقعة عين جالوت الخالدة، ونصر الله لا يكون إلَّا بتطبيق شرع الله، والجيش المسلم كلما ابتعد عن شرع الله زاد ابتعاده عن النصر، وهذا ما ينبغي أن نفقهه جميعنا اليوم، حكومات وشعوب!

فأخذ قطز بفتوى العلامة ابن عبد السلام مأخذ الجد، وراح الناس-عامةً وخاصة- يتسابقون على بذل أموالهم وممتلكاتهم في سبيل الله بعد أن تحركت قلوبهم حماسةً وشوقاً للجهاد.. وإنها للحظات رائعة فعلا!!

كل هذه الإجراءات والإعدادات التي قام بها قطز كانت في ثلاثة شهور فقط! وهي أعمال-و الله- تُقاس بالسنين في دولنا اليوم!!.. ثم بعد ذلك لم يعد أمام قطز إلا اختيار الزمان والمكان المناسبين لمواجهة التتار، فارتأى بكل شجاعة وحزم أن يقاتلهم خارج حدود مصر على غير عادة قادة المسلمين آنذاك حيث كان كل قائد أو أمير ينتظر قدوم التتار وهجومهم ليقوم هو بالدفاع عن مدينته!! أما قطز فاختار عكس ذلك..

وكان المكان الذي اختاره قطز سهل عين جالوت بفلسطين، وهو الذي يقع على مسافة (65 كيلومتراً) جنوب منطقة حطين التي دارت فيها موقعة حطين الخالدة سنة (583هـ) أيام صلاح الدين الأيوبي، ويقع كذلك على مسافة حوالي (60 كيلومتراً) إلى الغرب من منطقة اليرموك حيث دارت هناك المعركة الخالدة بقيادة خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح ضد الروم قبل أكثر من ستة قرون.

أما الزمان فكان يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة (658هـ) في العشر الأواخر من هذا الشهر الكريم، شهر الانتصارات والأمجاد، وهو اليوم السابق مباشرة للموقعة الرهيبة.... موقعة عين جالوت.

وما بقيت إلا ساعات معدودات قبل الصدام المروع بين قوة أمة الإسلام وقوة التتار!!

جاء جيش التتار -تحت قيادة كتبغا- وقد امتلأ بالصلف والغرور والكبر، تسبقه سمعته العالية في سفك الدماء وتخريب الديار وإفناء البشر، وقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً.. وبينما قطز في سهل عين جالوت إذا بأعداد غفيرة من المتطوعين المسلمين من أهل فلسطين يخرجون من القرى والمدن ليلتحقوا بالجيش

المسلم، وقد تيقنوا أنَّ حرباً حقيقية ستحدث قريباً؛ ذاك لأنهم لم يتعودوا على مشاهدة مقدمات مواجهة بين المسلمين والتتار كتلك إلا نادراً جداً!!..

وبزغت شمس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان..

وبزغت معها آمال الجيش المسلم في تحقيق النصر ودحر التتار والانتقام للملايين من إخوانهم في الدين شرقاً بعدما ذاقوا من التتار ما لم يذقه أحد قبلهم ولا بعدهم..

فالتحم الجيشان وصيحات التكبير تزلزل الأرض، وأبطال المسلمين يدونون على مسرح المواجهة أروع صور الجهاد والتضحية والبذل، فإما شهادة وإما نصر، إماً فرحٌ بلقاء الله وإما فرحٌ بنصر الله، فقاتلوا قتالاً عظيماً، وعندما مالت رحى المعركة إلى جانب التتار بلغ الإيمان أوج درجاته في قلوب المسلمين، ونزل قطز بنفسه إلى ساحة القتال بعدما كان يقف في مكانٍ عالٍ يُسير جموع المسلمين ويُخطِّط لكل كبيرة وصغيرة ويراقب قتالهم المستميت، فنزل حتى يزيد من معنويات الجنود لما يروا قائدهم يجاهد بجانبهم، ثم ألقى خوذته ومرق وجهه بالتراب ونادى صارخاً نداءه الشهير راجياً نصر الله:

واإسلاماه!!!

ثم حمل بنفسه وبمن معه حملةً صادقةً فأيده الله بنصره، ولم تنقضي سوى ساعات حتى بدا تفوق المسلمين في الميدان.. فانجلت الموقعة عن ظفر المسلمين المؤمنين الصادقين، واندحار التتار المجرمين، وأقدم أحد الأبطال المسلمين وهو (جمال الدين آقوش الشمسي) على قطع رأس الطاغية كتبغا قائد التتار الذي أذاق المسلمين الويلات والويلات منذ أيام جنكيز خان.. وهكذا هزم الله تعالى التتار لأول مرة على يد أولئك الأبطال من الجيش المصري ومن انضم إليه من جند الشام بقيادة الملك المظفر قطز، وحاز هذا الأمير الشجاع الشهم على شرف القيام بمواجهة التتار وهزيمتهم.

ولقد كانت هزيمة التتار في عُرْفِ المسلمين -آنذاك- أمراً بعيد الاحتمال، إن لم يكن ذلك مستحيلاً أصلاً! ومن أجل ذلك مالأهم بعض أمراء المسلمين وخضعوا لهم، واستعز النصارى وتطاولوا على المسلمين وأهانوهم ظناً منهم أنَّ الدولة ستستمر للتتار، ولكن الله تعالى بفضله وإحسانه أخلف ظنون التتار والنصارى والمتخاذلين من المسلمين فنصر عباده المؤمنين وأعزَّ بهم دينه.

وبهزيمتهم تلك الهزيمة النكراء أمام جيش قطز لم يكن أمام من بقي من التتار إلا الفرار، ولكنهم مُزِّقوا شر ممزق على أرض بيسان، فليس الغرض هو الانتصار في موقعة ما، وتحقيق كسب سياسي مؤقت يتفاوضون بعده، إنما الغرض هو تحرير البلاد بالكامل عن طريق الجهاد.. وبذلك تنتهي أسطورة جيش التتار وأنهم قومٌ لا يُهزمون..و أفل نجمهم إلى يوم يبعثون!!

وفي الأخير فإنَّ الذي يمكننا الخروج به من قصة التتار مع المسلمين، أو المسلمين مع التتار، أن أحوال المسلمين في أيام غزو التتار لم تكن مسبوقة ولا ملحوقة من حيث السوء والضعف، ولكنهم استعانوا بالله فنصرهم، واليوم الأمة الإسلامية تواجه شدائد واختبارات ومحن ومصائب عظيمة، ولكنها لا ترقى لما كانت عليه أيام التتار؛ لذا فهي تستطيع-بإذن الله- أن تخرج منها لو أحسنت التوكل على الله وعملت بشرعه وأخذت بأسباب النصر: من وحدةٍ في الصفوف، واستعداد إيماني وعسكري قدر المستطاع.

فرحمة الله على سيف الدين قطز وعلى أبطال المماليك!

نصر الزلاقة

«انتهت الزلاقة بنصرٍ رائعٍ ردَّ سيل النصرانية الجارف عن الأندلس المسلمة، بعد أن كان ينذرها بالمحو والفناء العاجل، فغنم الإسلام حياةً جديدةً في إسبانية، امتدت أربعة قرونٍ أخرى، وهيأت الأندلس لتكون ولايةً مغربيةً تابعةً للمرابطين، ثم للموحدين، لمدة قاربت مائة وخمسين عاماً، بقيت الأندلس خلالها تُتابع نشاطها المُنتِج، وتثدُّمَها الحضاري الباهر»

(الدكتور المؤرخ شوقي أبو خليل)

كان سقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة نذيراً مزعجاً لملوك الطوائف، أيقظهم من ذلك السبات المؤلم الذي انحدروا إليه [1]، وبصَّرهم بمخاطر ذلك الشقاق الذي طال عهده بينهم، وبدت لهم عندئذٍ تلك الحقيقة المروِّعة التي كانوا يغمضون أعينهم على إدراكها؛ وهي أنَّ ملك قشتالة القوي يعتزم القضاء عليهم جميعاً، ويعتزم محو كلمة الإسلام من الأندلس قاطبة.

(1) ويا ليت ملوك الطوائف في هذا العصر يستفيقون كما استفاق ملوك الطوائف قبلهم في الأندلس!!

والواقع أنَّ ألفونسو السادس ما كاد يستولي على الحاضرة الإسلامية الكبرى حتى لاح له أنَّ نهاية الطوائف كلها قد دنت،وأنه سوف يتبع نصراً بعد نصر، ويلتهم حاضرةً بعد أخرى، ومن ثم فقد وضع خطته لتنفيذ الخطوة التالية، فوجَّه إلى (المعتمد بن عباد) صاحب إشبيلية رسالةً ملؤها الوعيد والنذير؛ يُطالبه بتسليم أعماله، ويُحذِّرُه من مثل طليطلة ومحنتها.. ووجَّه إلى (المتوكل بن الأفطس) صاحب بطليوس رسالةً مماثلةً؛ يطلب إليه تسليم بعض قلاعه وحصونه، ويتوعَّدُهُ بشرِّ العواقب إذا رفض.. وقد ردَّ كلٌّ من الأميرين على ملك قشتالة برسالةٍ يرد فيها وعيده،ويعرب فيها عن أهبته لدفع عدوانه.

على أنَّ أعظم نتيجةٍ لسقوط طليطلة تتمثل في اجتماع كلمة ملوك الطوائف على مقاومة ملك قشتالة، والاستنصار بإخوانهم المسلمين فيما وراء البحر.. أعني المرابطين [1].

فرغم كلِّ الفرقة والتناحر الذي كان بين ملوك الطوائف، ورغم خضوعهم شبه الكامل وخنوعهم للطاغية الصليبي ألفونسو السادس لدرجة دفع الجزية له بعدما كان أجداده هم من يدفعونها للمسلمين!.. رغم كلِّ تلك الذلَّة والمهانة والفرقة والتناحر، إلا أنَّ بصيصًا من عوالق الفطرة السوية والغيرة على الدين كان موجوداً في نفوس بعضهم، وعلى وجه الخصوص منهم المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية الذي قام أوَّلاً: بقتل رسول ألفونسو اليهودي إليه وقطع رأسه!، وثانياً: بإرسال رسالةٍ لم تتجاوز السطر الواحد إلى ألفونسو السادس ردًّا على رسالةٍ بعثها الطاغية إليه وأمره فيها -على وجه الاستهزاء والتكبر- بأن يبعث له مروحةً يروِّح بها على نفسه ويطرد الذباب عن وجهه! ولكن رسالة ابن عباد -رغم قصرها- كانت كفيلةً بأن ترتعد لها فرائص الطاغية ألفونسو ويتملَّكُهُ الرعب منها، فقد كتب إليه قوله:

(1) مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص 280.

«قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروّح منك لا تروّح عليك!!» [1]

ثم أجاب المعتمد بن عباد مَن لامه على عزمه استدعاء المرابطين بكلمته السائرة مثلاً: «رَعْيُ الجِمَالِ خَير مِنْ رَعْيِ الخَنَازِير!». ومعناه أنَّه كونه مأكولاً للمرابطين أسيراً يرعى جمالهم في الصحراء خير من كونه ممزَّقاً لألفونسو أسيراً له يرعى خنازيره في قشتالة!!.. وفي المقابل فقد وافق على رأي العباد المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس، وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة.

وفعلاً..

أرسل ملوك الطوائف الثلاثة السالف ذكرهم إلى أمير المرابطين البطل المشهور يوسف بن تاشفين يطلبون النجدة والغوث العاجلين، فما كان من يوسف إلَّا نجدة إخوانه المسلمين في الأندلس، وما هدفه من وراء ذلك إلَّا الغيرة على الإسلام وأهله..

فتحرَّك ابن تاشفين ومعه ثلاثون ألف مجاهدٍ من مراكش عاصمة الدولة المرابطية (و يوسف هو مؤسِّس مدينة مراكش بالمناسبة) نحو بلاد الأندلس، ليصلوا إلى مكان يُقال له (الزَّلَّاقة)، وهو ذلك المكان الذي دارت فيه موقعةٌ هي من أشهر المواقع الإسلامية في التاريخ.. فاستُقبِل استقبال الأبطال الفاتحين، وعانقه المعتمد عناق الأخوة في الله، وتضرعا إلى الله أن يجعل جهادهما خالصاً لوجهه.. في حين أنَّ ألفونسو السادس كان قد جهَّز ما يزيد عن ثلاثمائة ألف مقاتلٍ بعد أن جاءه العون من ممالك فرنسا وإيطاليا وغيرها، وقَدِمَ يحمل الصلبان وصور المسيح، ثم جعل يقول وقد ملأه الغرور والتكبر: بهؤلاء أُقاتل الجن والإنس وملائكة السماء!..

وفي ليلة يوم الجمعة (12 رجب 479هـ) وقبل ساعاتٍ معدوداتٍ من اللقاء المرتقب، كان ينام مع جيش المسلمين شيخٌ كبير من شيوخ المالكية في قُرطبة، وهو

(1) نفح الطيب (358/4). اللمطية: نسبةً إلى قبيلة لمطة بأرض المغرب الأقصى.

الفقيه الناسك أبو العباس أحمد ابن رُميلة القُرطبي، فرأى هذا الشيخ رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول له: «يَا ابْنَ رُمَيْلَةَ! إنَّكُمْ مَنْصُورُونَ، وإنَّكَ مُلَاقِينَا!!»..

فيقوم الشيخ فرحاً مسروراً، لا يستطيع أن يملك نفسه، فقد بشَّره رسول الله، وسيموت في سبيل الله، فالحُسْنيَيْنِ أمام عينيه، نصرٌ للمؤمنين وشهادةٌ تناله، فيا لها من فرحة! ويا له من أجر!..

وعلى الفور يذهب ابن رُميلة رحمه الله في جنح الليل فيُوقظ قادة المسلمين حتى أيقظ المعتمد بن عباد، وقصَّ عليهم رؤيا رسول الله ﷺ، ولا شك أنَّ هذه الرؤيا قد هزَّت ابن عباد فأرسل بخبرها إلى يوسف بن تاشفين وكلِّ قوَّاد الجيش، وقاموا من شدَّة فرحهم وفي منتصف الليل وأيقظوا الجيش كلَّه على صوت: رأى ابن رُميلة رسول الله ﷺ يقول له: «إنَّكُمْ مَنْصُورُونَ، وإنَّكَ مُلَاقِينَا!» [1].

هذا، ولا ننسى محاولة ألفونسو الفاشلة للغدر بالمسلمين وخداعهم في تحديد يوم الموقعة؛ فقد اتفق معهم على يوم الاثنين بحجة وقوع أعياد المسلمين واليهود والنصارى، بأيام الجمعة السبت والأحد على التوالي، ولكن يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد كانا يعلمان أنَّ أولئك القوم لا يوفون بعهودهم ومواثيقهم، ولا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، فأعدُّوا جيّداً لما يمكن أن يقع من غدر ألفونسو الصليبي، وقد أصاب توقُّعهم فعلا! فقد نقض ألفونسو العهد والميثاق وبدأ في الهجوم على المعسكر الإسلامي، ولو لا يقظة المسلمين واستعدادهم المُسبق لكانوا في موقفٍ حرجٍ جِدًّا يصعُبُ الخروج منه..

فبدأ الالتحام بين الطرفين، وكانت موقعةً حامية الوطيس، وواجه المسلمون صعوباتٍ واضطراباتٍ سرعان ما تداركوها حتى مالت كِفَّة المواجهة لجانبهم، وحاصروا الصليبيين الذين ارتاعت قلوبهم وتجلجلت أفئدتهم، وطعنَ أحدُ أبطال

(1) انظر: قصة الأندلس (2/496-497).

المسلمين ألفونسو في فخذه طعنةً بقي أثرها لبقية عمرها ولكنها لم تقتله، فكان يعرج منها.. ثم لجأ إلى تلٍّ يحتمي به كان قريباً من معسكره ومعه نحو الخمسمائة فارس، ولما جاء الليل تسلَّل وهو لا يلوي على شيءٍ، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحداً بعد واحد من أثر جراحهم، فلم يدخل طليطلة إلَّا في دون المائة، وبعض الروايات تقول أنَّ الذين نجوا أقل من ثلاثين. وغنم المسلمون كل ما لهم من مالٍ وسلاحٍ ودواب وغير ذلك. واستشهد من المسلمين فيها حوالي ثلاثة آلاف رجل.

وبذلك كانت الزَّلاقة -دون أدنى مبالغةٍ- من طينة معركتي اليرموك والقادسية![1].

(1) انظر: المصدر السالف (2/500-505).

نصر الأرك [1]

«تُذكِّرُنا موقعة الأرك عام (591هـ) بأختها الزلاقة عام (479هـ)؛ فالإثنتان من أيام الإسلام المشهودة، وكلتاهما مما اعتز به الإسلام وعلت كلمته»

(الدكتور المؤرخ شوقي أبو خليل)

في عام (585هـ) عبر المجاهد البطل أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي إلى الأندلس بجيشٍ عظيم للرد على عدوان ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز بعد أن قصد مدينة (شلب) وملكها وسبى أهلها، فلم يلبث يعقوب المنصور بعد وصوله طويلاً حتى أخرج الصليبيين من مدينة شلب، واستولى فوق ذلك على حصن من أعظم حصونهم يُقال له: طرش.. [2].

ثم عاد يعقوب المنصور إلى عاصمته مراكش في المغرب العربي بعد هذا النصر المؤزر على البرتغال، والهدنة التي عقدها مع ملك قشتالة ألفونسو الثامن بما لا يتعارض مع عزَّة الإسلام والمسلمين، ولكن بقيت طائفة أخرى لم تصالح المنصور، وهي التي ستكون السبب في حرب الأرك..

فبعد أقل من خمس سنوات جمعت تلك الطائفة التي لم تصالح المنصور جمعاً من الفرنج وخرجوا إلى بلاد الإسلام، فقتلوا وسبوا، وغنموا وأسروا، وعاثوا فيها عيثاً شديداً، ثم ما لبث أن اجتمع معهم ألفونسو الثامن بعد انقضاء مدة الهدنة

(1) انظر: قصة الأندلس (2/586-597).

(2) انظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشي، ص 356.

التي كانت بينه وبين المنصور، فبعض إلى جميع الثغور الإسلامية يُنذر بانتهاء الهدنة (وكان المنصور منشغلاً بمعاركه في المغرب ضد الخارجين عليه من بني غانية وغيرها)، ثم بعث بقادته إلى مختلف أنحاء الأندلس يُغيرون عليها ويُثخنون فيها، وقد مال المنصور إلى الانتهاء من أمر المتمردين أولاً، لولا أن توالت كتب أهل الأندلس عليه تُشير باشتداد وطأة العدة إلى ما لا يطاق، فعدل عن عزمه وبدأ في التفكير صوب العبور إلى الأندلس.

وبالفعل، فقد سار يعقوب المنصور بجيشه المجاهد عابراً به إلى الأندلس، وكان قوامه مائتي ألف (200،000) مجاهد جرَّاء الحمية التي كانت في قلوب أهل المغرب العربي وأهل الأندلس على السواء؛ خاصة بعد انتصارات المسلمين في حطين (583هـ/1187م) في الشرق..

وقد التقت جيوش المسلمين بجيوش النصارى في التاسع من شهر شعبان سنة (591هـ/1195م) عند حصن الأرك، وقد بلغ تعداد النصارى مائتين وعشرين ألفاً (220،000) بعد أن استعان ألفونسو الثامن بمملكتي ليون ونافار، وقد أحضروا معهم بعض جماعات من اليهود لشراء أسرى المسلمين بعد انتهاء المعركة لصالحهم؛ ليتم بيعهم بعد ذلك في أوربا.

والأرك: حصنٌ على بُعدِ عشرين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي آنة، ومحلُّها اليوم (Sta Maria de Alarcos) غرب المدينة الإسبانية الحديثة (giadad real) (المدينة الملكية)، والأرك نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه [1].

وفي خطةٍ شبيهةٍ جداً بخطة موقعة الزَّلاَّقة قسَّم أبو يوسف يعقوب المنصور الجيش إلى نصفين، فجعل جزءً في المقدمة، وأخفى الآخر خلف التلال، وكان هو على

(1) الأرك، شوقي أبو خليل، ص 54.

رأسه، ثم اختار أميراً عاماً للجيش هو كبير وزرائه أبو يحيى بن أبي حفص، وقد ولَّى قيادة الأندلسيين لأبي عبد الله بن صناديد؛ وذلك حتى لا يُوغر صدور الأندلسيين وتضعف حماستهم حيت يتولَّى عليهم مغربي أو بربري.. وقبل اللقاء بلحظات وجه المنصور الموحدي رسالةً إلى كل المسلمين يقول فيها:

« إنَّ الأمير يقول لكم: اغفروا له!! فإنَّ هذا موضع غفران، وتغافروا فيما بينكم، وطيِّبوا نفوسكم، وأخلصوا لله نياتكم «

فبكى الناس جميعهم، وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص، وعلموا أنه موقف وداع، ثم قام الخطباء يخطبون عن الجهاد ويُذكِّرون بفضله وشرفه ومكانته ويُحمِّسون الجند له، «فنشط الناس، وطابت النفوس، ومن الغد صدع بالنداء، وبأخذ السلاح والبروز إلى اللقاء».

والتحم الفريقان.. واشتد وطيس المعركة حتى رجع النهار بالغبار ليلاً، واستبسل المسلمين في القتال وثبَّت الله أقدامهم أمام هجمات النصارى، واستشهد في خلال المواجهة القائد العام المجاهد أبو يحيى بن أبي حفص، واستشهد معه جماعةٌ من المجاهدين، ورغم ذلك واصل المسلمون استبسالهم في القتال ولم يهنوا ولم يولو القهقرى.. فبينما ألفونسو الثامن قد همَّ وعزم أن يحمل على المسلمين بجميع جيشه، ويصدهم بجنوده وحشوده؛ إذ سمع الطبول عن يمينه قد ملأت الأرض،و الأبواق قد طبقت الرُّبا والبطاح، فرفع رأسه لينظر فيها، فرأى رايات الموحدين قد أقبلت، واللواء الأبيض المنصور في أولها عليه: « لَا إِلَهَ إِلَّا الله، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ،لَا غَالِبَ إِلَّا الله» وأبطال المسلمين قد تسابقت وجيوشهم قد تناسقت وتتابعت، وأصواتهم بالشهادة ارتفعت..

فقال: «مَا هَذَا؟!»..

فقيل له: «هَذَا أمِير المؤْمِنينَ قَدْ أَقْبَلَ، ومَا قَاتَلَكَ اليَوْمَ كُلَّهُ إلَّا طَلَائِعُ جُيُوشِهِ[1]، ومُقدِّمَاتِ عَسَاكِرِهِ!»..

فقذف الله ﷻ الرعب في قلوب الكافرين، وولَّوا الأدبار منهزمين، وعلى أعقابهم ناكصين.. وتلاحقت بهم فرسان المجاهدين، يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقتفون آثارهم، ويُحكِمون فيهم رماحهم وشفارهم، ويروون من دمائهم السيوف، ويُذيقونهم مرارة الحتوف، وأحاط المسلمون بحصن الأراك، وهم يظنون أن ألفونسو -لعنه الله- قد تحصَّن فيه، وكان عدو الله قد دخل فيه من باب، وخرج من الناحية الأخرى، فدخل المسلمون الحصن بالسيف عنوة، وأضرموا النيران في أبوابه، واحتووا على جميع ما كان فيه وفي محلة النصارى من الأموال والذخائر والأرزاق، والأسلحة والعدد، والأمتعة والدواب، والنساء والذرية، وقُتِل في هذه الغزاة من الكفر ألوف لا تُعدُّ ولا تُحصى، ولا يَعلم لها أحدٌ عدداً إلاَّ الله تعالى..

فطارت أخبار النصر في كل مكان، ودوَّت أخبار ذلك الانتصار العظيم على منابر المسلمين في أطراف دولة الموحدين الشاسعة؛ بل وصلت هذه الأخبار إلى المشرق الإسلامي، وكانت سعادةً لا توصف؛ خاصة وأنَّها بعد ثمانية أعوام فقط من انتصار حطين العظيم!.

فرحم الله المنصور الموحدي وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

(1) قد ذكرنا سابقاً أنَّ يعقوب المنصور قسَّم الجيش إلى نصفين، فجعل جزءً في المقدمة، وأخفى الآخر خلف التلال، وكان هو على رأسه.

مواقف لعظماء لم ينصفهم المؤرخون

أودُّ أن أعترف رغم مرارة الاعتراف..... أنَّنا قومٌ نجهل رجال وعظماء تاريخنا حقاً!

لقد بلغ من عمر أمتنا إلى اليوم ما قدره (أربع عشرة قرناً وثلاثٍ وأربعين سنةً) منذ هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وحتى كتابتنا لهذه الصفحات، لكننا لا نعلم من هذا العمر الطويل سوى ما اشتهر على ألسنة الخطباء والكُتَّاب والعامة من رجالٍ كتب الله لهم الخلود والشهرة البالغة أكثر من غيرهم.

فمن من الناس لا يعرف شيئاً عن الخلفاء الراشدين، وأبو هريرة وخالد بن الوليد، ومعاوية وعمر بن عبد العزيز، والأئمة الأربعة، وعقبة بن نافع، وطارق بن زياد، ونور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، وابن تيمية، ومحمد الفاتح وسليمان القانوني؛ ولو بالأسماء فقط؟.

والسؤال هنا: هل هؤلاء هم كل أبطال تاريخ الإسلام الذي يفوق عمره الأربعة عشر قرناً؟.

الحقيقة هي أنَّ ما يعرفه الناس اليوم -و نحن مثلهم بلا شك- لا يعدو أن يكون كقطرة ماء وسط بحر خضم!!.. فلا ريب في أنَّ رجالاً كالخلفاء والراشدين ومن جاء بعدهم من الملوك والفاتحين والمجاهدين المشهورين هم عظماءٌ فوق العادة، قلَّ أن يُبْصَر مثل أحدهم في الأرض، وسِيرهم عظيمة بقدر عظمتهم، فلا أحد يجرؤ على أن ينتقص من قيمتهم أو مكانتهم في قلوب المسلمين قاطبةً، ولكن لا نبغي البتة أن نُقصِّر في حقِّ آلاف العظماء المسلمين في التاريخ الذين ليس لهم ذنبٌ سوى أنَّهم لم ينالوا شهرةً واسعةً كالتي نالها صلاح الدين ومحمد الفاتح مثلاً؟!

ولكننا الآن سنورد شذراتٍ من سير بعض أولئك العظماء الذين لم يُنصفهم المؤرخون، عسى الله أن يجعلهم سُرُجاً تُنير للمسلمين طريق العزة والمجد، وأن

يكونوا قدوات صالحةً لهم، فإنَّ التشبُّه بالكرام فلاحٌ، فأذكر لكل واحدٍ منهم موقفاً عظيماً من جملة مواقفه العظيمة التي سطَّرها في مسيرته، تاركاً المجال من بعدُ للقارئ الكريم كي يطَّلع على كامل سِيرهِم، وما أحسن لو حظيت تلك السير بالكتابة وإفراد كتاب لكل واحدة منها!..

***

- عبد العزيز بن موسى بن نصير: هل يعلم المسلمون أنَّ هذا البطل هو الذي فتح دولة البرتغال يوماً ما؟!.. فقد كان عبد العزيز هذا شبلاً من موسى بن نصير الأسد، كيف لا وهو الذي تربَّى كأبيه على التقوى والورع وحبِّ الجهاد! وملخص القصة أنَّه في نفس الوقت الذي كان فيه البطلان موسى بن نصير وطارق بن زياد يفتتحان القلاع والحصون والمدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى في اتجاه الشمال والشمال الغربي (أين سيخترق المسلمون الحدود الفرنسية بعد ذلك من جهتها الغربية الجنوبية، ويكونون على بُعد ثلاثين كيلومتراً فقط من باريس!)، كان عبد العزيز في طريقه للتوغل غرباً، فاستطاع رحمه الله أن يفتتح كامل الغرب الأندلسي في فترة محدودةٍ جدًّا! فقد وصل إلى لشبونة وفتحها، ثم فتح البلاد الواقعة في شمالها، وبهذا يُعدُّ عبد العزيز بن موسى بن نصير فاتح البرتغال!!.
- عَنْبَسَة بن سُحَيْم: كان عَنْبَسَة رحمه الله قائداً تقياً ورعاً، وإدارياً فذًّا، ومجاهداً حق الجهاد، حكم الأندلس من سنة (103هـ/721م) إلى سنة (107هـ/725م)، فوصل في جهاده إلى مدينة (سانس sens)، وهي تبعد عن باريس بنحو ثلاثين كيلومتراً، وهذا يعني أنَّ عَنْبَسَةَ بن سُحَيْم رحمه الله قد وصل إلى ما يقرب من 70% من أراضي فرنسا! ويعني هذا -أيضاً- أنَّ 70% من أراضي فرنسا كانت بلاداً إسلامية! فقد أوغل عنبسة بن سحيم في غزو الفرنج، وافتتح (قرقشونة

carcassona) صلحاً بعد أن حاصرها مدة، وأوغل في بلاد فرنسا فعبر نهر الرون إلى الشرق، وأُصيب بجراحات في بعض الوقائع، فاستشهد رحمه الله وهو في طريق عودته إلى الأندلس في (شعبان 107هـ/ديسمبر 725م)[1].

- مسلمة بن عبد الملك بن مروان: قال عنه الإمام الذهبي-و حسبك به معرفةً برجال التاريخ وإنصافهم-: «كَانَ أَوْلَى بِالخِلَافَةِ مِنْ سَائِرِ إِخْوَتِهِ». وقد صدق الإمام رحمه الله؛ فإنَّ مسلمة أنقى إخوته سيرةً وسريرة، وأيمنهم نقيبة، وأرجحهم عقلاً، أصوبهم رأياً، وأكثرهم جهاداً حيث كان في كل سنة يفتح بلداً أو حصناً من الحصون العظيمة التي أقامها الروم لتأمين سلامة بلادهم والمحافظ عليها من غارات الأعداء. ولذلك ركَّز عليه والده الخليفة وهو على فراش الموت في وصيته لأبنائه، فكان مما قاله: «..و انْظُرُوا مَسْلَمَةَ فَاصْدُرُوا عَنْ رَأْيِهِ؛ فَإِنَّهُ نَابُكُمْ الَّذِي عَنْهُ تَفْترونَ، ومجنُّكمْ الَّذي عَنْهُ ترمُونَ» [2].. ويكفي مسلمة كي يُخلَّد في سجل العظماء كونه قاد الجيش الإسلامي الذي أرسله أخوه سليمان بن عبد الملك لحصار مدينة القسطنطينية سنة (98هـ)، فسار إليها ومعه جيشٌ عظيم، وأطبق على أسوارها الحصار حتى خافته الروم خوفاً شديداً، فلما تولى عمر بن عبد العزيز مقاليد الخلافة بعد سليمان أمر برجوع مسلمة وجيشه ووقف الحصار، ولم يرجع مسلمة حتى بنى مسجداً بالقسطنطينية شديد البناء محكماً، رحب الفناء شاهقاً في السماء [3]. رحمه الله تعالى.

- سقمان بن أرتق: لو أصبح المسلمون اليوم يعرفون تاريخ الحروب الصليبية (الذي هو جزءٌ خطير من تاريخهم امتد لنحو 200 عام) كما يعرفه طلاب الجامعات الأوروبية والأمريكية وغيرها، لعرفوا من الأبطال والعظماء المسلمين ما تُغطِّى به الشمس وتؤلف فيه المجلدات الضخمة، ولكننا -للأسف- لم نفعل!..إنَّ بطلنا الآن هو

(1) انظر: فجر الإسلام، لحسين مؤنس، ص 210-215، قصة الأندلس (1/92-93).

(2) انظر: الكامل في التاريخ (237/4).

(3) انظر: البداية والنهاية (174/9).

مجاهدٌ كبير وقائدٌ فذٌّ من قادة المسلمين إبان الحملات الصليبية الأولى على الديار الإسلامية، ورغم ذلك فإنَّه مجهولٌ ومغمورٌ لدى الشباب المسلم، وهو سقماق بن أرتق رحمة الله عليه، فقد كان هذا البطل من أبرز القادة المجاهدين الذي كرَّسوا حياتهم للتصدي للغزو الصليبي بعد أن بذل نفسه لله تعالى، وإنَّ من أروع ما في مسيرة سقمان الجهادية هو دعوته لأمير الموصل شمس الدولة جكرمش كي يجتمعا ويتّحدا على إيقاف تقدُّم الصليبيين الذين كانوا يستهدفون إسقاط مدينة حرَّان الشهيرة، فقابل جكرمش دعوة سقمان بالموافقة الفورية على الاتحاد ضد العدو (و كان سقمان أميراً على حصن كيفا وديار بكر) وردَّ عليه بنفس الدعوة، وذلك رغم كل الخلافات التي كانت بين الطرفين قبل ذلك، وهذا رائعٌ جدًّا أن تتم الوحدة بين المسلمين في ظروف الأزمات والنكبات، ولكن الأروع في قصتنا هذه أنَّ كلا الزعيمين أعلن أنَّ هذه الوحدة ليست لتحقيق نصرٍ، أو لتوسيع ملكٍ، أو لتكثير ثروةٍ، إنما هي لله!! فلقد أرسل كلٌّ منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع معه لتلاقي أمر حرَّان ويُعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه.. فجمع الزعيمان من المجاهدين ما مجموعه عشرة آلاف مجاهد من التركمان والترك والعرب والأكراد، فالتقوا على نهر البليخ، فجرت هنالك ملحمة مشهودة-كما وصفها الإمام الذهبي- بين المسلمين والصليبيين عُرِفت باسم ذلك النهر: «معركة البليخ»، وعُرِفت كذلك باسم (معركة حرَّان)، فانتصر المسلمون بقيادة سقمان وجكرمش على جحافل الصليبين الغُزاة انتصاراً مدوّياً[1]، وكان ذلك سنة (497هـ/1104م).. فرحمة الله على سقمان وجكرمش وجزاهما عن الإسلام خير الجزاء.

- مودود بن التونتكين: ولقد ظهر هذا القائد المجاهد الكبير أيضاً في الزمن الذي ظهر فيه سقمان بن أرتق، ولكن مودود هذا نستطيع أن نعُدَّهُ من طينة

(1) انظر: الكامل في التاريخ (9/72-74).

المجاهدين الكبار مثل عماد الدين زنكي! فمسيرته الجهادية ضد الصليبيين مسيرةٌ عظيمةٌ حقاً، فبعد أن أصبح أميراً على الموصل بدأ رحمه الله في ترتيب بيته الداخلي هناك وإقرار الأوضاع بعد الفتن التي شهدتها هذه الإمارة الإسلامية، فأحبَّه الناس حباً شديداً، ودانوا له جميعاً بالطاعة، وأعلن مودود أنَّ جهاده سيكون في سبيل الله، وهذا جعل جنوده في حالة معنوية عالية؛ إذ أصبح الجهاد قضيةً شخصيةً لكل واحد حيث إنهم جميعاً يعملون لله ﷻ، أمَّا عندما كان الجهاد في عهود سابقة من أجل أمر معين أو طاعة لأمر قادم من هنا أو هناك، فإنَّ الجنود حينها كانوا يُقاتلون بفتور، ويُدافعون بغير اكتراث، ولا يسعدون بنصر، ولا يحزنون لهزيمة، وهذه طبيعة الجيوش العلمانية التي تُقاتل دون قضية، لكن مودوداً رحمه الله جعل القضية واضحةً تماماً في عين شعبه وجنده؛ مما ترك أثراً إيجابياً رائعاً على إمارته، ظلَّ ممتداً لعهود طويلة.. ثم إنَّ الخطوة التالية لمودود كانت رائعة، وتُعبر عن فقهٍ عميقٍ لطريق النصر، وهي خطوة توحيد الجهود، وتجميع الشتات، والالتزام بالفكر الجماعي، وقد فقه التوحيد القرآني الفريد: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ...﴾ [آل عمران:103] ، ومن ثَمَّ بدأ مودود في مراسلة من حوله من الأمراء لتجميع جيوشهم تحت راية واحدة، ولهدف واحد وهو طرد الصليبيين من بلاد الإسلام.. لقد كانت خطوةً رائعةً، لكن لم ينقصها إلا شيءٌ واحدٌ! وهو أنَّ مودود بن التونتكين رحمه الله كان عملاقاً في زمان الأقزام!! فهذه الأهداف السامية،و هذه الغايات النبيلة لم تشغل أمراء ذلك الزمن، ومن ثَمَّ لم تكن استجابتهم عاليةً، ومن استجاب منهم لم يكن سلوكه يدل على فهمه لقضية الجهاد في سبيل الله، بل كانت المسألة عندهم واحدة من اثنتين: إما رغباً في نفع أو غنيمة، وإما رهباً من سلطة مودود بن التونتكين أو سلطانه الأكبر السلطان محمد السلجوقي؛ ومع ذلك فقد استطاع مودود رحمه

الله أن يُكوِّن حلفاً من الأمراء لَفَتَ أنظار المسلمين إلى ضرورة التوحُّد، وأعاد إلى الجميع مبدأ تجميع الجهود [1].. ولازال مودود رحمه الله يُجاهد الصليبيين ويُعِدُّ الحملات الجهادية ضدهم، ويُذيقهم الويلات -رغم ما لاقاه من عظيم خذلان وخيانة بقية الأمراء المسلمين الذين كانوا يصحبونه في المعارك ضد الصليبيين- حتى نصره الله في موقعة (الصنبرة) التي سحق فيها المسلمون الأعداء سحقاً، وهي الموقعة التي اتحد واجتمع فيها جيش مودود مع جيش أمير دمشق طغتكين وجيوش أمراء آخرين، وهي -أيضاً- الموقعة التي شهدت بزوغ نجم المجاهد العظيم عماد الدين زنكي، وقد قُتِل فيها ما يزيد عن ألفي فارسٍ صليبي، وغنم المسلمون غنائم هائلةً من الخيول والسلاح والممتلكات.. فرحمة الله على مودود.

- عبد الرحمن الغافقي: وبالعودة مجدَّدًا إلى أرض الأندلس أيام عهد الولاة (و يعني أنَّ حُكْمَ الأندلس في هذا العهد تولَّاه رجلٌ يتبع الحاكم العام للمسلمين، وهو الخليفة الأموي في دمشق آنذاك)، وبالتحديد سنة (102هـ).... نرى أنَّ أهل الأندلس اختاروا أميراً جديداً عليهم هو عبد الرحمن الغافقي بعد استشهاد أميرهم المجاهد الكبير قبله السمح بن مالك الخولاني، فاستطاع عبد الرحمن أن يجمع شتات المسلمين في الأندلس وينطلق انطلاقة موفقةً نحو جهاد الإسبان الصليبين وإدارة أمور ولايته، ولكن لم تدم ولايته سوى شهرين بعد أن عزله والي إفريقية يومئذٍ يزيد بن أبي مسلم.. وبعد أن مرَّ على ولاية الأندلس ما لا يقل عن ستة ولاة رجع عبد الرحمن الغافقي رحمه الله إلى إمرة الأندلس مرَّةً أخرى، ولكنه وجد الفتنة قد أطلت برأسها على المسلمين بين العرب والبربر، وهو أمرٌ لم يحدث قطُّ منذ أن فتح المسلمون أرض الأندلس، ولكنَّ الله تعالى سخَّر عبد الرحمن الغافقي الذي قضى على دابر تلك الفتنة ووحَّد صفوف المسلمين عرباً وبربراً، ثم راح رحمه الله يُعِدُّ العدَّة

(1) قصة الحروب الصليبية، ص 264-265.

لجهاد الصليبيين ويتجهز لهم، فتوجَّه ناحية فرنسا ليستكمل الفتح من جديد، ودخل مناطق لم يدخلها السابقون، فوصل إلى أقصى غرب فرنسا، وأخذ يفتح المدينة تلو المدينة، ففتح مدينة (آرل)، ثم مدينة (بودو) ثم مدينة (طلوشة)، ثم مدينة (تور)، ثم وصل إلى (بواتيه)، وهي المدينة التي تسبق باريس مباشرةً، والفارق بينها وبن باريس حوالي مائة كيلو متر تقريباً إلى الغرب منها، وبينها وبين قُرطُبة حوالي ألف كيلومتر؛ أي أنَّه توغَّل كثيراً في اتجاه الشمال [1].. وبعد ذلك كان عبد الرحمن الغافقي وجيشه على موعدٍ مع ملحمة شرسة أمام جحافل الإفرنج الصليبيين، هي ملحمة (بلاط الشهداء) الشهيرة سنة (141هـ/732م)، وهي الموقعة التي انهزم فيها عبد الرحمن وأصحابه.. ولكن رغم هذه الهزيمة فقد بقي عبد الرحمن الغافقي مجاهداً من خيرة المجاهدين الذين وطئت أقدامهم أرض الأندلس وسطَّروا بسيوفهم أروع صور الفتح والجهاد، كما أنَّ سيرته الحافلة أكبر من أن يحصرها المؤرخون قديماً وحديثاً في سطورٍ قليلةٍ معدودة، وهي تحتاج لمن يجمع فصولها في كتاب منفرد على الأقل، رحمه الله تعالى.

(1) انظر: قصة الأندلس، ص 97.

غلام زرافة [1]

إنَّ قصة البحَّارة المسلمين المجاهدين على البحار عبر تاريخنا لهي قصة البطولة والسيادة والعظمة في أبلغ معانيها!..

وهي قصَّـةٌ حَرِيَّـةٌ بـأن يُفـرِد لهـا المؤرخـون المسـلمون المعاصـرون المصـنفات والمؤلفات الكبيـرة، وأن يُنتِج لها المُخرجـون السـينمائيون الأفلام الطويلة والقصيـرة منها، وأن يكتب عنها الكُتَّاب والرِّوائيون مهما تنوعت أساليبهم وأذواقهم، وما ذاك إلَّا لكي يُبيِّنوا للناس أنَّ المسلمين لم يكونوا أسـوداً في البـر فحسـب، وإنَّما كانوا كذلك قروشـاً في البحـار، ووحوشـاً كاسـرةً بين أمواجـه!.. وإذا كان النورمانـيون (الفـايكينج vikings) هم أسياد البحار الشمالية في أوروبا في العصور السالفة-كما يُقال-، فإنَّ المسلمين كانوا أسياد البحر المتوسط بطوله وعرضه لقرونٍ طويلةٍ متتاليةٍ!..

واقرأوا التاريخ لتُدرِكوا جيدًا ماذا أقول!!..

ونحن الآن على موعدٍ مع قصة (غلام زرافة)!..

لم تسمعوا عنه من قبل، أليس كذلك؟!..

إنَّه أعظم بحَّارٍ في تاريخ الإسلام مثلما يصفه الأستاذ والباحث في التاريخ الإسلامي محمد عبد الله عنان!..

ولا أظن أنَّ هناك لوماً يقع على عاتقنا بسبب جهلنا حتى باسم ذلك البحار المسلم، فضلاً عن قصته وسيرته، فجميع مؤرخينا القدامى لم يذكروا عنه شيئاً كثيراً واكتفوا فقط بذكر إحدى غزواته، وهي غزوته لمدينة أنطاكية وفتحها [2]،

(1) إنَّ كل ما كتبته تحت هذا العنوان هو نِتاج أبحاث وتحقيقات الأستاذ والباحث في التاريخ الإسلامي محمد عبد الله عنان رحمه الله.

(2) انظر: الكامل في التاريخ (423/6)، تاريخ ابن خلدون.

ومنهم من ذكر الغزوة ولم يُسمِّه باسمه [1].. ولكن في المقابل تحدثت المصادر البيزنطية عن سيرة البحَّار المسلم غلام زرافة، وأفاضت في سرد حملاته وغزواته البحرية الجريئة على ثغور الدولة البيزنطية، وما كانت تُحدِثه هذه الغزوات في الدولة وثغورها من الروع والاضطراب.. وهذه المصادر تُطلق على غلام اسم (ليون الطرابلسي leo of tripolis)..

فمن ليون الطرابلسي هذا؟..

يُجيب على هذا التساؤل وينقل ما ذكرته المصادر البيزنطية الأستاذ عنان، فيقول:

«لقد انتهينا بالبحث والتحقيق إلى القطع بأنَّه هو أمير البحر أو القائد الذي يُطلق عليه المؤرخون المسلمون اسم (غلام زرافة). وليس في الرواية العربية ما يُلقي الضياء على نشأته، ولكن الرواية البيزنطية تُحدثنا عن هذه النشأة فتقول إنَّ ليون الطرابلسي ولد من أبوين نصرانيين في أتاليا من أعمال بامفليا [2]، ولكنه اندمج منذ حداثته في العصابات المسلمة واعتنق الإسلام، واستقرَّ في طرابلس من أعمال الشام.

ونشأ ليون منذ حداثته فوق متن السفن، وتلقَّى دروسه الحربية في لجة البحر، واشترك في كثير من الغزوات والحملات الناهبة التي كانت تُنظِّمها العصابات البحرية المسلمة للإغارة على شواطئ بحر الأرخبيل وثغوره وجزره. ثم انتقل إلى طرسوس وجمع تحت لوائه أمهر وأشجع البحارة المسلمين في هذا العصر، واتخذ طرسوس محط رحاله، ومرفأ سفنه، وأضحى في عصبته القوية المغامرة، قوة تروِّع الدولة البيزنطية وثغورها.

(1) انظر: البداية والنهاية (98/11).

(2) في جنوب شرق آسيا الصغرى.

وكانت أعظم غزوةٍ قام بها ليون الطرابلسي أو غلا زرافة، هي غزوة تسالونيكا [1] في سنة (291هـ/904م). والرواية الإسلامية موجزةٌ أيضاً في أخبار هذه الغزوة الشهيرة بينما تفيض الرواية البيزنطية في تفاصيلها. وتُجمل الرواية الإسلامية خبرها فما يلي: « في سنة (291هـ) سار القائد المعروف بغلام زرافة من طرسوس نحو بلاد الروم، ففتح مدينة أنطاكية وهي تُعادل القسطنطينية، فتحها بالسيف عنوةً فقتل خمسة آلاف رجل وأصر مثلها، واستنقذ من أسرى المسلمين مثلها، وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع والرقيق، فقسَّمها مع غنائم أنطاكية فكان السم ألف دينار» [2]. وسنرى أنَّ أنطاكية المقصودة هنا هي تسالونيكا لا أنطاكية الشام التي كانت يومئذٍ ثغراً مسلماً» [3].

وقد نقل الأستاذ عنان تفاصيل هذه الغزوة من الرواية البيزنطية، ودوَّنها مؤرخ معاصر شهد الموقعة بنفسه هو (يوحنَّا كامنياتس).. أمَّا نحن فَلِطول هذه التفاصيل وكثرتها ارتأيت أن أوجزها وألخصها قدر المستطاع في غير إخلال بالأحداث ولا نقصان، مع تصرّفٍ في بعض العبارات، فأذكر ما كان مهمًّا منها، وأترك عكسه..

خرج ليون الطرابلسي (غلام زرافة) من طرسوس في أربعٍ وخمسين سفينةً في كلٍّ منها نحو مائتي مقاتل، وانضمَّ إليه في مسيره أشجع خوارج البحر (القرصان) في مياه المشرق، فلما بلغ الأسطول البيزنطي مسير المسلمين إليهم ارتدَّ راجعاً تاركاً مياه الأرخبيل (إيجه) مفتوحةً لسفن الغزاة، وذاع في القسطنطينية أنَّ الغزاة يقصدون ثغر تسالونيكا، وكانت عندئذٍ أعظم الثغور البيزنطية وأمنعها وأغناها بعد قسطنطينية، وكانت محميَّةً بأسوار وقلاع حصينة شُيِّدت على آكام (تلال) مرتفعة،

(1) تسالونيكا أو تسالونكي هي ثغر سلانيك الحديث، وقد كانت في العصر الذي نتحدث عنه أعظم ثغور الدولة الشرقية وأغناها بعد قسطنطينية، وكان سكانها يبلغون يومئذٍ زهاء ربع مليون.

(2) الكامل في التاريخ (423/6)، تاريخ ابن خلدون (357/3).

(3) مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، لمحمد عبد الله عنان، ص 93-94.

ولكنها كانت يومئذٍ واهيةً متداعيةً، وكان السور الكبير قد تهدَّمت حافته العليا مما يلي البحر فكان بوسع السفن أن تدنو من أسوار المدينة، ولكن رغم ما بذله عامة البيزنطيين وأعدُّوه -و في مقدمتهم القادة والقساوسة، إضافةً إلى الصقالبة- من مختلف وسائل الدفاع والصد، إلَّا أنَّ البطل ليون الطرابلسي (غلام زرافة) وأصحابه استطاعوا أخيراً وبعد العديد من المحاولات أن يفتحوا أبواب المدينة، فانقضوا عليها من كل ناحية، ودخل البحارة المكلَّفون بجمع الأسلاب شاهرين السيوف وليس عليهم سوى السراويل، وفرَّ البيزنطيون والصقالبة من كل صوب.

وبعد أن أنفق المسلمون بضعة أيام في النهب والسبي، غادر ليون الطرابلسي (غلام زرافة) ثغر تسالونيكا مثقلاً بغنائم فادحة، وعدد كبير من الأسرى يُقدِّرُهم يوحنا كامنياتس المؤرخ باثنين وعشرين ألفاً بين رجالٍ ونساءٍ وغلمان.. ثم سار ليون الطرابلسي (غلام زرافة) في سفنه متَّجنباً لقاء الأسطول البيزنطي حتى لا يرهقه وهو مثقلٌ بغنائمه، حتى وصل إلى طرابلس في (24 سبتمبر 904م) ثم سار إلى طرسوس التي كانت قاعدةً للفداء أو استبدال الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين، وهناك استبدل أشراف تسالونيكا ومن بينهم المؤرخ كامنياتس، بطائفةٍ من أسرى المسلمين[1].

فرحمة الله على ليون الطرابلسي (غلام زرافة) وعن مجاهدي أمة الإسلام وجزاهم خير الجزاء..

(1) مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص 94-97.

ما بعد فتح القدس

«ويوم نجح في استرداد القدس أتى من النبل والكرم والمروءة ما لم يفرغ بعدُ مؤرخو الافرنج الكلام فيه وتقديره»

(علي الطنطاوي)

« هذا الذي أخذ الدنيا بسيف الظفر، ثم جاد بها بيد الكرم.. هذا الذي روَّع أوروبة مرتين: مرة حين قهر جيوشها بسيفه، ومرة حين شَدَه نفوسها بنبله. هذا الذي كان النموذج الأتم للقائد المنصور، وكان المثل الأعلى للحاكم المسلم، وكان الصورة الكاملة للفارس النبيل، والمسلم الصادق. وكان المحرر الأعظم؛ حرَّر هذه البلاد: الشام وفلسطين من استعمار الأوروبيين بعدما استمر نحواً من مائة سنة.

هذا الذي انتزع من أصدقائه ومن أعدائه، أعظم الإعجاب، وأصدق الحب، وترك في تواريخ الشرق والغرب أكبر الأمجاد، وأعطر السجايا، وكان اسمه من أضخم الأسماء التي رنت في سمع الزمان، ودوَّت في أرجاء التاريخ، وخلدت على وجه الدهر... صلاح الدين الأيوبي « [1].

لا شك أنَّ فتح الناصر صلاح الدين لبيت المقدس وتحريره من قبضة الإرهاب الصليبي بعد ما يزيد عن تسعين عاماً من دخوله للأرض المباركة، لهو إنجازٌ جليل وعملٌ عظيمٌ قد أثنت عليه-و لازال- جماهير المؤرخين غير المسلمين قبل غيرهم، كما

(1) رجالٌ من التاريخ، للشيخ علي الطنطاوي (40/2).

ظلَّ ذكر صلاح الدين مقروناً ببيت المقدس كاقتران اسم الفاتح محمد بالقسطنطينية، واسم طارق بن زياد بالأندلس، واسم عقبة بن نافع بالقيروان..

بيد أنَّ الأمر الذي نحن بصدد بسط الحديث عنه هاهنا هو تجسد سماحة الإسلام ونُبْلِ تعاليمه في سلوك صلاح الدين مع العدو الصليبي بعد الفتح المقدسي، وهذا ديدن عظماء أمة الإسلام عبر التاريخ، وإني أتحدى كل امرئٍ يأتي لي بموقف واحد كموقف صلاح الدين بعد فتح القدس قام به قائد أو فارس أو ملك أو أمير غير مسلم في التاريخ!..

لقد كان بإمكان صلاح الدين أن يفعل بالصليبيين ما يشاء يوم استطاع دحرهم ودخول بيت المقدس، كان قادراً على الانتقام منهم بما فعلوه قبلها بأكثر من تسعين عاماً، وذلك لمَّا دخلوا هم البيت وقتَّلوا فيه ما يزيد عن الـ(70،000) مسلمٍ أطفالاً ورجالاً ونساءً كانوا كلهم معتصمين داخل المسجد خوفاً من بطش الإرهاب الصليبي الغاشم!

ولكن هل تجرَّأ بطلنا صلاح الدين على أن يقتل واحداً من الصليبيين لمَّا تمكن من المدينة والسيطرة عليها؟!

كلاَّ وربي!

فقَّد كان رحمه الله مشبعاً بأخلاق الحروب التي فرضها الإسلام على أهله، فجعل حول الحروب سياجاً متيناً من الأخلاق، لا تسيرها الشهوات ولا الحسابات الشخصية، بل ولم يجعل تلك الحروب إلا ضد كل طاغٍ وظالمٍ ومعتدٍ على أعراض المسلمين وحرماتهم، أو كل مانعٍ وصادٍّ عن سبيل الله تعالى، فكان القائد الأول النبي ﷺ يوصي أصحابه قبل الغزو بتجنب قتل النساء والشيوخ والأطفال وأصحاب الصوامع، وألَّا يَغُلُّوا ويغدروا ويُمثِّلوا (من المثلة؛ وهي التشويه بقطع الأعضاء للحي أو للميت)، وكتب السنن والآثار وشروح الحديث والسيرة طافحةٌ بتلك الوصايا النبوية العظيمة.. وتبعه في ذلك الخلفاء الراشدون.

وهلمَّا بنا الآن لنُمتِّع مسامعنا بما نقله إلينا المؤرخ الشامي المقدسي أبو شامة عن بعض مشاهد تعامل صلاح الدين مع الصليبيين، وهو المؤرخ الذي عاش في الفترة التي تلت وفاة فاتح القدس وظهرت فيها الفتن والانقسامات، فلم يجد بدًّا من أن يُفرد ذكر دولتي صلاح الدين الأيوبي ومن قبله نور الدين زنكي بتصنيف يتضمن التقريظ لهما، وهو كتابه العظيم (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية)، علَّ هناك من يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك المسلك..

***

- جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة على لسان القاضي بن شداد: «وكان للمسلمين لصوصٌ يدخلون إلى خيم العدو، فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون، فأخذوا ذات ليلةٍ طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، فلمَّا فقدته أمُّه بات مستغيثةً بالويل والثُّبور في طول تلك الليلة، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا لها: إنَّه رحيم القلب، وقد أذِنَّا لك في الخروج إليه، فاخرجي واطلبيه منه، فإنَّه يردُّه عليك.

فخرجت تستغيث لليزك[1] الإسلامي، وأخبرتهم بواقعتها، فأطلقوها وأنفذوها إلى السُّلطان، فأتَتْهُ وهو راكبٌ على تلِّ الخرُّوبة، وأنا في خدمته، وفي خدمته خلقٌ عظيم، فبكت بكاءً شديداً، ومرَّغت وجهها في التراب، فسأل عن قصَّتها، فأخبروه، فرقَّ لها، ودَمِعَت عينُهُ، وأمر بإحضار الرضيع، فمضوا، فوجدوه قد بيع في السُّوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري، وأُخِذ منه، ولم يزل واقفاً-رحمه الله- حتى أُحضِر الطفل، وسُلِّم إليها، فأخذته وبكت بكاءً شديداً، وضمَّته إلى صدرها، والناس ينظرون إليها ويبكون، وأنا واقفٌ في جملتهم، فأرضعته ساعةً، ثم أمر بها، فحُمِلت على فرسٍ،

(1) اليزك: طليعة الجيش، وهي كلمة فارسية.

وأُلْحِقت بمعسكرهم مع طفلها!.. قال (أي القاضي): فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس الإنس، اللهم إنَّك خَلَقته رحيماً، فارحمه رحمةً واسعةً، آمين»[1].

- و بلغ من كرم وشهامة صلاح الدين بما قام به تجاه زوجات وبنات الفرسان الصليبيين الذين قُتِلوا وأُسِروا أثناء معاركهم مع صلاح الدين، فقد تجمعن أمام صلاح الدين يبكينَ، فسأل عن حالهن وما يطلبن، فقيل له إنهن يطلبن الرحمة، فعطف عليهن صلاح الدين وسمح لمن كان زوجها على قيد الحياة بأن تتعرف عليه وأطلق سراحه وسمح لهم بالذهاب حيث يريدون، أما النساء والبنات اللاتي مات أزواجهن وآبائهن فقد أمر صلاح الدين بأن يُصرف لهن من خزانته الخاصة ما يناسب عيشتهن ومركزهن وأعطاهن حتى ابتهلت ألسنتهن بالدعاء له!! [2].
- و جاء في كتاب الروضتين -أيضاً- وهذه المرة على لسان الشيخ العلامة العماد[3]: «و كان قد استأمن من الفرنج خلقٌ عظيم أخرجهم الجوع إلينا، وقالوا للسُّلطان: نحن نخوض البحر في براكس، ونكسب من العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين.

فأذِنَ لهم، وأعطاهم بركوساً-و هو المركب الصغير- فركبوا فيه، وظفروا بمراكب لتجار العدو، بضائعهم مُعظمها فضَّة مصوغة، وغير مصوغة، فأسروهم، وكسبوهم وأحضروهم بين يد السُّلطان، فأعطاهم السُّلطان جميع ما غنموه!!... قال العماد: فلمَّا أكْرموا بهذه المكرمة، أثنوا على اليد المُنعمة، وأسلم منهم شطرُهم، وأحضروا مائدة فضَّةً عظيمةً، وعليها مكبَّة عالية، ومعها طبقٌ يماثلها في الوزن، ولو وُزِنت تلك الفضِّيات قاربت قنطاراً، فما أعارها السُّلطان طَرفَه احتقاراً!!».

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة (245/4).

(2) صلاح الدين والأيوبيون، نقلاً عن: صلاح الدين الأيوبي، للصلابي، ص 539-540.

(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة (236/4).

- ومَثَلَ بين يدي صلاح الدين أسير فرنجي، وقد هابه بحيث ظهر عليه أمارات الخوف والجزع، فقال له الترجمان: «مِنْ أيِّ شَيْءٍ تَخافُ؟» فأجرى الله على لسانه أن قال: «كُنْتُ أَخَافُ قَبْلَ أَنْ أَرَى هَذَا الوَجْهَ، فَبَعْدَ رُؤْيتي لَهُ وحُضُورِي بَيْنَ يَدَيْهِ أيْقَنْتُ أني مَا أَرَى إلَّا الخَير!»، فرقَّ له، ومنَّ عليه، وأطلقه[1].

- وقد احترم صلاح الدين مشاعر النصارى؛ فعندما أشار بعض المسلمين عليه عقب دخوله بيت المقدس بهدم كنيسة القيامة، وإزالة آثارها وقالوا: «إذا هدمت بنايتها، وألحقت بأسافلها أعاليها، ونبشت المقبرة وعفيت، وأخمدت نيرانها وأطفيت ومحيت رسومها ونفيت، انقطعت عنها إمداد الزوار، وانحسمت عن قصدها مواد أطماع أهل النار، ومهما استمرت العمارة استمرت الزيارة».. بينما أشار عليه البعض بأنه لما فتح أمير المؤمنين عمر القدس في صدر الإسلام أقرَّهم على هذا المكان ولم يأمرهم بهدم البنيان، فأعرض صلاح الدين بتسامحه عن هدمها!.

فرحمة الله على صلاح الدين وعلى نور الدين وعماد الدين، وعلى ذلك الجيل العظيم!.. ونسأل الله أن يُخرج من بين أصلابنا ليس من يكون كأولئك العظماء الأفاضل، بل من يفوقهم إخلاصاً وعملاً بالشريعة وإخلاصاً للإسلام والمسلمين؛ فإنَّ الأمة التي أخرجت جيل صلاح الدين وهي في تلك الحالة الفاسدة والسيئة جداً لقادرةٌ على أن تُخرج مثله أو أفضل منه وهي في هذه الحالة الأقل فساداً وسوءً.. وإذا كان صلاح الدين ومن معه قد استردُّوا الأقصى بعد إحدى وتسعين سنةً من الضياع، أفنشكُّ نحن في ذلك وقد سلبها اليهود منَّا منذ ثلاثٍ وسبعين عاماً؟!.

(1) الروضتين (403/4).

ما بعد فتح القسطنطينية

«كان سلوك الفاتح عندما دخل القسطنطينية ظافراً سلوكاً مختلفاً تماماً عما تقول به شريعة الحروب في العصور الوسطى، وهو نفيُ شعب المدينة المفتوحة إلى مكانٍ آخر، أو بيعه في أسواق النخاسة، لكن الفاتح قام بما عجز عن فهمه الفكر الغربي المُعاصر له، من تسامح ورحمة..!»

(محمد قطب)

هذه هي المدينة التي لقيت اهتمام أعظم رجل في التاريخ، النبي ﷺ ونطق اسمها بلسانه الطاهر المبارك، ومدح فاتحها وجيشه، فقال: «لَتُفْتَحَنَّ القُسْطَنْطِينية، ولَنِعْمَ الأمِير أمِيرهَا، ولَنِعْمَ الجَيْشُ ذَلِكَ الجَيْشُ» [1].. وقال أيضاً: «أوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرٍ (أي القسطنطينية) مَغْفُورٌ لَهمْ» [2].

هذه هي المدينة التي تشوَّق الصحابة لفتحها وتسابقوا على ذلك حتى يتحقق فيهم حديث النبي ﷺ ولكنهم لم يفلحوا.. وكذلك الحال بالنسبة لبعض خلفاء بني أمية وبني العباس..

هذه هي المدينة التي قيل عنها المقولة الشهيرة: « لَوْ كَانَتْ الدُّنيا مملَكَةً وَاحِدَةً لَكَانَتْ القُسْطَنْطِينيةَ أصْلَحَ المدُنِ لِتَكُونَ عَاصِمَةً لهَا!!».

(1) صحيح: انظر: الجامع الصغير، للسيوطي، رقم (7209).

(2) صحيح: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في قتال الروم، رقم (2924).

هذه هي القسطنطينية؛ مدينة هرقل، درة التاج، عاصمة الدولة البيزنطية، وقلب العالم النصراني الذي مازال يتحسر عليها حتى اليوم!.

وفي فترة من فترات الدولة العثمانية العظيمة، وتحديداً في تاريخ (16 محرم عام 855هـ) تولى حكم الدولة المترامية الأطراف شاب طموح ذو همة عالية، لم يتعدَّ يومها السنة الثانية والعشرين (22) من عمره، ودام حكمه للدولة ما يقرب الثلاثين عاما كانت جميعها خيراً وسيادةً وعزَّةً للمسلمين.. بيد أنَّ الإنجاز الذي خلَّد اسمه بحروف من نور وجعله عظيماً نادراً ما يظهر مثله هو فتحه للقسطنطينية!.. وفوزه بالبشارة النبوية!

ولسنا بصدد سرد أحداث ما قبل هذا الفتح العظيم، أو المجريات التي حصلت أثناءه، ولكننا نود أن نسلط الضوء على ما قام به محمد الفاتح وأصحابه بعد دخولهم القسطنطينية.

فكما فعل سيدنا الفاروق ﷺ مع بعد دخوله بيت المقدس (التي كانت تسمى يومها بإيلياء) سنة (16هـ) حيث كان تعامله مع النصارى هناك أروع دليل على تسامح الإسلام وسمو تعاليمه، ووثيقة المعاهدة مع أهل إيلياء أكبر شاهد على ذلك..

وكما فعل البطل الأيوبي صلاح الدين بعد فتحه بيت المقدس -أيضاً- سنة (583هـ) من عفوٍ وصفحٍ وتسامحٍ وحسن معاملةٍ مع النصارى الذين أفسدوا في بيت المقدس يوم دخولهم إليه وعتوا عتواً كبيراً..

وكما كانت معاملة سيدنا عمرو بن العاص للنصارى-بمختلف مِلَلِهم ونِحَلِهم- بعد فتحه مصر سنة (20هـ) معاملةً عظيمةً أبان فيها عن عظمة تعاليم الإسلام..

فكذلك فعل الفاتح بنصارى القسطنطينية وأكثر!

فبعد دخول القسطنطينية توجه محمد الفاتح إلى كنيسة (آيا صوفيا) وقد اجتمع فيها خلقٌ كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذي كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفاً عظيماً،

وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، فاطمأنَّ الناس، وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة إلى مسجد، وإبقاء نصف كنائس القسطنطينية على حالها وتحويل النصف الثاني إلى مساجد، كما أنه منح للنصارى حق اختيار بطريرك لهم وغيرها من حقوق، ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع [1].

وإننا لمَّا نقرأ هذه السطور النيرة عن محمد الفاتح بعد فتحه للقسطنطينية (والتي كانت آنذاك بمثابة الفاتيكان اليوم) يفرض علينا التاريخ (الذي لا يرحم!) نتذكر ما فعله النصارى الصليبيون يوم دخلوا فلسطين وحاصروا بيت المقدس حيث اعتصم أهل المدينة داخل المسجد ظناً منهم أنَّ هؤلاء القوم سيحترمون قدسيَّة المكان! ولكنهم لم يكونوا سوى أمام حثالة أوروبا ومجرميها الذي بدأوا في تقطيع الرؤوس تلو الرؤوس، فكانت الحصيلة إبادة جماعية مروعة، ومجزرة هائلة يندى لها جبين أوروبا، كانت الحصيلة ما يزيد عن سبعين ألف مسلمٍ ما بين رجل وامرأة وطفل [2] !!

إنها لوصمة عار حقيقية في جبين تاريخ أوروبا!..

بل إنَّ من المؤرخين النصارى من لم يجرؤ على إنكار هذه المذبحة واعترف بها على رؤوس الأشهاد!..

والجدير بالذكر أنَّ القتل في ذلك اليوم لم يكن خاصاً بالمسلمين فقط، بل عانى منه اليهود أيضاً، فلقد جمع الصليبيون اليهودَ في الكنيس ثم أحرقوه عليهم!!.

---

(1) انظر: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، د/علي محمد الصلابي، ص 111.

(2) انظر: الكامل في التاريخ، لابن الأثير (19/9)، دول الإسلام، للذهبي (427/1) (أحداث سنة 492 هـ).

وعندما نقرأ ما فعله الفاتح بالنصارى في القسطنطينية نتذكر بالمقابل ما فعله النصارى الإسبان بالمسلمين فيما عُرف في التاريخ باسم (محاكم التفتيش)، وما أدراك ما محاكم التفتيش!! فلا أظن أنَّ منَّا من لم تأخذه الرعدة لما قرأه عن هذه المحاكم وما فيها من أهوال تشيب لها الولدان!!

فعلا صدق من قال إنَّ التاريخ لا يرحم!

وعندما نقرأ ما فعله الفاتح بالنصارى في القسطنطينية يفرض علينا التاريخ تذكر الجرائم التي اقترفها مجرموا أوروبا الاستعمارية في التاريخ المعاصر لماً أغاروا على البلاد الإسلامية، وتاريخ الجزائر ومصر مع فرنسا (فقط!) طافحٌ بصور الإجرام والإرهاب الذي يلصقونه اليوم بالإسلام والمسلمين!..

وعندما نقرأ ما فعله الفاتح بالنصارى في القسطنطينية نتذكر مذابح النصارى الصرب الأرثوذكس بحق المسلمين في كوسوفا إبان التسعينيات.. والمآسي التي ارتكبها الروس بحق إخواننا في الشيشان والتي راح ضحيتها مائة وأربعة آلاف (104،000) ضحية من المدنيين الأبرياء بعد تعرضهم لعمليات إبادة وحشية استُخدمت فيها أقسى أنواع الأسلحة المُحرَّمة (دولياً!!).. ومجازر الكيان الصهيوني الغاشم بحق إخواننا الفلسطينيين (و منها مجزرة مخيمي «صبرا وشاتيلا» في جنوب لبنان التي راح ضحيتها ما بين 3000-3500 فلسطيني مدني لاجئ من الرجال والنساء والأطفال، والعجيب أنَّ المجزرة تمت في معظمها بالأسلحة البيضاء وفي خلال 36 ساعة فقط!! وكان شعار هذه المجزرة «بدون عواطف!»).. وجرائم الأمريكان في العراق وكيف أنهم استعملوا الشيعة كأداة لقتل السنَّة وأشعلوا لهيب الفتنة بينهما، وهو ما لم يفعله بطلنا محمد الفاتح في القسطنطينية رغم وجود ملل النصارى المختلفة هناك كالكاثوليك والأرثوذكس!.

فرحمة الله على محمد الفاتح وعلى أبطال العثمانيين..

عندما يجتمع المسلمون

«يَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ»
(رسول الله ﷺ)

لا يخفى على كلِّ ذي لبٍّ أنَّ اجتماع المسلمين ووحدة صفهم واجتماع كلمتهم هو بمثابة السد المنيع وخط الدفاع الأول الذي ستصطدم به مخططات أعدائنا ومكائدهم ومؤامراتهم ضدنا، وذلك أمرٌ تكاد الأمة اليوم لا تعرف له سبيلاً رغم قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ...﴾ [آل عمران:103].. وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال:46]..

وقول النبي ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ، وإِيَّاكُمْ الفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الوَاحِدِ، وهُوَ مِنَ الاثْنينِ أبْعَدُ»[1].

فيا ليت شعري كم تفرقنا واختلفنا وتنازعنا، ثم فشلنا وذهبت ريحنا وتسلط العدو علينا!!..

ولكن حسبُنا أنَّ في تاريخنا مشاهد عظيمة باهرة لاجتماع المسلمين ووحدتهم بعد تفرُّقِهم وتنازعهم، لتُحصَدَ بعد كلِّ اجتماعٍ ثمراته التي ليس هناك بدٌّ من أن يُثمرها غير الاجتماع، فلو كان للفرقة والتنازع ثمار لرأيناها اليوم! ولكن قضى الله تعالى ألا يأتينا التنازع إلا بالذُّلِّ والهوان والفشل وذهاب الريح، فهو داءٌ ليس له دواءٌ سوى الاجتماع!

***

- نحن الآن في الخمس الأواخر من شهر ذي الحجة سنة (23هـ).. وهي الأيام التي

(1) صحيح: سنن الترمذي (2165).

يترقب فيها الصحابة والمسلمون أن تفيض روح الشيخ الوقور عمر الذي لطالما كان سداً منيعاً وحصناً حصيناً ضد كل البدع والفتن والشرور، أما وقد فاضت هذه الروح الطاهرة إلى بارئها فقد أطلَّت الفتنة بقرنيها على أمة الإسلام، ولم تزل هذه الفتنة تهوي بالأمة وتعصف بها يميناً وشمالاً فعاثت في دمائها (و خاصةً بعد استشهاد عثمان وعلي)، حتى تولى الخلافة سيدنا الحسن بن علي ﷺ شهر رمضان من سنة (40هـ)، وهنا كان الحسن يتذكر بشارةً نبويةً لم ينسها قطُّ منذ أن التقطتها مسامعه وهو طفلٌ صغير من فوق المنبر، وهي قوله ﷺ: «إنَّ ابْني هَذَا سَيِّدٌ، ولَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ» [1].. فكان الحسن يُدرِكُ تمام الإدراك أنَّ الوقت قد حان لأن يجتمع المسلمون تحت راية واحدة بعد أن شتَّتتهم الفتنة، فتُحقَنَ بذلك دماء المسلمين وترجع المياه إلى مجاريها، وما هي إلا أشهرٌ قليلةٌ حتى قرَّر ﷺ التنازل عن الخلافة لسيدنا معاوية بن أبي سفيان، وكان ذلك يوم الخامس والعشرين من ربيعٍ الأول سنة (41هـ)، فسُمِّيَ هذا العام بعام الجماعة، ولو لم تكن للحسن إلا هذه الفضيلة في توحيد كلمة الأمة لكفته عظمةً ونُبلاً!. وإذا كنت لم تُدرك بعدُ قيمة هذه الخطوة التي أقدم عليها الحسن فاعلم أنَّ الأمة قد التقت أخيراً وتوحدت تحت زعامة معاوية بعد أن رضيت به خليفةً، وذلك هو المقصد الذي يتحقق به العزُّ والتمكين للمسلمين!.. واعلم أنَّ الفتوحات قد عادت إلى ما كانت عليه قبل خمس سنوات شهدت فيها الأمة تخبُّطاً كبيراً أدَّى لتوقفها وتوجيه السيوف المسلمة نحو بعضها البعض، فاستُأنِفَت مرَّةً أخرى في عهد معاوية على أكثر من جبهة، وبذلك استرجعت الأمة هيبتها في أعين أعدائها!.. واعلم أنَّ هذه الوحدة بين المسلمين جعلت الدولة الإسلامية تتفرغ كثيراً لكسر شوكة الخوارج والتضييق عليهم وهم الذين أفسدوا في الأرض أيما إفساد وقتلوا المسلمين ومنهم أمير المؤمنين علي

(1) صحيح: صحيح البخاري (2704).

نفسه!.. وكفى بهذه النتائج دلالةً على أهمية وحدة المسلمين على العموم.

- ولما انهارت دولة الأمويين انهارت معهم وحدة المسلمين، وضعف أمرهم ووهنت قواهم، ولكن سرعان ما اجتمعوا مرةً أخرى وأحاطوا براية العباسيين القوية رغم ما رافق علو هذه الراية من مخالفات وأخطاء لا يُنكرها أحد، ولكن يبقى اجتماع المسلمين أهم من كلِّ اعتبارٍ، وفي العهد الأول من عمر الدولة العباسية بلغت الأمة مبلغاً عظيماً من القوة والازدهار في شتى الشؤون والمجالات، وهابها الأعداء وسارع ملوك الأرض لنيل ودِّ الدولة المسلمة وصداقتها، وكلُّ ذلك لم يكُن ليحصل لولا الوحدة والاجتماع!.

ولما ضعفت الدولة العباسية في النصف الثاني من عهدها تشتت أمر المسلمين نسبياً، وأصبح الخليفة صورةً فقط للحاكم الذي كان في الحقيقة من المتغلبين على الحكم من أتراكٍ وبويهيين وسلاجقةٍ وغيرهم، ولكن في خضم هذا العهد نشأت بعض الظروف والأحداث التي جعلت المسلمين يجتمعون ويتَّحدون ضد العدو غير ما مرة، ومن ذلك:

- بعد أن كانت الأندلس قاب قوسين أو أدنى من الضياع على يد ألفونسو السادس ملك قشتالة، وبعد أن رأى ملوك الطوائف المتناحرين قرب زوال عروشهم لم يجدوا بداً من استدعاء المرابطين الأقوياء والاتحاد معهم ضد الصليبيين الإسبان، فنتج عن هذا الاجتماع نصرٌ خالدٌ ورائع في معركة الزلاقة الشهيرة سنة (479هـ).. بل ولم يشأ ابن تاشفين ترك الأندلس لوحدها (خاصةً في ظل وجود ملوكها الضعفاء سياسةً وأخلاقاً) فعمل على توحيدها مع بلاد المغرب، فكان لدخول الأندلس في دولة المرابطين الكبرى أثرٌ كبير في تحقيق الانتصارات ضد الصليبيين وحفاظ الأندلسيين على ماء وجههم.

- ولما زحف الصليبيون في حملتهم الأولى نحو بلاد الشام والعراق نجحوا في إلحاق الهزائم بالمسلمين في كثير من المواجهات والمعارك بين (490هـ/493هـ)، ولم

تكن هذه الهزائم إلا بسبب تشتت أمراء المسلمين وتفرقهم وتنازعهم، ولكن في عام (494هـ) حدث أن قام الملك غازي أحمد كمشتكين بن الدانشمند بمراسلة قلج أرسلان للاجتماع ضد جحافل الصليبيين رغم ما كان بين الاثنين من خلاف، فلم يُخيِّب قلج أرسلان ظنَّه وجمع جيشه وانضمَّ إليه، بل وانضمَّ إليهما بعد ذلك بعض جنود رضوان بن تتش زعيم حلب! ورغم أنَّ هذا الاجتماع لم يكن اجتماعاً لله تعالى بيد أنه قد أثمر عن انتصارٍ ساحقٍ حقَّقه الجيش الإسلامي المتَّحِد على الجيش الصليبي الذي بلغ عدد المقاتلين فيه المائتي ألف (200،000) بفارقٍ شاسعٍ بينه وبين نظيره الإسلامي، وخسر ما يناهز مائة وستين ألفاً منهم! وقد سُمِّيت هذه الموقعة بموقعة مرسيفان.. بل وحدث بعدها أن وصلت دفعةٌ صليبيةٌ جديدة إلى بلاد الشام تصدَّى لها الجيش الإسلامي المتَّحِد ومزَّقها شر ممزَّق، وذلك في معركة هرقاة الأولى، ثم وصلت دفعةٌ صليبية أخرى تلقت هزيمةً نكراء من المسلمين في معركة هرقلة الثانية، فكان الاتحاد بين الجيوش الإسلامية سبباً رئيساً في هذه الانتصارات المتتالية (التي حصلت في شهرين فقط) رغم أنها لم تكن لله وإنما كانت من أجل الحفاظ على العروش والأراضي والحدود، ولكن تبقى الوحدة أفضل من الشتات والتشرذم!

- وفي عام (497هـ) يتَّحد حاكم الموصل المجاهد جكرمش مع أمير الأراتقة في ديار بكر المجاهد الكبير سقمان بن أرتق لصدِّ عدوانٍ صليبيٍّ مرتقب يستهدف قلب الجزيرة شرقاً، وتبادلا الرسائل بينهما يدعوا فيها كلُّ واحدٍ منهما الآخر إلى ضرورة الوحدة والجهاد في سبيل الله ونسيان ما جرى بينهما من خلاف وشقاق، فأثمر هذا الاتحاد الرائع عن نصرٍ مجيدٍ في معركة البليخ ضد الصليبيين!

- وفي محرم من سنة (507هـ) تتَّحِدُ جيوش أمير الموصل المجاهد مودود بن التونتكين، وأمير دمشق طغتكين، وأمير سنجار، وأمير مياردين، فالتقى هذا الجيش الإسلامي المتحد بجيش الصليبيين عند جسر الصنبرة الذي عُرِفت الموقعة باسمه، أي موقعة الصنبرة، وفيها تم سحق الصليبيين وهزيمتهم شرَّ هزيمة، وكان يوماً من

أيام الله الخالدة!

- وفي ربيع الأول من سنة (513هـ) ينتصر المسلمون على الصليبيين في موقعة البلاط الكبيرة وأبادوا جيشهم بالكامل، حتى أُطلِق على مكان المعركة اسم «ساحة الدم» لكثرة قتلى العدو فيها! وسبب المعركة أنَّه بعد وفاة حاكم حلب بدر الدين لؤلؤ استقدم الشعب الحلبي حاكم ماردين إيلغازي بن أرتق -أخو سقمان- لحكم المدينة، فلاحظ في هذه الأثناء أمير إمارة أنطاكية الصليبي روجر انَّ الوقت مناسبٌ للهجوم على حلب والاستيلاء عليها، ولكن ما أن علم إيلغازي بنية روجر في غزو المدينة حتى أرسل إلى أمير دمشق طغتكين طالبا منه الاتحاد والاجتماع معاً لصد العدوان الصليبي المرتقب، فوافق طغتكين على ذلك وجمع جيشه وانضم إلى جيش إيلغازي، فانتصر هذا الجيش المتَّحِد على الجيش الصليبي، بل وقُتِلَ في المعركة أمير أنطاكية روجر!

- وكان نور الدين زنكي حريصاً كل الحرص على توحيد المسلمين تحت قيادة واحدة، فاستطاع أن يُوحِّد مدناً إسلاميةً كثيرةً لطالما ألمَّ بها داء التشتت والتفرق بين بعضها البعض، مثل دمشق وحلب والرها وغيرها.. ثم انتقل إلى ضم الديار المصرية وتوحيدها مع الديار الشامية، فاستطاع أن يقضي على العبيديين الشيعة قبل النجاح في ضم مصر، فكانت هذه الخطوة النورية سبباً كبيراً في نجاح حملات صلاح الدين بعده ضد الصليبيين والتي توّجَت بفتح بيت المقدس!.. فيا ليت شعري أنَّى لصلاح الدين فتح بيت المقدس لو لم تكن المدن الإسلامية من ورائه موحدة مجتمعةً تحت رايةٍ واحدة!!

- ونقفز عقوداً من الزمان إلى الأمام لنصل إلى أخبار التتار بقيادة المجرم جنكيزخان، فإنهم لمَّا توغلوا داخل الملكة الإسلامية الخوارزمية بعد طول قتلٍ وتخريبٍ وتدمير أدرك جلال الدين بن محمد بن خوارزم شاه (و هو ابن مؤسس الدولة) أنَّه لا سبيل للنصر على هؤلاء الوحوش سوى الاتحاد والاجتماع مع من تفرَّق

عنهم في الماضي القريب، فانضم إليه جيش أحد ملوك الأتراك المسلمين واسمه سيف الدين بغراق، كما انضمَّ إليه عددٌ كبير من الجنود الخوارزمية الذين تشتتوا داخل المملكة، وانضم إليه أيضاً جيش ملك خان أمير مدينة هراة (وكان التتار قد اجتاحوها وخربُّوا ودمروا فيها كثيراً)، وهكذا تجمعت هذه الجيوش المسلمة وخاضت معركةً شرسةً ضد التتار سنة (617هـ)، وما هي إلا ثلاثة أيامٍ حتى انتصر الجيش الإسلامي المتحد على جحافل التتار انتصاراً مؤزَّراً، وبدأت أسطورة «التتار قومٌ لا يُهزَمون» بالانقشاع شيئاً فشيئاً!.. ثم ها هو الاتِّحاد يُثمر نصراً آخراً في موقعة كابول ضد التتار مرةً أخرى في نفس السنة، ليتلقى بذلك جنكيزخان صدمتين قويتين جعلتاه يُعيد ترتيب أوراقه من جديد، فيما ارتفعت معنويات المسلمين ارتفاعاً كبيراً بعد هذين الانتصارين اللذين لم يتحققا إلا بفضل الوحدة والاجتماع!

- وقبل موقعة عين جالوت سنة (658هـ) حرص البطل المظفر سيف الدين قطز على تحيد الصفوف قبل الاصطدام المرتقب مع التتار، فعمل رحمه الله جاهداً على الوحدة مع بعض أمراء الشام، وعلى رأسهم أمير حلب الناصر يوسف الأيوبي الذي خذل قطز وآثر التفرق على الوحدة، ولكن سرعان ما دارت الأيام ووجد الناصر يوسف نفسه وحيداً بعدما انضم جيشه الحلبي إلى الجيش المصري، ولم يطل الوقت حتى هلك ذليلاً على يد بعض التتار!.. وإضافةً إلى ذلك فقد انضمَّ الأمير المنصور زعيم حماة بجيشه إلى جيش قطز.. دون أن ننسى إقدام هذا الأخير على توحيد الصف مع المماليك البحرية الفارين وطي كافة الخلافات السابقة، ويكفي أهميةً لهذه الخطوة أنَّ القائد الكبير ركن الدين بيبرس كان واحداً من أولئك المماليك البحرية!.. فكانت الوحدة التي عمل عليها قطز أثرٌ بالغٌ ولا ريب في انتصار عين جالوت الخالد.

- وفي زمننا المعاصر ها هي الأمة قد رأت ثمرات الاتحاد بعد موقعة العاشر من رمضان (1393هـ) والتي اتَّحدت فيها بعض الجيوش العربية المسلمة ضد العدو الصهيوني، وراحت الدول الإسلامية تبعث بالعتاد والأسلحة والجنود لمساندة تلك

الجيوش، وكذلك المعونات المالية والاقتصادية الكبيرة، فحققَّ المسلمون انتصاراً باهراً، وعبروا قناة السويس بعدما حطَّموا أسطورتي «خط بارليف الحصين» و»الجيش الإسرائيلي الذي لا يُقهر»!!

وبعد؛ فإنَّ ما ذكرناه من مشاهد الوحدة والاجتماع بين المسلمين عبر التاريخ منه الذي كان في سبيل الله وابتغاء وجهه الكريم، ومنه الذي كان في سبيل بقاء العروش، أو الحفاظ على الحدود الجغرافية، أو تحقيق المكاسب السياسية، ورغم أنَّ كلَّ هذه الغايات من الوحدة (باستثناء ما كان في سبيل الله) لا تؤدي إلى استمرار النصر ودوامه، بيد أنَّه لا مناص من تحقيقه حتى ولو لم يدم ويستمر، ويؤكد ذلك القاعدة النبوية الأصيلة «يَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ»[1].

(1) صحيح: سنن الترمذي (2166). واعلم عزيزي القارئ أنَّ أمر الاتحاد والاجتماع لا يقف عند الجهاد والقتال فقط، وإنما قد يتعدى ذلك ليشمل كثيراً من الجوانب الأخرى، مثل الجانبين العلمي والاقتصادي.

أسود الشيشان

«إنَّ الشعب الشيشاني لو خُير بين الموت والبقاء تحت الاحتلال الروسي لفضَّل الموت على أن يستعبده الروس!»

(الرئيس الشيشاني جوهر دودايف)

يُطلَق لفظ بلاد القوقاز (القفقاس، القفجاق) على المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القوقاز الشمالي؛ ويضم الشيشان والأنجوش وأوسيتيا، وهذه المنطقة مواجهة تماماً لبلاد الروس القياصرة..

القوقاز الأوسط؛ الذي هو جمهورية جورجيا الآن، وكانت تُعرف قديماً عند المسلمين بـ(الكرج)..

القوقاز الجنوبي؛ الذي فيه دولتا أذربيجان وأرمينيا اليوم..

ومنطقة القوقاز ككل غزاها المسلمون الأوائل وثبتوا في جنوبه وفي مناطق شمال غربه، ولكن لوعورة المنطقة ولكثرة طوائف وأديان ومذاهب أهلها لم يستطِع المسلمون أن يتحركوا شمالاً، وغاية ما فعلوه أنَّ سراقة بن عمرو الذي كان في زمن الخليفة الأموي مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية استطاع دخول تفليس (تبليس) عاصمة جورجيا اليوم [1].

وحديثنا الآن سيتناول جزءً فقط من منطقة القوقاز الكلية، ألا وهو بلاد

(1) انظر: عظماء منسيون، د/محمد موسى الشريف (1/43-44).

الشيشان التي تقع في الشمال القوقازي.. ففي هذه البقعة المسلمة كتب المجاهدون الأسود قصةً عظيمة في الدفاع عن الدين والعرض والأرض والشرف بحروفٍ من الدماء الزكية!.. مما دفع بأحد القادة العسكريين الروس للتصريح بأنَّ «الحَرْبَ فِي أفْغَانِسْتَانَ تُعْتَبر نُزْهَةً مُقَارَنَةً بما يُلاقِيهِ الرُّوسُ في الشِّيشَانِ»!!.

***

والقصة تبدأ في زمن ضعف الخلافة العثمانية وبالتحديد في سنوات العشرينات من القرن الثامن عشر للميلاد أين بدأ الروس القياصرة في في التهام الأراضي الإسلامية العثمانية، وكان من بينها أراضي القوقاز، وخاصة بعد معاهدة كوتشك كاينارجي سنة (1188هـ/1774م) والتي كان من ضمن بنودها أن يدفع العثمانيون غرامات حرب لأول مرةٍ في تاريخهم مقدرةً بـ(15،000) كيس من الذهب للروس!!..

ولكن..

في طريق احتلالهم لأراضي القوقاز ها هم الروس يصدمون بالمجاهدين المسلمين في الشيشان وكأنهم الجبال الشامخات، فذاقوا منهم الويلات والمصائب على مدى عشرات السنين وصولاً إلى مقتل آخر المجاهدين البارزين ضد الروس عام (2005م) وهو أسطورة الكوماندوز الشيشاني شامل باسييف رحمة الله عليه..

وها هي ذي شذرات عطرة من جهاد بعض أولئك الأسود الشيشان:

- شامل الداغستاني: وهو مجاهدٌ وإمامٌ عظيمٌ نشأ نشأةَ الأبطال في صغره مع طلب العلم والدراسة، وقد كان لشامل صاحب يكبره بخمس سنوات يُسمَّى غازي محمد ملا، وكان رفيق دربه، فكانا يدرسان معًا على المشايخ، ويدوران على المساجد، وابتدآ الجهاد معًا، وكان لبدء الجهاد سبب مؤثر، وهو أن غازي ملا رأى النبي ﷺ في

المنام ثلاث مرات وهو يدعوه للجهاد ضد الروس، فقام غازي وتحدث إلى إخوانه الداغستانيين بذلك فأجابوه إلى رفع السلاح وبدء الجهاد ضد الروس المحتلين، ولكن بعد سنوات قليلةٍ سقط غازي الملا شهيداً بعد أن دلَّ عليه بعض الخونة للروس الذين حاصروه وقتلوه، في حين أنَّ شامل نجح في الفرار ونجا من تلك الخيانة الغادرة.. ورغم أنَّ المجاهد شامل ينتمي إلى داغستان إلى أنَّ بطولاته سطَّرها على أرض الشيشان التي قرَّر التوجه إليها، وبالتحديد إلى معقل حصين جبلي كان أهله أقوى إيمانًا من الداغستانيين وأوفى ذمة، وطبيعة الشعب الشيشاني الصعبة لا تسمح لهم بأن يرضخ بعضهم لبعض، فكانوا بحاجة لرجل غريب يُسلِّمون له قيادتهم، فكان هذا هو الإمام شامل الذي استطاع أن يصل إلى القسم الجبلي من الشيشان، وجمع حوله فلول أتباعه من الداغستانيين الذين انهزموا من الروس، وبايعه أمراء الشيشان وقبائلهم، وأعلنوه إمامًا عليهم له حق السمع والطاعة والجهاد معه في سبيل الله تعالى.. فلما سمع القيصر بهروب شامل وما صنعه في الشيشان، استشاط غضبًا وطلب من قائده حسم المعركة مع شامل، فأرسل الجيوش إلى الشيشان وعلى رأسها أعظم القادة وأكثرهم خبرة في الحروب مع الداغستانيين ومع نابليون، وقاومهم شامل ومن معه حتى اضطر القيصر لإرسال حملة عُرفت بحملة (دارجو) سنة (1258هـ/1842م)، ودارجو هي البلدة التي كان يتحصن فيها شامل وأمراؤه، وكان حولها غابات كثيفة جدًّا، وكان قائد الحملة يسمى (جراد)، لكنه لم يتمكن من الوصول إلى دارجو، حيث كمن له جيش شامل على أشجار البلوط الضخمة، فكان فوق كل شجرة 40 - 50 من العساكر، وكانوا يسكبون الزيت المغلي على الروس، ويرمونهم بالحراب والبنادق، فحصدوا كثيرا منهم، وفشلت الحملة وعادت أدراجها بعد خسائر ثقيلة!!.. وقد استمر المد والجزر بين شامل والروس سنوات طويلة، وقتل منهم جنودًا وقادة كثيرين، وهذا يعد عملاً رائعًا بالنسبة لقوة الشيشان الصغيرة أمام جحافل الروس، لكنه الإيمان الذي يصنع العجائب.

والواقع أنَّ قصة بطولات شامل ومعاركه مع الروس لكثيرة وطويلة، وقد أوردها الباحث التاريخي الدكتور (محمد موسى الشريف) حفظه الله في كتابه الماتع (عظماء منسيون) [1].

- جوهر دودايف: مع مطلع العام (1412هـ/1991م) حدث أن بدأ الاتحاد السوفييتي في التفكك، وأُعلِنَ انهياره رسمياً، فجعلت بعض الجمهوريات التي كانت تُشكِّلُ هذا الاتحاد تسعى إلى الاستقلال وبدأ زعماؤها وقادتها في التحرك للحصول عليه، وكان من بينها جمهورية الشيشان المسلمة التي أعلنت استقلالها عن الاتحاد فعلاً على لسان رئيسها البطل جوهر دودايف الذي اِنتُخب كرئيس لها بعد أن فاز في الانتخابات بنسبة (85%) من الأصوات!..و هنا بدأ الحق والبغض يملأ صدور الروس خصوصاً وأنَّ إعلان استقلالها سيشجع كثيرا باقي شعوب القوقاز وغيرها على الاستقلال، هذا فضلاً عن العداو ة التاريخية الكبيرة بين الروس وأهالي القوقاز.. فجرت معارك طاحنة ومواجهات ساخنة بين الطرفين كان للرئيس جوهر دودايف دورٌ كبير في إدارتها والإشراف عليها إلى أن استشهد رحمه الله تعالى في إحدى الهجمات الجوية الروسية (1416هـ/1996م)، فحزن عليه الشعب الشيشاني حزناً عظيماً، وكذلك المسلمون المتابعون لأخبار الشيشان آنذاك..

ولكن نسي الروس أنَّ أمة الإسلام أمة ولَّادةٌ ما تفقد أحد أبطالها إلَّا ويظهر مكانه من هو أعظم منه بطولةً وأشد تنكيلاً بالأعداء!..

- أصلان مسخادوف: وبعد العديد من المحاولات والعمليات الفاشلة للإطاحة بالعاصمة الشيشانية (غروزني) والتي-أي تلك المحاولات والعمليات- أشرف عليها الرئيس الروسي المجرم (بوريس يلتسن) شخصياً؛ تارةً بإمداد المعارضة هناك بالسلاح، وتارةً بالتدخل العسكري من قواته، أُجبر يلتسن في النهاية على الجلوس

(1) انظر: عظماء منسيون، (1/43-56).

والتوقيع على معاهدة سلام (محرم 1418هـ/مايو 1997م) مع الرئيس الشيشاني المجاهد الكبير (أصلان مسخادوف)، أين سيعترف يلتسن يعترف بموجبها باستقلال الشيشان وأنَّه لا يجوز استعمال السلاح ولا التهديد باستعماله لحل النزاع بينهما! وبتوقيع تلك تلمعاهدة تنتهي الحرب الشيشانية الأولى.. وعلى إثرها رصد جهاز الأمن الروسي مبلغاً باهظاً قدره 300 مليون روبل (حوالي 10 ملايين دولار) لاعتقال أو اغتيال المجاهد أصلان! فتوالت على هذا البطل عمليات الاغتيال دون أن تنجح واحدةٌ منها في التخلص منه، ولأنها ليست المرة الأولى التي يقتل فيها أحد قادة الجهاد في الشيشان، فإن عملية اغتيال مسخادوف ستبقى مسألة رمزية بالنسبة للمجاهدين، ومن غير المتوقع أن تؤثر سلباً على عزيمتهم في الجهاد، أو تحبط من معنوياتهم أو تفرقهم، كما تأمل موسكو، بل على العكس، قد تساهم عملية اغتياله في إثارة نفوس الكثيرين من محبي مسخادوف والموالين له، من بين المجاهدين وغيرهم!.. وفي الحرب الشيشانية الثانية خاض مسخادوف ما سُمِّي بحرب العصابات ضد القوات الروسية التي كان حينئذٍ رئيس الوزراء الروسي فلاديمير بوتين (الرئيس الحالي لروسيا) يرسْلها ويُعبِّؤها وقد ملأ صدره الحقد والبغض تجاه الشيشانيين ككل، وهو الذي رفض كل عروض أصلان مسخادوف للهدنة أو السلام، ولا زال رحمه الله يُذيق الروس الويلات والهزائم حتى كتب الله له الشهادة سنة (15هـ/2005م).

- شامل باسييف: هذا الأسد...عرفته الجبال الشيشانية مقاتلاً عنيدًا ضد الوجود الروسي الاحتلالي لبلاده الأبية، وعرفته وسائل الإعلام قائد فرق كوماندوز تثير الرعب بذكرها قبل أن تبلغ طلائعها الميادين.. قائدٌ شجاع يعترف له خصومه بالمهارة والفدائية، وإنْ وصموه بالإرهاب، زعيمٌ فريد يأخذ بألباب أعدائه كما أنصاره سواء بسواء، بكرّه وفرّه، واقتحامه المباغت وانسحابه الخاطف.

في قرية (فيدينو) جنوب شرق الشيشان ولِدَ بطلنا شامل سلمانوفيتش باسييف سنة (1384هـ/1965م)، وفيها قضى سنين طفولته، قبل أن ينتقل إلى العاصمة

الروسية موسكو التي تخرَّج فيها من معهد الهندسة أوائل التسعينيات، ولكن سرعان ما رجع باسييف إلى الشيشان بعد إعلان (الرئيس الشيشاني الراحل) الجنرال جوهر دودابيف عن استقلالها عن الجمهورية الروسية في أعقاب انفراط عقد الاتحاد السوفيتي عام (1412هـ/1991م).. وفي هذا التوقيت بدأ نجم باسييف رحمه الله يبزغ في سماء الشيشان كمقاتل شرسٍ ومدافع شكسٍ في أعين الروس حيث دوَّخ بعملياته الهجومية رفقة كتيبته قواتَهم مراراً رغم التفاوت الكبير في العتاد والأسلحة بين الطرفين، خاصةٌ وأنَّ له تجربةً وخبرةً كبيرتين في القتال وتنفيذ العمليات المسلحة في ولاية كاراباخ الأذرية (أي في أذربيجان) وفي أفغانستان وباكستان وأبخازيا، مما جعل باسييف مؤهلاً لكي يكون في طليعة القادة المجاهدين في الشيشان ضد الروس بعد عودته إليها.. ولكن بتاريخ (3 يونيو 1995م) تقوم طائرات جوية روسية بإلقاء قنبلتين على منزل عائلة شامل باسييف سقط على إثرها (12) فرداً منها قتيلاً من ضمنهم طفله وزوجته وشقيقته! مما جعل شامل يثكثف من عملياته ضد الروس، قبل أن يتم انتخابه عام (1996م) كقائدٍ عام للقوات الشيشانية المسلحة ضد الروس، ورغم فشل باساييف في هدفه الرئيسي بسحب القوات الروسية من الشيشان، إلا أنه نجح في إيقاف التقدم الروسي، وفرض الشروع في محادثات سلام مع الحكومة الروسية.. أما في الحرب الثانية بين الروس والشيشان والتي أشعلها الطرف الأول (و بتدبير من المجرم فلادمير بوتين) فنذكر فقط عرض القائد العام للقوات الروسية المسلحة في الشيشان مكافأةً قدرُها (مليون دولا) لمن يأتي برأس باسييف، وها أنت ذا عزيزي القارئ ترى كيف كان ينظر الروس للبطل باسييف ومن قبله أصلان مسخادوف وغيرهما من قادة المقاومة الشيشانية للدرجة التي جعلتهم يُخصصون تلك المبالغ الكبيرة من أجل التخلص منهم! فعلاً لقد كانوا أبطالاً ومجاهدين في وجه المحتل الروسي.. ورغم فقد باسييف لساقه إثر انفجار لغمٍ عليه بقي مقاوماً للعدو

شديد الوطأة عليه، إلى أن حلَّ تاريخ (10 يوليو 2006م) الذي شهد استشهاد باسييف رحمه الله تعالى.

ومن الجدير بالذكر أنَّ المجاهدين الشيشانيين ضد الوجود الروسي في بلادهم لم يكونوا وحدهم إبان تلك الفترة الصعبة، حيث انضم إليهم بعض المجاهدين العرب ممن كانوا يُجاهدون في أفغانستان، ومن أبرزهم على الإطلاق الأسد المجاهد سيف الإسلام خطاب (سامر السويلم) الذي أذاق هو الآخر القواتَ الروسية الهزام والويلات سواءً في أفغانستان أو في الشيشان رفقة باسييف.

ولئن رأى الروس الملاحدة اليوم أنَّهم استطاعوا القضاء على المقاومة الشيشانية والسيطرة على هذا البلد المسلم بتعيينهم (رمضان قديروف) التابع لهم والمُنفِّذِ لأمرهم رئيساً لها، فإنَّ جهاد الشيشانيين لنيل الاستقلال باقٍ ولن يزول ما بقي الدهر.. يحميه إيمان شعب، وإرادة شجعان القوقاز النبلاء الذين علموا على وجه اليقين أنَّ الذي أُخِذَ بالقوة لا يُسترجع إلا بالقوة!.

نصر رمضان 1393

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ ﴾
(الروم:4)

لم يُصدِّق الكثير من الناس وهم يسمعون نبأ هزيمة جيش إخوان القردة والخنازير في معركة العاشر من رمضان (1393هـ) أمام كتائب المسلمين.. وكان حال لسانهم يقول: أحقاً هذا هو الجيش الإسرائيلي(الصهيوني) الذي لطالما صدَّره إعلامُهُ للعالم على أنه جيشٌ لا يُقهر؟!.. هل هذه هي الاستخبارات الإسرائيلية (الصهيونية) التي ادَّعت أبواقها أنَّها الأقوى على وجه المعمورة؟!

نعم! لقد كانت دولة الصهاينة المزعومة وجيشها واستخباراتها وإعلامها وكلَّ شيءٍ يدور في فلكها، كمثل البالونة المملوءة بالهواء، فما هو إلا أن أتتها وخزة إسلامية حادة وصادقة فإذا هي تتخبط يميناً وشمالاً حتى انعدم الهواء فيها وصارت كالهباء المنثور!!

كانت نكسة (1387هـ/1967م) قاسيةً على قلوب المسلمين قاطبةً، وكان على رأس أسبابها ضعف الإيمان-إن لم نقل انعدامه بين القادة والجنود، وغياب الرغبة الصادقة منهم في جهاد العدو الصهيوني، والتقصير الفادح في الإعداد والتسليح والتدريب والتخطيط، والاختلاف بين القادة والحكام..

أما نصر العاشر من رمضان فقد غابت فيه تلك الأسباب تماماً، وبالتالي جاءت النتائج معاكسة..

لقد كان المسلمون -شعوباً وقادةً وجنوداً- في هذه الموقعة في المستوى الذي يتطلبه الجهاد في سبيل الله ومحاربة أعداء الإسلام واسترداد ما سلبوه من أراضٍ إسلاميةٍ.. وبعدها نزول النصر الإلهي.

فأمَّا الإيمان بالنصر فقد كان طاغياً في نفوس القادة العسكرين والمجاهدين الذين كانوا يُعِدُّون للمعركة كما يتطلبه الإعداد، ويُخطِّطون ببراعة كما يجب أن يكون التخطيط، وأخذوا بأسباب النصر أجمل مأخذ، ومن ثم كانوا متيقنين بنزول نصر الله الموعود، ويكفي دلالةً على ذلك أنَّ أحد أبطال الموقعة وهو الفريق عبد المنعم رياض صرَّح قائلاً: «إذا وفَّرنا للمعركة القدرات القتالية المناسبة، وأتحنا لها الوقت الكافي للإعداد والتجهيز، وهيأنا لها الظروف المواتية فليس ثمة شكٌّ في النصر الذي وعدنا الله به!».. وكفى بمن كان بهذا التفكير من قادتنا المسلمين أن يُحقِّق النصر على العدو!.

وأما الإعداد المطلوب والأخذ بالأسباب المادية فقد تجسَّد في أرض الميدان انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴿٦٠﴾﴾[الأنفال:60].. «فقد كان هناك اهتمامٌ مستمرٌ بالتدريب البدني والعسكري؛ فتم التدريب على اقتحام الساتر الترابي، وخط بارليف، كما تم الاهتمام بتطوير قدرات المقاتل، واهتمَّت القيادة بتطوير الأسلحة القديمة، وحاولت جلب كل ما تستطيعه من الطرز الحديثة منها» [1].. ناهيك عن المجهودات المتواصلة التي قام بها الفريق سعد الدين الشاذلي لاستقدام ما أمكن من الأسلحة والذخائر من الدول العربية عبر زياراته إليها كما هو مبسوط في مذكراته..

(1) بين التاريخ والواقع (103/1).

وأما وحدة الصف فإنَّ تقديم الدول العربية للمساعدات العسكرية والاقتصادية والمالية لدول الجبهات القتالية قبل الموقعة لهو من أكبر الأدلة على ذلك، وقد ذكر مختلف تلك المساعدات الفريق الشاذلي في مذكراته.. كما كان المسلمون في الشرق والغرب يتابعون الأحداث الساخنة عن كثب، وفي قلوب الكثير من بسطائهم و(دراويشهم) الشوق الكبير للحضور في الميدان، ولكن يكفي أنَّ أيديهم كانت منصوبة نحو السماء تسأل الله تعالى النصر للمسلمين والتمزيق لليهود، وبمثل هؤلاء نُصرت الجيوش المسلمة عبر التاريخ.. وكانت هناك ثلوج كثيفة تُغطي العلاقات الأخوية بين بعض الحكومات العربية المسلمة ورؤوسها، أما وقد صار الأمر جاداً وخطيراً، وصار مسألة انتقامٍ محتومٍ من اليهود ورغبةً صادقةً لتحطيم غرورهم فقد آن لتلك الثلوج أن تذوب وتُنسف.. كل ذلك من دون أن ننسى الموقف الشامخ الذي وقفه الملك فيصل رحمة الله عليه وحكام الدول العربية المنتجة للبترول بوقف تصديره للدول الداعمة والمؤيدة للكيان الصهيوني، وهذا هو عين الوحدة ولا ريب!

وبهذه العناصر المذكورة وغيرها حقَّق المسلمون على الصهاينة نصراً مؤزَّراً، وإنَّه من الأحرى ألا نعجبَ ويعجبَ العالمُ من ذلك الانتصار على الصهاينة، ولكن العجب من الهزيمة (النكسة) عام (1967م)، فالعجب-كما يقول الشيخ الطنطاوي- مما يأتي من غير أهله!.. العجب أن يظفر اليهود الذين ضُرِبت عليهم الذِّلة والمسكنة. لا أن يظفر أبناءُ من فتحوا الشرق والغرب، وكانوا سادة الدنيا وأساتذتها يوماً ما!!

وكلمةٌ مني إلى الذين يقولون (نصر أكتوبر)..

أما آن لكم أن تُسمُّوا الأسماء بمسمياتها، فتقولوا (نصر رمضان) بدلاً من (نصر أكتوبر)؟!..

فلماذا لا نجعل نحنُ -كمسلمين- نصرنا على اليهود مقترناً بالشهر المبارك الذي نصر الله فيه عباده المؤمنين في طريقهم للعز والتمكين في عشرات المعارك عبر التاريخ؟! أم أنكم نسيتم بدراً وفتحَ مكةَ ووادي برباط وعين جالوت وغيرها؟!

إنَّ حروبنا في رمضان ليست كغيرها في غيره.. ففيه تكون الأمة في أوج درجات الإيمان والتقوى والقرب من الله تعالى، وإذا كان الأمر كذلك فما الذي نتوقعه من أنفسنا ونحن نصطف أمام عدونا الكافر وننتظر صراعاً عنيفاً تُدقُّ فيه الرقاب وتفيض فيه الأرواح، وبعدها إما نصرٌ لنا وإما نصرٌ علينا؟! لا شيء سوى التفكير في نصر الله وسؤاله تعالى إياه، ونحن صائمون مجاهدون، متكلين عليه وطائعين له، بصيامنا أولاً، ثم بجهادنا!

بل كيف لا تكون حروبنا في رمضان فريدةً عن غيرها وهي تُخاض في الشهر الذي تُفتح فيه أبواب الجنان وتُغلق فيه أبواب جهنم، فيكون المجاهدون على موعدٍ مع الشهادة التي يسلك بها طريقه إلى جنة الرحمن؟!.. وإذا كانت الشهادة في ذاتها هي أسمى أماني المؤمنين وسقف طموحات الأبطال المجاهدين، فما بالك أن تكون هذه الشهادة في الشهر الفضيل، شهر الرحمة والتوبة والغفران، شهر رمضان!

وبعد..

يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله: «إنَّ الذي صنعناه في رمضان شيءٌ عجيب.. تصوروا لو أنَّ تلاً من الرمال غير ممهد علوُه عشرون متراً كُلِّفت صعوده لتعبت.. فكيف إن كان حولك من يقذفك بالحجارة ليمنعك من صعوده.. فكيف إن كان هذا الرمل يُغطي حصوناً من يابس الصخر ومتين الأبرق (أي الإسمنت المسلح)، فيها المدافع والدبابات وأقوى المتفجرات، فكيف اقتحمها جنود مصر؟!.. أقوى وأحدث خط دفاع، كلَّف (283) مليون دولار اجتازوه بأقدم وأضعف وسيلة هجوم، بسلَّمٍ من خشب ثمنه ثلاث دولارات كيف تمت هذه الأعجوبة؟!.. بالإيمان ومعه ما يستلزمه الإيمان ويطلبه العقل والدين من الخطط والسلاح والكتمان، كل هذا لا بدَّ منه، ولكن كل هذا كأعضاء الجسد والإيمان والروح.. وأحسب أنَّ نزول المصريين

يوم 6 تشرين الأول 1973م على ضفة القناة الأخرى سيدخل في تاريخ الفن العسكري الذي يُدرَّس فيالكلية الحربية!» [1].

ويُعلِّقُ الشيخ المؤرخ محمد موسى الشريف على المعركة قائلاً: «ليس هناك حدث -فيما أُقدر- في الأربعين سنة الأخيرة أشد تأثيراً ولا أعظم أثراً ونتائج من حرب العاشر من رمضان.. وكانت نتيجة المعركة الجليلة أن اليهود كانوا يهربون كالفئران، وهُزِموا لأول مرة من جيش نظامي عربي ولم يكونوا يعهدون الهزيمة قبل ذلك، ولو كنا أهلاً لأكمل الله لنا النصر إلى القدس لكن هيهات، فقد أقبلنا على الله شيئاً من الإقبال فرزقنا الله بعض النصر، لكن كيف ننتصر كل النصر وعواصمنا ملأى بالخمر والميسر والزنا والربا، إنما أراد الله تعالى شيئاً فيسره لنا لما عدنا إلى رشدنا شيئاً ما، ورجعنا إلى ديننا بعض الرجوع».

ويردف الشيخ قائلاً: « وبعد الحرب الرمضانية والمنحة الربانية عاد الحجاب للظهور في القاهرة والإسكندرية وبغداد ودمشق وكثير من عواصم الإسلام بعد غياب طويل وتفسخ معيب، وعاد الناس إلى الصلاة والصيام والحج، وامتلأت المساجد بالشباب بعد هجران طويل، وظهر في الأرض الاقتصاد الإسلامي بإنشاء أول مصرف إسلامي في العالم مصرف فيصل في دبي سنة 1975/1395، وأنشئ البنك الإسلامي للتنمية، وأنشئ بيت التمويل الكويتي بعد ممانعة ناصرية طويلة، وتوالت المصارف واحدة بعد الأخرى لتمتلئ الأرض بهذه المصارف وبهذا الاقتصاد الإسلامي الذي سماه الإعلام الناصري الخبيث في الثمانينات الهجرية/الستينات الميلادية خرافةً!! وظهر في الأرض الإعلام الإسلامي من برامج ونشيد وقنوات، وكنا قبل ذلك نفرح ببرنامج فريد أسبوعيّ يطل علينا من بين الركام الفاسد والروائح المنتنة!! وظهرت في الأرض المؤسسات الإسلامية المتنوعة ولله الحمد والمنة وهي اليوم تعد بعشرات الآلاف،

(1) قصتنا مع اليهود، ص 15-16.

والأهم من ذلك كله أن الجهاد عاد من جديد ليملأ سمع الناس وأبصارهم بعد غياب أو تغييب طويل» [1].

فرحمة الله على أبطال حرب رمضان وأسكنهم فسيح جنانه.. ونسأله تعالى أن يُمِدَّ في أعمارنا لنشهد يوماً من أيامه الخالدة ضد إخوان القردة والخنازير كيوم العاشر من رمضان (1393هـ)..

(1) مقالة بعنوان: معركة العاشر من رمضان، نُشرت بتاريخ 2017/01/29 على موقع (مؤسسة حديث الإسلام).. الرابط:

https://islamtalk.ly/istcontent/%D9%85%D8%B9%D8%B1%D9%83%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D8%B4%D8%B1-%D9%85%D9%86-%D8%B1%D9%85%D8%B6%D8%A7%D9%86-6-%D8%A3%D9%83%D8%AA%D9%88%D8%A8%D8%B1/

الأمير عبد القادر والفتنة الطائفية

(و في الشام كان الأمير الذي سبقته سمعته إلى المشرق كمجاهد و بطل إسلامي محل احترام و تقدير من أهل البلاد الذين التفوا حوله)..

شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله.

عقب مسيرةٍ جهاديةٍ طويلةٍ وحافلة ضد فرنسا الصليبية ها هو الأمير الجزائري البطل عبد القادر بن محيي الدين الحسني يُنفى من بلاده إلى طولون، ومنها إلى أنيواز، قبل أن يستقر في دمشق ببلاد الشام عام (1856م)..

ولكن في الوقت الذي أتى فيه الأمير إلى دمشق كانت الأوضاع مضطربةً وغير مستقرة ببلاد الشام عموماً بين مختلف الطوائف الدينية، مثل الدروز والموارنة والكاثوليك والأرثوذكس، ثم اشتعل-فجأةً- أُوار الفتنة بين بعض تلك الطوائف سنة (1860م) وانفجرت الأحداث لتُعلن عن فوضى عارمة وحملات تخريبية وإجرامية غير مسبوقة امتدت بين مدنٍ كثيرة، وكان سببها الدروز الذين اجتاحوا منطقة دير القمر واعتدوا فيها على الموارنة وارتكبوا أبشع المنكرات فيهم..

هذا في الوقت الذي كانت فيه كل طائفةٍ من طوائف الشام تنال الدعم المادي من الدولة الأوروبية التي ترعاها وتحميها؛ ففرنسا هي حامية حمى النصارى الكاثوليك والموارنة، وإنكلترا كانت تساعد الدروز وتُمدُّها بالسلاح، فيما أخذت روسيا على عاتقها رعاية مصالح النصارى الأرثوذكس..

ولك أن تتخيل عزيزي القارئ حجم الكارثة الطائفية تلك في ظل انعدام وجود دولة راشدة تسعى لإنهائها وتهدئة الأوضاع بين أطرافها!.. وإذا كنت تسأل عن الدولة العثمانية فإنها كانت يومئذٍ ضعيفةٍ جداً، وتزداد ضعفاً يوماً بعد يوم، خاصةً وأنَّ سلطانها في ذلك الوقت هو عبد المجيد الأول الذي رغم صلاحه وذكائه إلا أنَّه كان مُحاطاً ببطانةٍ فاسدةٍ يتقدمها رجل اسمه مصطفى رشيد باشا الذي كان مولعاً بالغرب، إضافةً إلى ذلك فإنَّ بعض الدول الأوروبية -و في مقدمتها فرنسا- أجبرت العثمانيين على السماح لها بالتدخل بحجة أنَّ العثمانيين لا يستطيعون السيطرة على الوضع!!.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولكن..

بينما الفتنة تزحف من مدينة إلى أخرى وتدمّرُ الأخضر واليابس في طريقها إذ بها تصل إلى محطتها الأخيرة دمشق التي حلَّ بها الأمير عبد القادر حديثاً، وذلك بعد أن زحف معها الآلاف من النصارى الذين فرُّوا إلى دمشق خوفاً من بطش الدروز، فدُهِشَ هؤلاء دُهِشوا من هول المنظر الذي وقفوا عليه في المدينة..

فلقد وجد أولئك النصارى الأمير عبد القادر الجزائري (المسلم) في استقبالهم من أجل إيوائهم وحمايتهم!!..

بل وفعل الأمير أكثر من ذلك وراح يُصدر أوامره الفورية لحراسة أبنية السفارات الأجنبية في دمشق ونقل البعثات والدبلوماسيين إلى دورالأمير في حيّ العمارة الذي يسكن فيه، وأشرف بنفسه على عمليات الإنقاذ وإخماد الحرائق التي بدأت تشتعل في بعض المنازل، وكان جنود الأمير يقتحمون النيران لإنقاذ السكان ونقل الأمهات النصارى وأطفالهن إلى الأديرة، وكان الأمير يتجول بنفسه بين الأحياء ويُصدر أوامره المناسبة غير مبالٍ برصاص القناصة والطلقات النارية الطائشة وهو على ظهر فرسه..

فكم يا ترى بلغ عدد النصارى الذين آواهم الأمير الجزائري في دوره بحي العمارة؟!

لقد بلغ عددهم خمسة عشرة ألفاً (15،000) بين رجل وامرأة وطفل!!

كلُّ ذلك رغم ما يفعله النصارى الفرنسيون بشعب الأمير في الجزائر من قتلٍ وذبحٍ وإبادة طيلة سنوات وما زالوا إلى ذلك الحين يفعلون، ولكن تأبى الأنفس الكريمة أن تتعامل بالمثل مع الأنفس الدنيئة!

وبهذا التصرف النبيل من الأمير عبد القادر انتهت الفتنة الطائفية ووضعت أوزارها، ووقف العالم مذهولاً مدهوشاً أمام ما قام به الأمير، وراح الملوك والحكام يبعثون إليه برسائل التقدير والشكر والعرفان، ونال منهم أرفع الأوسمة، ومنهم الخليفة العثماني، وملكة بريطانيا، وإمبراطور فرنسا، وملوك إيطاليا واليونان وبروسيا، وكذلك قيصر الروس وغيرهم.. ولا ننسى رسالة الإمام المجاهد العملاق شامل الداغستاني رحمه الله التي أعرب فيها عن إعجابه الشديد بالأمير، فردَّ عليه هذا الأخير برسالةٍ تقطر محبةً وأخوةً في الدين بين المجاهِدَيْن الكبيرين [1]، كل ذلك رغم أنَّهما لم يلتقيا مع بعضهما، ولكن يكفي التقاء روحيهما النَّقيتين!

فرحم الله مجاهد الجزائر وفارس الإسلام الأمير عبد القادر رحمةً واسعة..

(1) انظر: فارس الجزائر الأمير عبد القادر، فارس طلاس، ص 321-324.

خيبة صهيوني

«كان السلطان عبد الحميد العائق الأقوى أمام مخططات حكماء صهيون، فعملوا على ترغيبه بالمال فلم يستطيعوا، وكان يتخذ التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي إلى اليهود في فلسطين، ولم يُعطِ اليهودَ أي امتيازٍ من شأنه أن يؤدي إلى تغلب اليهود على أراضي فلسطين»

(علي الصلابي)

إلى كل مطبِّعٍ مع الصهاينة وخائنٍ للفلسطينيين.. أهدي هذه السطور التي تروي قصة الخليفة العثماني الغيُّور عبد الحميد الثاني مع الصهيوني هرتزل الذي خاب ظنُّه وتبخرت مساعيه لإقناع الخليفة بالتخلي عن فلسطين.

ولكن قبل أن نعرف بعض تفاصيل وحقائق تلك القصة المهمة أرى أن نتعرَّف -في سطور قليلة- على هوية هرتزل وشخصيته..

فمن يكون هرتزل؟..

هو زعيم الحركة الصهيونية العالمية، والأب الفعلي لإسرائيل المزعومة كما يصفه الصهاينة اليوم، صحفي وكاتب مسرحي، وناشط سياسي، وُلِد عام (1276هـ/1860م) بالنمسا، اشتُهِر بتشدُّده وتعصُّبه لدينه اليهودي ولقومه، كما عُرِف عنه سعيه الدؤوب ونشاطاته المستمرة في أوربا من أجل الترويج لمشروع إقامة وطنٍ قوميٍّ

لليهود من كل أنحاء العالم، مع العلم بأنَّ فكرة المشروع ليست فكرته في الأصل، بل كان هناك قبله البارون اليهودي «موريس دي هيرش « (توفي سنة 1313هـ/1896م) الذي أوصى-بعد موته- بمائتين وخمسين مليون فرنك من أجل إقامة وطن لليهود، ولكن هيرش كان قد تصوَّر الأرجنتين مكاناً لذلك الوطن؛ لأنَّها كانت تقبل المهاجرين من كل أنحاء العالم [1]. أمَّا المتطرف الصهيوني هرتزل فقد كان له تدخُّله الذي أدار بوصلة الأطماع الصهيونية صوب أرض فلسطين المباركة، فراح جاهداً يجمع تأييدات ومصادقات الدول الأوربية (خاصةً دول ألمانيا، فرنسا، بريطانيا) للضغط على الدولة العثمانية المتمثلة في سلطانها البطل عبد الحميد الثاني..

فالطلب: إقامة وطن لليهود في فلسطين..

أمَّا المقابل الذي أراد هرتزل منحه لعبد الحميد فهو المال؛ لأنَّ الدولة العثمانية يومئذٍ كانت تعاني أزمةً اقتصاديةً على درجة كبيرة من السوء..

وكانت تلك الثغرة (أي الأزمة الاقتصادية) هي السبيل الوحيد أمام هرتزل الذي صرَّح قائلاً: «علينا أن ننفق عشرين مليون ليرة تركية لإصلاح الأوضاع المالية في تركيا، مليونان منها ثمناً لفلسطين، والباقي لتحرير تركيا العثمانية بتسديد ديونها تمهيداً للتخلص من البعثة الأوروبية، ومن ثم نقوم بتمويل السلطان بعد ذلك بأي قروض جديدة يطلبها» [2].

فكيف كان ردُّ السلطان عبد الحميد يا ترى؟!..

لقد بعث السلطان برسالةٍ تقطر نخوةً وشهامةً إلى هرتزل بواسطة صديقه (نيولنسكي) قائلاً فيها:

---

(1) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، د/محمد حرب، ص 86.

(2) اليهود والدولة العثمانية، أحمد نوري النعيمي، نقلاً عن: الدولة العثمانية، د/علي الصلابي، ص 445. والبعثة الأوروبية التي أشار إليها هرتزل هي البعثة المالية الأوروبية في الدولة العثمانية للإشراف على أوضاعها ضماناً لديونها.

«انصح صديقك هرتزل أن لا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع، لأني لا أستطيع أن أتنازل عن شبر واحدٍ من الأراضي المقدسة، لأنها ليست ملكي، بل هي ملك شعبي. وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض، ورووها بدمائهم؛ فليحتفظ اليهود بملاييهم، إذا مُزِّقت دولتي، من الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً في جثتنا، ولكن لا أوافق على تشريح جثتي وأنا على قيد الحياة!» [1].

فأعظِم به من ثبات!.. وأروِع به من موقف!..

وبعد هذا الرد سعى هرتزل جاهدًا لنيل ما أراده من عبد الحميد بشتى السبل؛ تارةً بالمال، وتارةً بالصحافة (وكان اليهود يسيطرون عليها وعلى العلاقات التجارية في أوروبا)، وتارةً بتوحيد وتجميع أعداء السلطان عبد الحميد الثاني ضده، وتارةً غيرها... ولكنها فشلت كلها في ظل وجود سلطان عثماني غيُّور اسمه عبد الحميد الثاني!!..

وبعد محاولات عديدة للقاء السلطان عبد الحميد شخصياً.. أفلح هرتزل الصهيوني في ذلك أخيراً بعد سنتين من الاحتكاك المباشر مع الموظفين الكبار في قصر يلدز، وكان السلطان عبد الحميد في خلال مقابلته مع هرتزل مستمعاً أكثر منه متكلماً، وكان يرخي لهرتزل في الكلام كي يدفعه أن يتحدث بكل ما يخطر في مخيلته من أفكار ومشروعات ومطالب. وقد أدى هذا الأمر إلى أن يعتقد هرتزل بأنه نجح في مهمته هذه. ولكنه أدرك في نهاية الأمر بأنه أخفق مع عبد الحميد، وأنه أخذ يسير في طريق مسدود معه..

(1) اليهود والدولة العثمانية، أحمد نوري النعيمي، نقلاً عن: الدولة العثمانية، علي الصلابي، ص 445-446.

لقد كان غرض السلطان عبد الحميد في استماعه إلى تيودور هرتزل معرفة الآتي:

- حقيقة الخطط اليهودية.
- معرفة قوة اليهود العالمية ومدى قوتها.
- إنقاذ الدولة العثمانية من مخاطر اليهود.

واتخذ السلطان عبد الحميد كل التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي إلى اليهود في فلسطين، وفي سبيل ذلك عمل جاهداً على عدم إعطاء امتيازٍ لليهود من شأنه أن يؤدي إلى تغلب اليهود على أرض فلسطين [1].

وفي الأخير مات البطل عبد الحميد الثاني دون أن يبيع شبراً واحداً من أرض فلسطين رغم الإغراء المستمر، فخلَّده التاريخ الصادق بحروف من ذهب، وعَظُمَ شأنه في قلوب ونفوس المسلمين من بعده ورفعه الله تعالى..

ومات الصهيوني هرتزل بعد أن خاب وخاب وخاب أمام عبد الحميد، وقال عنه: «إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين، وإنَّ اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة مادام السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم، مستمراً فيه!»..

ولكن...

قد بقيت فكرة مشروع هرتزل الصهيوني ولم تمت، فاغتُصِبت أرض فلسطين بعد أن انهارت الدولة العثمانية بعد أن تسللت الفرقة والشقاق والتخاذل بين الصف الإسلامي عامةً، والعربي خاصةً.. ثم أعلن اليهود قيام دولتهم المزعومة عام (1948م)، ثم راحوا يبتلعون الأراضي ويبنون المستوطنات تلو المستوطنات تدريجياً وإلى اليوم، ولا يكاد يمر يومٌ إلَّا وقد نقص من أرض المسلمين في فلسطين وأُضيف لما

(1) انظر: الدولة العثمانية، علي الصلابي، ص 447- 448،449،450.

احتله اليهود.. حتى إذا ما احتلوا كامل فلسطين انتقلوا لإكمال مخططهم الأكبر والغاشم، وهو (إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل)!!..

ولكن...

قبل ذلك حتماً ستدور الدائرة وتنقلب الموازين رأساً على عقب، فيصير ضعف المسلمين قوةً، وفرقتهم اتحاداً.. ويسقط الخونة كما تسقط أوراق الشجر اليابسة في الخريف.. وتُصبح قوة اليهود ومن يدعمهم ضعفاً وذُلًّا..

فنسترد فلسطيننا ونصلي في أقصانا.. فإنَّهم- والذي لا إله إلا هو- ما غلبونا بقوتهم، ولكن بضعفنا نحن وتفرقنا وانقسامنا!..

والله غالبٌ على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون!

مشاهد من القرن 14

- نصر أنوال:

كان الأمير المجاهد البطل عبد الكريم الخطابي في التاسعة والثلاثين حين تولَّى مقاليد الزعامة في منطقة الريف المغربية، وقد حَنَّكَتْهُ التجارِب وأصقلته الأيام، ووَحَّد هدفه واستوضحه، فاستكمل ما كان أبوه قد عزم عليه من مواصلة الجهاد، وإخراج الإسبان من البلاد..

وفي تلك الأثناء كان الجنرال (مانويل فرناندیز سلفستر) قائد قطاع مليلة يزحف نحو بلاد الريف؛ لِيُحْكِمَ السيطرة عليها، ونجح في بادئ الأمر في الاستيلاء على بعض المناطق، وحاول الأمير عبد الكريم الخطابي أن يُحَذِّرَ الجنرال سلفستر من مغبَّة الاستمرار في التقدُّم والدخول في مناطق لا تعترف بالحماية الإسبانية الأجنبية، لكنَّ الجنرال المغرور لم يأبه لكلام الأمير، واستمرَّ في التقدُّم ممنيا نفسه باحتلال بلاد الريف..

ويا ليته لم يتقدَّم خطوةً واحدة!

كانت قوَّات الجنرال الإسباني تتألَّف من أربعة وعشرين ألف جندي؛ مُجَهَّزين بالأسلحة والمدفعية، ولم تُصادف هذه القوَّات في زحفها في بلاد الريف أيَّ مقاومة، واعتقد الجنرال أن الأمر سهلًا، وأعماه غرورُه عن رجال عبد الكريم الخطابي الذين يعملون على استدراج قوَّاته داخل المناطق الجبلية المرتفعة، واستمرَّت القوات الإسبانية في التقدُّم وتحقيق انتصارات صغيرة؛ حتى احتلت مدينة أنوال في (7 من رمضان 1339هـ/ 15 من مايو 1921م)..

وبعد ذلك بدأ أصحاب عبد الكريم الخطابي هجومهم على كل المواقع التي احتلَّهَا الإسبان، وحاصروا هذه المواقع حصارًا شديدًا، وفشل الجنرال في ردّ الهجوم، أو

مساعدة المواقع المحاصَرَة، وأصبحت قوَّاته الرئيسيَّة التي جمعها في «أنوال» مُهَدَّدة، بعد أن حاصرها وطوَّقها رجال الريف، وحين حاول الانسحاب بقوَّاته اصطدم بقوَّات الخطابي في (16 من ذي القعدة 1339هـ/ 22 من يوليو 1921م) في معركة حاسمة عُرفت بمعركة أنوال، وكانت الهزيمة الساحقة للقوات الإسبانية؛ حيث أُبيد معظم الجيش المحتلّ، وأقرَّ الإسبان بأنهم خسروا في تلك المعركة خمسة عشر ألف (15،000) قتيل يتقدَّمهم الجنرال سلفستر، ووقع في الأسر (570) أسيرا، وهذا غير الغنائم من الأسلحة التي وقعت في أيدي المجاهدين!!.

وما إن انتشر خبر انتصار الخطابي ورجاله في معركة أنوال، حتى هبَّت قبائل الريف تُطارد الإسبان أينما وُجدوا، ولم يمضِ أسبوعٌ إلَّا وقد انتصر الريف عليهم، وأصبح وجود الإسبان مقتصرًا على مدينة تطوان وبعض الحصون في منطقة الجبالة..

هذا؛ وقد رفض الخطابي العروض الإسبانية بالاعتراف باستقلال الريف تحت سيادته بحمايةٍ إسبانية، ثم هزم الإسبان، وطاردهم سنة (1343هـ/1924م) حتى مدينة (تطوان)، وقد بلغت حكومة الأمير الخطابي ذروة قوتها عام (1344هـ/1925م)، وأصبح مضرب المثل في جهاده ضد الاستعمار (الاستخراب) الأوروبي، وما زال إسم عبد الكريم رمزاً للرعب في اللغة الإسبانية، ولقد تمكن الخطابي أيضاً من أن يهزم القوات الفرنسية في معركة (تازة) سنة (1344هـ/1925).

وكانت وفاته رحمه الله تعالى بتاريخ (13 رمضان 1382هـ/6 فبراير 1963م)، ودُفِنَ بالقاهرة حسب وصيته[1]، وكان قد لجأ إلى مصر منذ عام (1367هـ/1947م).

فرحمة الله على عبد الكريم الخطابي وعلى شهداء المغرب الأبطال..

::

(1) انظر: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، ص 506-507.

- غراسياني وأسد الصحراء:

عمر المختار من خيرة المجاهدين الذين أنجبتهم الأمة الإسلامية في تاريخها، وهو مُدوّخ الجيوش الإيطالية لأكثر من عشرين سنةً خاض خلالها أكثر من ألف معركةٍ ضد الطليان!.. حتى صرَّح القائد الإيطالي السَّفَّاح غراسياني في كتابه (برقة الهادئة) بأنَّ: «المعارك التي حصلت بين جيوشه وبين السيد عمر المختار (263) معركةً في مدة لا تتجاوز 20 شهراً فقط»!!.

ولكن ها هو الشيخ الوقور عمر المختار يقع في أيادي الطليان بتاريخ (28 ربيع الآخر 1350هـ/11 سبتمبر 1931م).. ثم أراد المولى ﷻ لحكمة يريدها أن يقف البطل الأشمُّ والطَّود الشامخ الذي دوَّخ إيطاليا الكافرة النصرانية الكاثوليكية وأشاع الرعب في قلوب مجرميها، أمام الرجل التافه الحقير المجرم السَّفَّاح غراسياني، وذلك قبل المحاكمة بقليل..

يقول غراسياني في كتابه (برقة الهادئة): « وعندما حضر أمام مدخل مكتبي تهيَّأ لي أني أرى فيه شخصية آلاف المرابطين الذين التقيت بهم أثناء قيامي بالحروب الصحراوية، يداه مكبلتان بالسلاسل رغم الكسور والجروح التي أُصيب بها أثناء المعركة، وكان وجهه مضغوطاً لأنه كان مغطياً رأسه بالجَرَد (اللباس التقليدي الليبي) ويجرُّ نفسه بصعوبة نظراً لتعبه أثناء السفر بالبحر، وبالإجمال:يُخيَّل لي أن الذي يقف أمامي رجلٌ ليس كالرجال، له منظره وهيبته رغم أنه يشعر بمرارة الأسر، وها هو واقف أمام مكتبي، نسأله ويجيب بصوت هادئ وواضح:

غراسياني: لماذا حاربت بشدة متواصلة مع الحكومة الفاشستية؟..

أجاب الشيخ عمر المختار: من أجل ديني ووطني..

غراسياني: ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه؟!..

فأجاب الشيخ: لا شيء إلَّا طردكم؛ لأنكم مغتصبون، أمَّا الحرب فهي فرض علينا، وما النصر إلَّا من عند الله!..

غراسياني: لكن كتابك يقول: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ١٩٥﴾ [البقرة:195]، يعني لا تجلبوا الضرر لأنفسكم ولا لغيركم من الناس، القرآن يقول هذا..

فأجاب الشيخ: نعم!..

غراسياني: إذاً لماذا تُحارب؟..

فأجاب الشيخ: كما قلت، من أجل وطني وديني..

غراسياني: بما لك من نفوذٍ وجاهٍ؛ في كم يوم يُمكنك أن تأمر العصاة (أي الثوار) بأن يخضعوا لحكمنا ويُسلموا أسلحتهم وينهوا الحرب؟..

فأجاب الشيخ: لا يمكنني أن أعمل أيَّ شيء، وبدون جدوى نحن الثوَّار سبق أن أقسمنا أن نموت كلُّنا الواحد بعد الآخر، ولا نُسَلِّم أو نُلقي السلاح، وأنا هنا لم يسبق لي أن استسلمت وهذا -على ما أظن- حقيقي وثابت عندكم!..

ويستطرد غراسياني حديثه: وعندما وقف ليتهيَّأ للانصراف كان جبينه وضَّاءً؛ كأنَّ هالة من نور تُحيط به، فارتعش قلبي من جلالة الموقف، أنا الذي خاض معارك الحروب العالمية والصحراوية، ولُقِّبْتُ بأسد الصحراء، ورغم هذا فقد كانت شفتاي ترتعشان، ولم أستطع أن أنطق بحرفٍ واحدٍ، فانتهت المقابلة، وأمرتُ بإرجاعه إلى السجن لتقديمه إلى المحاكمة في المساء، وعند وُقوفه حاول أن يمدَّ يده لمصافحتي؛ ولكنه لم يتمكَّن؛ لأن يديه كانت مُكَبَّلة بالحديد..

لقد خرج من مكتبي كما دخل علي، وانا أنظر إليه بكل إعجاب وتقدير!»[1].

وقبل أن يرحل البطل المجاهد وأسد الصحراء عمر المختار ترك لنا كلماته الأخيرة هذه والتي تقطر عزَّةً وشموخاً:

---

(1) انظر: برقة الهادئة، الجنرال رودلفو غراسياني، ص 279-285 (ترجمة: إبراهيم سالم بن عامر). وقد نقلت-فقط- أبرز الأسئلة والأجوبة التي دارت بين الجنرال السفاح والأسد عمر المختار، وفي المصدر تجد نص الكلام الذي دار بينهما كاملاً.

« نحن لا نستسلم.. ننتصر أو نموت.. وهذه ليست النهاية.. بل سيكون عليكم أن تحاربوا الجيل القادم والأجيال التي تليه.. أمَّا أنا فإنَّ عمري سيكون أطول من عمر شانقي!! «

فرحمة الله عليه عمر المختار وعلى أبطال ليبيا وأسكنهم الفردوس الأعلى.

- مع فلسطين.. ظالمة أو مظلومة:

حقًّا إنَّها كلماتٌ خالدةٌ شهيرةٌ قالها الزعيم الجزائري محمد إبراهيم بوخروبة.. أو « هواري بومدين « رحمة الله عليه!..

فقوله « نحن مع فلسطين ظالمةً أو مظلومةً» أصبح شعاراً صادحاً من حناجر الجزائريين والفلسطينيين على حدٍّ سواء، ولو أنَّك التقيت بطفلٍ ما في فلسطين الحبيبة وتلفظت بكلمة الجزائر أمامه فلن يطول عليك الأمر حتى تسمع منه الرد بذلك الشعار (البومديني) الذي يقطر حباً لأهل فلسطين ونصرةً للقضية الفلسطينية..

والواقع أنَّ بومدين لم يتلفظ بتلك الكلمات على سبيل المجاملة أو الحماسة الفارغة مثل الطبل، دون تجسيد وعملٍ على أرض الواقع.. فقد دوَّن التاريخ مواقفه العظيمة الداعمة للفلسطينيين في خضم صراعهم ومقاومتهم للكيان الصهيوني، وفي مقدمة تلك المواقف تدعيمه للجيوش العربية في حربهم مع جيش الاحتلال الصهيوني سنة 1967 رغم الانهزام (النكسة)، بيد أنَّ مول الموسطاش (كما يصفه بعض الجزائريين) علَّق على المعركة في أحد خطاباته الشهيرة المسجلة قائلاً: «سيحكم علينا التاريخ كخونةٍ.. سيحكم علينا التاريخ كمنهزمين.. سيحكم علينا التاريخ بأننا قصَّرنا في واجبنا.. إذا قبلنا هذه الهزيمة!»..

وقال: « الجزائر لن تقبل هذه الهزيمة.. لن تقبلها أبداً!».. وكأن المعركة ضد الصهاينة هي معركة الجزائر بالمقام الأول!

ومنذ ذلك الوقت وبومدين يتحيَّن الفرصة ويترصدها للانتقام من الصهاينة واسترداد ما سلبوه من أراضٍ، وذلك ما تحقق نسبياً من خلال (حرب العاشر من رمضان 1393هـ/ السادس من أكتوبر 1973م) حينما قاد معركة النفط بدايةً رفقة الملك السعودي (فيصل بن عبد العزيز آل سعود) وغيره ضد كل دولة تدعم-أو حتى تؤيد- الجانب الصهيوني وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، وكان سلاح النفط ذلك كفيلاً بأن يضع حداً للدعم الغربي للصهاينة، وهذا ما استغله بومدين والملك فيصل وغيرهما من الزعماء العرب استغلالاً جميلاً (لدرجةٍ جعلت وزير الخارجية الأمريكي آنذاك يجيء إلى الرياض ليُلحَّ على الملك فيصل بأن يستأنف تصدير النفط للأمريكان، لكن الملك رحمه الله ظل ثابتاً على موقفه ورفض إلحاحه، وقال له بنخوة المسلم العربي: نحن كنا ولا نزال بدواً.. وكُنَّا نعيش في الخيام.. وغذاؤنا التمر والماء فقط.. ونحن مستعدون للعودة إلى ما كنَّا عليه!!)..

ولم يكتفِ بومدين بذلك.. بل سعى رحمه الله جاهداً لتقديم الدعم العسكري للجبهة المصرية، فخلال زيارة الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس أركان القوات المسلحة المصرية للجزائر قال له بومدين-كما يذكر الشاذلي في مذكراته: «إني أريد أن أضع يدي في أيديكم بنيةٍ صادقةٍ لطرد الإسرائيليين من أراضينا المحتلة. إنه من المهانة أن نرى هذه الدولة التوسعية تستمر في احتلال الأراضي العربية دون أن نستطيع نحن العرب أن نقوم بردعها!».. ونذكر من مواقفه في ذلك الشأن يوم امتنع الروس عن بيع السلاح له إلا بمبالغ ضخمة، ليضطر بومدين إلى إعطائهم شيكاً فارغاً وقال لهم: «اكتبوا المبلغ الذي تريدونه!!» ..فتم شراء السلاح والعتاد اللازم وأرسله إلى مصر وسوريا، وقد كانت التكلفة (200) مليون دولار، مقسمةً على الجبهتين المصرية والسورية... ليثبت بذلك أنه لا يتسول السلاح!!

وبذلك كانت الجزائر ثاني أكبر مدعم عسكري لدول المواجهة خلف العراق بعد أن أرسلت التالي:

- سرب ميج 21
- سرب سوخوي 7
- سرب ميج 17
- لواء مدرع [1]

هذا ناهيك عن الدعم البشري الذي لم يتوانى بومدين في تصديره لحرب إخوان القردة والخنازير..

وقد صرَّح الرئيس المصري حينئذٍ (أنور السادات) أنَّ الفضل في الانتصار الذي حققته دول المواجهة -و على رأسها مصر- في حرب أكتوبر يعود -بعد الله عزَّ وجلَّ- إلى هواري بومدين والملك فيصل.. كما ذكر الفريق الشاذلي أنَّ دور الجزائر في حرب أكتوبر كان أساسيًّا، وقد عاش بومدين ومعه كل الشعب الجزائري تلك الحرب بكل جوارحه! وكفى بشهادة البطل الشاذلي دليلاً على ذلك.. ولا ندري العدد الحقيقي لأهل الجزائر الذين جاهدوا ضد اليهود في حرب العاشر من رمضان، ولكن الذي ندريه هو أنَّهم كانوا متواجدين بكثافة صفاً واحداً إلى جانب أشقائهم من مختلف بقاع العالم الإسلامي!!

- جهاد عز الدين القسَّام:

استأهل عز الدين القسَّام أن يُنظَمَّ في عقد «أعلام المسلمين» لأنَّ العرب أجمعوا على إمامته وريادته وسبقه فيما دعا إليه وعمل به، وأقرُّوا بتفرُّد منهجه التربوي، ومسلكه الجهادي، وقد أحبُّوه حياً، وبَكَوه ورَثَوْه وأبَّنوه ميتاً، واتفقوا على صدقه في القوم والعمل.. ودام هذا الوفاء والحبّ لسيرة عز الدين القسَّام في العقود التي تلت استشهاده، وزاد تطلّع الناس إلى بعث أنموذجه في الانتفاضة المباركة التي تفجَّرت في كانون الأول سنة (1987م) بعد أن يأس من إحياء نموذج صلاح الدين الأيوبي، حيث

(1) انظر: مذكرات حرب أكتوبر، الفريق سعد الدين الشاذلي.

اعتمد القسَّام على القوة الذاتية الكامنة في قلوب المؤمنين، التي تستمدُّ العون من الله تعالى، ولذلك أرعب اسم عز الدين الأعداء أكثر مما أرعبتهم الجيوش المدجَّجة بالسلاح!..

ومن أجل ذلك كله استحقَّ القسَّام أن ينضم إلى كوكبة (الأعلام) لتأخذ الأجيال العبرة من سيرته [1]..

وبداية المسيرة الجهادية للقسَّام كانت يوم سفره إلى القاهرة سنة (1314هـ/1896م) أين سينهل العلم من جامعة الأزهر الشريف، وكان يومئذٍ في الرابعة عشرة من عمره.. فأمضى عز الدين حوالي عشر سنوات في جوار الأزهر، نال في نهايتها الإجازة العالمية الدالة على تضلُّعه في العلوم الإسلامية، وهذا ما جعل مسيرته الجهادية الرائعة مشبعةً بالقيم والمبادئ الإسلامية التي اشرأبَّتها نفس القسَّام من الأزهر الشريف، فكان-إضافةً إلى الجهاد بالسلاح- يُجاهد أيضاً بمحاربة الجهل والأمية وتعليم المسلمين في سوريا وغيرها أمور دينهم ودنياهم.. وذاك هو عين الوعي والفهم العميق لرسالة الإسلام!.

«و الحقيقة أنَّ القارئ لتاريخ عظماء أمة الإسلام يجد شيئاً عجيباً للغاية!.. وهو أنَّ أبطال الإسلام بصفةٍ خاصة ليسوا كغيرهم من أبطال الأمم الأخرى! فلقد حارب البطل اللاتيني (بوليفار) الإمبراطورية الإسبانية، وحارب الثائر الفيتنامي (هو شي منه) الإمبراطورية الأمريكية، وحارب قبلهم القائد القرطاجي (هانيبعل) الإمبراطورية الرومانية، إلا أننا لا نرى بطلاً حارب عدَّة إمبراطوريات في نفس الوقت إلا في حالة أبطال أمة الإسلام!! فكما رأينا كيف حارب الصِّدِّيق الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية في آنٍ واحد، وكيف حارب الخطابي فرنسا وإسبانيا وإنجلترا في نفس الوقت، وكيف حارب سليم الأول الصفويين والبرتغاليين، وكيف حارب صلاح الدين

(1) عز الدين القسَّام، محمد حسن شُرَّاب، ص 7.

العبيديين الشيعة والصليبيين... والآن جاء الدور على رجلٍ حارب كلاً من: الإمبراطورية الفرنسية، والإمبراطورية البريطانية، والإمبراطورية الإيطالية، والعصابات الصهيونية في آنٍ واحد!!».. ذاك هو عز الدين القسام!.

فقد حاول رحمه الله في البداية نقل ما استطاع أن يجمعه من معونات مادية وبشرية للمجاهدين في ليبيا ضد الاحتلال الإيطالي.. وكان ذلك بعد أن أثار دم الأُخُوة في الدين وحرَّك عواطف الوجدان تجاه مجاهدي ليبيا في جموع المسلمين في الساحل السوري بما أوتي من غيرةٍ وحماسةٍ وقدرة خطابية جريئة.. ولا نشك أنَّ التاريخ كان سيذكر القسَّام كمجاهدٍ كبير ضد الطليان رفقة عمر المختار لولا الظروف التي منعته من الجهاد على أرض ليبيا!..

ثم شارك رحمه الله في الثورة السورية ضد الاحتلال الفرنسي بعد أن كان في طليعة المجاهدين الذين حملوا السلاح مع المجاهد الكبير عمر البيطار، وكانت مشاركته فيها فعَّالةً إلى حدٍّ كبير، فحاولت فرنسا أن تُغريه بالمنصب وتُثنيه عن الثورة والجهاد، ولكنها فشلت في ذلك ويئست، فاضطر الاحتلال الفرنسي إلى أن يحكم عليه وعلى مجموعة من أتباعه بالإعدام غيابياً!..

وبعد أن اكتسب البطل المجاهد عز الدين القسَّام خبرةً وتجربةً ميدانية كبيرة في الجهاد المسلح انتقل إلى فلسطين ليخوض مغامرةً جهاديةً جديدةً ضد المستخرب البريطاني والصهاينة معاً، وكان ذلك بعد فشل الثورة ضد الفرنسيين.. وهنالك نشط رحمه الله كثيراً وأخذ في تعليم الناس ومحاربة الأمية المنتشرة بينهم، فكان يُعطي دروساً ليلية لهم، ويُكثر من زيارتهم، وقد كان ذلك موضع تقدير الناس وتأييدهم..قبل أن يبدأ منذ عام (1340هـ/1922م) في الإعداد الفعلي للجهاد ضد البريطانيين (و كان دائم التحذير منهم ومن اليهود الصهاينة المهاجرين إلى فلسطين في خُطَبِه أيام الجمعة!)..

وما أن قارب عام (1935م) من الانقضاء حتى قرَّر القسَّام إعلان الجهاد في وجه المستخرب (المستعمِر) البريطاني بعد سنوات من الإعداد السرِّي، وكان الأمر القيادي الأول لأصحابه وتلاميذه كالتالي:

«ليتوجه كلٌّ إلى أهله، يستودعهم الله، ويُعاهدهم على اللقاء في الجنة إنشاء الله!»

وكانت آخر كلمات قالها القسَّام في خطبته:

«أيها الناس! لقد علمتكم أمور دينكم حتى صار كلُّ واحد منكم عالماً بها، وعلمتكم أمور وطنكم حتى وَجَب عليكم الجهاد، ألا هل بلغت الله فاشهد، فإلى الجهاد أيها المسلمون! إلى الجهاد أيها المسلمون!»

وبعد ساعة من إلقاء الخطبة أخذت السلطة تفتش عنه للقبض عليه ومحاكمته، ولكنه كان قد ودَّع أهله وإخوانه، وحمل بندقيته، وذهب وصحبه إلى الجبال [1] !

وفي قرية (يَعْبَدْ) كان الموعد مع الشهادة!..

ففيها دارت موقعةٌ استبسل فيها القسَّام وأصحابه المجاهدين الأبطال - مع ما في أيديهم من سلاح وعتاد محدودين- ضد قوات الاحتلال البريطاني ممثلةً في شرطتها التي ضمَّت أفراداً من العرب [2]، فكان القسَّام يُجاهد ببندقيةٍ ومسدسٍ بالتناوب في الوقت الذي كانت شفتاه تلهج بالدعاء!!..

---

(1) انظر: عز الدين القسَّام، محمد حسن شُرَّاب ، ص 274-275.

(2) والعجيب أنَّ الشيخ القسَّام أمر أصحابه ألاَّ يُطلقوا النار على أفراد الشرطة العرب، بل يوجّهوا رصاصهم إلى الإنكليز! وكان الضباط الإنكليز قد وضعوا الشرطة العربية في ثلاثة مواقع أمامية، وتمترس الإنكليز خلفهم، ولم تكن الشرطة العربية تعرف حقيقة الجهة التي أُحضروا إليها، وحقيقة الجماعة التي يُطاردونها؛ فقد ادَّعوا لهم بأنَّ المُطَارَدين لصوصٌ يُهدِّدون أمن البلاد!!

ورغم فرصة النجاة التي بدت أمام القسَّام وأصحابه عندما ناداهم ضابطٌ بريطاني: «استسلموا تنجوا!».. بيد أنَّ المجاهد عز الدين صرخ في وجهه: «لا! لن نستسلم، هذا جهاد في سبيل الله» ثم التفت إلى أصحابه وهتف بهم: «موتوا شهداء!»..

فردَّد الجميع، ورددت سفوح الجبال من حولهم النداء: لبيك يا فلسطين.. لبيك يا فلسطين.. جئناك مستشهدين.. الله أكبر.. الله أكبر..!!

وكانت معركةً رهيبةً بين المجاهدين والبريطانيين، صمد فيها رجال القسَّام، وقاتل شيخهم قتال الأبطال، وظلَّ يُكافح حتى خرَّ صريعاً في ميدان الجهاد.. شهيداً كريماً في سبيل إعلاء كلمة الله فوق أرض فلسطين..[1]

فرحمة الله على عز الدين القسَّام وأسكنه فسيح جنانه، وجمعنا به في مستقر رحمته إخواناً على سررٍ متقابلين..

(1) انظر: الشيخ عز الدين القسَّام، حُسني أدهم جرار، ص 126.

المجاهد الهمَّام

«لقد مَلَكَ حب الجهاد عليَّ حياتي ونفسي ومشاعري وقلبي وأحاسيسي.. إنَّ التعلل بالآمال دون الإعداد لهو شأن النفوس الصغير التي لا تطمح أن تصل إلى القمم، ولا ترق إلى الذرا.. إنَّ الجوار في المسجد الحرام وعمارته لا يمكن أن يُقاس بالجهاد في سبيل الله»

«إنَّ ترك المسلمين في الأرض يُذبَّحون ونحن نُحوقِل ونسترجع ونفرك أيدينا من بعيد، دون أن يدفعنا هذا إلى خطوة واحدة تُقدِّمُنا نحو قضية هؤلاء؛ لهوٌ ولعبٌ بدين الله، ودغدغةٌ لعواطف باردة كاذبة، طالما خدعت النفس التي بين جنباتها!»

(عبد الله عزام)

حديثنا الآن هو عن عَلَم بارز في ساحات الجهاد، وقامة شامخة في ميدان الفكرالإسلامي الصحيح بعد أن حاول أعداء الإسلام عبثاً -و لا زالو- وصمه بالتطرف والتشدد.. فكان رجلاً وسطياً، واضح الرؤية، صافي العقيدة، شديد الغيرة على الدين والأمة، كريم الأخلاق، شجاعاً مقداماً، زاهداً متقشِّفاً، عزَّتُهُ بدينه الإسلام لا

بالشيوعية والليبرالية وما إلى ذلك من التيارات والأنظمة التي لم ينزل الله بها من سلطان.

ذاك هو البطل المجاهد الهمَّام، والشيخ العلم الفهَّام، عبد الله عزَّام رحمه الله تعالى!.

وُلِدَ العالم الشجاع والمجاهد الجسور، الداعية المصلح أمير المجاهدين العرب في أفغانستان الدكتور عبد الله عزام عام (1360هـ/1941م) في بلدة (سيلة الحارثية) من أعمال مدينة جنين بفلسطين، وتلقى علومه الابتدائية والإعدادية في مدرسة القرية، وأكمل دراسته في خضورية الزراعية بمدينة طولكرم ونال منها دبلومه بدرجة امتياز، ثم عمِل في سلك التعليم، وواصل طلبه للعلم الشرعي حتى انتسب إلى كلية الشريعة في جامعة دمشق، ونال منها شهادة الليسانس في الشريعة بتقدير جيد جداً عام (1386هـ).. ثم عمل مُدرِّساً في قريته، وما لبث أن غادرها بعد احتلال اليهود لها عام (1387هـ/1967م)، ثم التحق بكتائب المجاهدين التي شكَّلها الإخوان المسلمون وكانت قواعدها في الأردن، حيث اشترك في بعض العمليات العسكرية ضد اليهود على أرض فلسطين، ومنها معركة المشروع أو الحزام الأخضر، وقد حصلت هذه المعركة في منطقة الغور الشمالي، وكانت نتائجها كبيرةً على اليهود، كما أشرف على عمليات معركة 5 يونيو عام (1970م).

وبعدها بأشهرٍ قليلةٍ قرَّر الشيخ عبد الله عزام الانتساب إلى جامعة الأزهر حيث حصل على شهادة الماجستير في أصول الفقه، ثم عُيِّن مُحاضراً في كلية الشريعة بالمجامعة الأردنية بعمان عام (1391هـ/1971م)، ثم أُوفد إلى القاهرة لنيل شهادة الدكتوراه، فحصل عليها في أصول الفقه بمرتبة الشرف الأولى عام (1393هـ/1973م) فعمل مُدرِّسا بالجامعة الأردنية (كلية الشريعة) من عام (1393-1400هـ) إلى (1973-1980م)، ثم انتقل للعمل في جامعة الملك عبد العزيز في جدة، وبعدها عمل في

الجامعة الإسلامية العالمية في (إسلام أباد) بباكستان، ثم قدَّم استقالته منها وتفرغ للجهاد في أفغانستان [1]..

***

والبداية كانت من أواخر سنة (1400هـ/1979م) حيث تم فيها احتلال الاتحاد السوفيتي لأفغانستان وقتل رئيسها (حفيظ الله أمين) على يد مخابرات الاحتلال (KGB)، وذلك لأسباب عديدة.. فارتكب ملاحدة الروس المجازر تلو المجازر بحق المسلمين هناك، فكانت الحصيلة في عام واحدٍ فقط ما يُقارب المليون مسلم!.. ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله!.

وفي ذات الوقت كانت المقاومة الإسلامية للشيوعيين والروس على أشدها في أفغانستان؛ فأهل أفغانستان يشتهرون منذ زمن بعيد بتمسكهم الشديد وتحمسهم للإسلام، فأخذوا يُقاومون أعداء الإسلام، وألحقوا بهم خسائر فادحةً رغم حداثة الأسلحة الروسية وتطورها..

وبعدها انضم إلى تلك المقاومة الإسلامية الشرسة آلاف المجاهدين المتطوعيمن القادمين من مختلف بقاع العالم الإسلامي، وكان في مقدمتهم بطلنا المجاهد عبد الله عزام!.

وبصرف النظر عن كل القضايا والأمور التي ارتبطت بانتقال المجاهدين إلى أفغانستان، فإنَّ جُلَّ هؤلاء المجاهدين كانت لديهم رؤية واضحةٌ لما يحصل على أرض أفغانستان الإسلامية، وهي أنَّه قد أصبح من الواجب عليهم كمسلمين أن يُجاهدوا بسلاحهم مع إخوانهم الأفغان ضد الاحتلال السوفييتي، فكانت على هذا الأخير تتوالى

(1) انظر: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، المستشار عبد الله عقيل، ص 542-543.

الضربات الموجعة والخسائر الفادحة حتى قبل مجيء أولئك المجاهدين، فزادت بمجيئهم تلك الضربات الموجعة والخسائر الفادحة..

أما الشيخ عبد الله عزام فقد أسَّس في البداية مكتب الخدمات في أفغانستان الذي استقطب معظم المجاهدين العرب القادمين إليها، فكان ذلك المكتب حلقة اتصال بين المجاهدين الأفغان والمؤيدين لهم في البلدان العربية، كما أشرف على عمليات واسعةٍ لتقديم الخدمات والمساعدات المختلفة من تعليمية، وصحية، وعسكرية للمهاجرين والمجاهدين الأفغان وأولادهم، كما أسَّس مجلة (رسالة الجهاد) لتكون منبراً إعلاميًا شهرياً لنشر أخبار الجهاد، وكذلك نشرة (لهيب المعركة) وهي أسبوعية تتناول آخر الأحداث المستجدة على الساحة الأفغانية.. إضافةً إلى بناء خمسة مستشفيات هناك.

وقد خاض رحمه الله معارك كثيرةً ضد الروس كان من أشدِّها وأشرسها معركة (جاجي) في شهر رمضان المبارك عام (1408هـ/1987م) وكان في معيته عددٌ من المجاهدين العرب الذين أبلوا البلاء الحسن وسقط منهم شهداء في سبيل الله..

وقد كان الشيخ عزَّام موضع الثقة والاحترام من قادة الجهاد الأفغاني، كما كان محبوباً من الشباب الذين ذهبوا من مختلف الديار العربية والإسلامية للجهاد في أفغانستان.. وكانت له جولات دعوية وتعريفية في البلاد العربية والإسلامية والأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية أحدثت أعظم الأثر ودفعت الأمة في سائر أقطارها للمشاركة أو الدعم والمساعدة للجهاد والمجاهدين في أفغانستان [1].

ولأنَّ كلَّ من على شاكلة الشيخ المجاهد عبد لله عزَّام لا يرتاح له أعداء الإسلام والمسلمين فقد وجب أن يُتخلَّص منه في أقرب وقت؛ وفعلاً؛ قام مجهولون باغتيال الشيخ رحمه الله بعد أن فجَّروا سيارته التي كان فيها برفقة وَلَديه (محمد)

(1) انظر: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، ص 543-545.

و(إبراهيم) وهو متجه إلى مسجد (سبع الليل) لإلقاء خطبة الجمعة يوم (25-4-1410هـ) الموافق لـ(24-11-1989) بباكستان، وكان ذلك بعدما يقرب من شهرين وعشرة أيام من انسحاب قوات الاحتلال السوفييتي من أفغانستان رسمياً.

وقد دُفن الشهيد يوم استشهاده، ولاحظ المُشيّعون-و هم ألوفٌ- رائحة المسك التي انبعثت من دمه الزكي حتى تم دفنه.. كما لوحِظَ-و هذا من إكرام الله تعالى- أنَّ جسده قد حُفظ من التشويه على الرغم من أنَّ الانفجار نتج عن عشرين كيلوجراماً من مادة (تي أن تي TNT)!! وقد أحدث دوياً هائلاً، وقطع تيار الكهرباء وحفر حفرةً في الأرض كبيرةً وتناثرت أجزاء السيارة في الهواء، وقد وُجِدت جثته سليمةً إلا أُذُنه على مقربةً من موقع الحادث.

فرحمة الله على البطل المجاهد عبد الله عزَّام وجمعنا به في مستقر رحمته إخواناً على سررٍ متقابلين، ولا ننسى أنَّه رحمه الله قبل استشهاده كان يُعِدُّ العُدَّة للانتقال من أفغانستان إلى فلسطين للجهاد ضد اليهود في صفوف حركة حماس، حيث كان يعتبر أرض فلسطين المحطة التالية لتحريرها بعد تحرير أفغانستان، بيد أنَّ الأجل سبقه قبل أن يفعل ذلك فاستشهد!!.

اللواء الركن

((مضى يُدافع عن تاريخ أمتنا يردُّ شبهة تنصير وتهويدٍ
يردُّ كيد العِدى في نحرهم قلم يأتي على حجج الأعدا بتفنيدٍ
و في فلسطين أيامٌ له سلفت مُجاهداً مع أبطال صناديدٍ
يصول كالليث في غاراته جلداً يُطارد البغي في الوديان و البيد
و ذكريات له في القدس باقية لا ينمحي ذكرها من قلب محمود
يا رب بارك له في سعيه و أدم عليه فضلك بالإنعام و الجود))

(الشاعر وليد الأعظمي)

هذه قصة القائد البطل الذي كان عملاقاً في زمن الأقزام، وكريماً في زمن اللِّئام..

هذه قصة العسكري الملتزم الذي قلَّ ما عرف تاريخنا المعاصر قادةً عسكريين عاشوا للإسلام وللأمة، وكرَّسوا حياتهم لنصرة هذا الدين والتخطيط المستمر لمواجهة أعدائه، وفي مقدمتهم الصهاينة اليهود!.

هذه قصة الرجل الذي ظلمه المؤرخون المعاصرون، وظلمته المناهج الدراسية في البلدان الإسلامية، وظلمه الإعلام العربي والإسلامي رغم كل ما قدَّمَه وأنجزه..

إنَّنا نتحدث عن اللواء الركن العبقري، والباحث الإسلامي العسكري، والقائد المحنك البارع، والمؤرخ الموسوعي الماتع، محمود شيت خطاب رحمه الله تعالى!.

فمن هو اللواء الركن محمود شيت خطاب؟

وُلِدَ رحمه الله في مدينة الموصل بالعراق سنة (1919م)، ونشأ في بيئة أقلُّ ما يُقال عنها أنَّها بيئة ملتزمة بالإسلام وشرائعه وأركانه، وتربَّى في عائلة ملؤها الأخلاق الكريمة والمبادئ الرفيعة.

درس في الكتَّاب مبادئ الإسلام، وتجويد القرآن وتلاوته وحفظه، وتعلم فيه الخط، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية في السنة الثامنة من عمره، وواصل تعليمه فيها حتى أكمل المراحل الثلاث: الابتدائية والمتوسطة والثانوية.

كان محمود يرغب بدراسة الحقوق بعد حصوله على شهادة الثانوية، ولكن شاء الله غير ذلك، حيث التحق بالكلية العسكرية سنة (1937م) وتخرَّج فيها برتبة ملازم في سلاح الفرسان.. وقد سأله آمر السرية: «أتشرب الخمر؟ اتلعب القمار؟ أتحِبُّ النساء؟»، ولما نفى خطاب ذلك، قال آمر السرية: «إنَّ انضمامك إلى سريَّتي نكبة عليَّ»!! [1].

وهذا الموقف فقط يكشف لنا فساد كثير من القادة العسكريين العرب، أو الأحرى أن نقول البينة العسكرية العربية في ذلك الحين، كما أنَّه يُبيِّن لنا معدن البطل الأبي محمود شيت خطاب الذي أبى أن ينجر بنفسه نحو مستنقع الفساد والدناءة الخُلُقية!.

وقد استكمل محمود مراحله العسكرية وتخرج برتبة ضابط ركن، وابتُعِث إلى دورةٍ في بريطانيا لمدة سنتين، وهكذا حتى وصل إلى رتبة لواء أركان حرب.

ومن أبرز صفات اللواء الركن أنه كان ذو قوي الفراسة ودقيق الدراسة وعظيم الاستبصار بالعدو الصهيوني الذي كانت المواجهة ضده في ذلك الزمن على أشدها، فحدث ذات يومٍ أن قادته فراسته ودراسته الدقيقة لأحوال العدو الصهيوني أن «حدَّدَ اليوم الذي عزمت فيه إسرائيل أن تضرب ضربتها وهو يوم (1967/6/5م)،

(1) انظر: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، ص 1094-1095.

ونشر هذا في جريدة (العرب) البغدادية يوم (1967/6/1م)! حتى إنَّ المؤلف الإسرائيلي صاحب كتاب (الحرب بين العرب وإسرائيل) أثنى على عبقرية اللواء محمود شيت خطاب ووصفه بأنَّه أكبر عقلية استراتيجية في العرب، ولكنه لا يجد من يستفيد منه» [1] !!.

لقد صدق صاحب الكتاب اليهودي الصهيوني وهو كذوب!

هذا؛ ومن المواقف الجميلة التي سطَّرها اللواء الركن ما يُحدثنا بنفسه فيقول: «لما ذهبت لدراسة في الكلية العسكرية بلندن، سألني عميد الكلية: لماذا قدِمت؟ قلت: لتجديد معلوماتي العسكرية، ولِتلقي أي جديد في العلم. فعقَّب العميد على كلامي: بل قَدِمت لتتعلم مغازلة الفتيات! فكظمت غيضي وقلتُ في نفسي: إنَّ هذا لا يلقي كلامه جزافاً، وإنما يحكم عليَّ بما شاهده في سواي.. ولما ذهبت إلى السكن المخصص لي، وجدت فتاةً تعمل على ترتيب غرفة نومي، فانتظرت في البهو دون أن أُعيرها اهتماماً، حتى إذا خرجت سألتني: هل لديك توجيهات؟ قلت: شيءٌ واحد؛ هو أن تحضري لأداء مهمتك عندما لا أكون حاضراً!!».

ويروي أيضاً فيقول:

«بعد تخُرُّجي ضابطاً سنة (1938م) كان من تقاليد الجيش أن تولم وليمة للضباط الجدد، وشهدت الحفلة مع زملائي، فجاء قائد الكتيبة وقد ملأ كأساً بالخمر، وأمَرَني أن أبدأ حياتي بشرب الخمر، وكان الليل قد أرخى سدوله، وكانت السماء صافيةً تتلألأ فيها النجوم، وكان قائد الكتيبة برتبة عقيد يحمل على كتفيه رتبته العسكرية وهي بحساب النجوم: اثنتا عشرة نجمة، فقلت له: إني أطيعك في أوامرك العسكرية، وأُطيع الله في أوامره، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إنك تحمل على كتفيك اثنتا عشرة نجمة، فانظر إلى سماء الله لترى كم تحمل من

(1) المصدر السالف، ص 1095-1096.

النجوم!.. فبُهِتَ القائد وردَّد: السماء.. السماء.. نجوم السماء!.. ومضى غضباناً أسِفاً، وشعرت بأنَّ موقفي هذا ليس مصاولةً بيني وبين القائد، ولكنها مباراة بيت إرادته بشراً، وبين إرادة الله خالق البشر» [1].

وجدير بالذكر أنَّ اللواء الركن محمود شيت خطاب كان إضافةً لخبرته وحنكته العسكرية مؤرخا إسلاميا موسوعيا أثرى المكتبة الإسلامية بعشرات الكتب، ولعل من أشهرها: (الرسول القائد)، (بين العقيدة والقيادة)، (دروس عسكرية في السيرة النبوية)، (المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم)، (الصِّدِّيق القائد)، (الفاروق القائد)، (عمرو بن العاص)، (خالد بن الوليد المخزومي)، (عقبة بن نافع الفهري)، (قادة فتح المغرب العربي)،(قادة فتح مصر)، (قادة فتح الجزيرة)، (قادة فتح الشام)، (قادة فتح فارس)، (قادة فتح السند وأفغانستان)، (قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر)، (قادة الفتح الإسلامي في بلاد أرمينية)، (قادة فتح بلاد الروم)، (قادة فتح بلاد الأندلس)..

فرحمة الله على اللواء الركن وجزاه خير الجزاء.

(1) انظر: المصدر السالف، ص 1099-2000.

مصانع العظماء

«الرجال من صنعتهم أمهاتهم»

لقد تعرفنا فيما سبق عن الكثير من العظماء والعلماء والأبطال الذين غيروا مجرى التاريخ.. وشاهدنا معاً صفاتهم ومواقفهم وصنائعهم التي كان لزاماً على التاريخ أن يُخلِّدها، وأن تتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل، فكانوا أصلح الناس وأحقَّهم بأن يكونوا قدواتٍ بارزة لكل مُطَّلِعٍ على سِيرهم العظيمة، وأن يكون بعضهم مضرب المثل في العدل وسياسة الناس، والبعض الآخر مضرب المثل في الفروسية والشجاعة، والبعض الثالث في الأخلاق والقِيَم، والبعض الرابع في العزَّة بالدين والإخلاص لله وللأمة، والبعض الخامس في العلم والأدب، وهكذا..

ولكننا وقد اقتربنا من نهاية هذه الصفحات يستحيل علينا أن نصل إلى تلك النهاية دون أن نعرض شيئاً ونكتبه عن صنفٍ هو منبع بقية أصناف الأمة!.. وهو صنفٌ لولاه لما عرفنا كثيراً من عظماء الإسلام وأبطاله!!.

ذلك الصنف هو.... النساء المُربّيات!..

وإن شئت فلك أن تُسمِّيهم بـ(مصانع الرجال)!..

***

- وإلّا فمن الزبير بن العوَّام لولا أمُّه (صفية بنت عب المطلب) التي نشأ الزبير بين أحضانها (بعد وفاة أبيه العوام وعمره لم يتجاوز ثماني سنين) نشأةً صلبةً غليظةً جعلت منه مجاهداً عظيماً ومقاتلاً لا يُشق له غبار في الغزوات والمعارك!..
- ومَنْ عمر بن عبد العزيز لولا أمُّهُ (أم عاصم) التي رضع منها لَبَنَ التقوى والصَّلاح، والصدق والورع، والجود والإحسان، والنبل والمروءة!..

- ومَنْ الإمام مالك بن أنس لولا أمُّهُ (عالية بنت شَريك الأزْدية) التي يُحدِّث عنها مالك فيقول: «نشأت وأنا غلام فأعجبني الأخذ من المغنين، فقالت أمي: يا بني إن المغنى إذا كان قبيح الوجه، لم يُلتفت إلى غنائه، فدع الغناء واطلب الفقه، فتركت المغنين وتبعت الفقهاء فبلغ الله بي ما ترى» !!.

- ومَنْ ربيعة الرأي شيخ الإمام مالك لولا أمُّهُ!.. فقد خرج زوجها أبو عبد الرحمن فرُّوخ في البعوث إلى خراسان غازياً أيا مبني أمية، وترك ابنه ربيعة حملاً في بطن أمِّه، وخلَّف عند زوجته ثلاثين ألف دينار، فلما قدِمَ المدينة بعد سبع وعشرين سنةً ودخل مسجدها نظر إلى حلقة وافرة، فأتاها فوقف عليها، وإذا فيها مالك والحسن وأشراف أهل المدينة، ولما سأل عن صاحب هذه الحلقة أجابوه بأنه ربيعة بن أبي عبد الرحمن (ابنه)!! فرجع إلى منزله وقال لزوجته وأم ولده: «لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحدًا من أهل العلم والفقه عليها، فقالت له: فأيهما أحب إليك: ثلاثون ألف دينار، أم هذا الذي هو فيه؟!، فقال: لا -والله- بل هذا!. فقالت: أنفقت المال كله عليه. قال: فوالله ما ضيَّعتيه»!!! [1].

- ومَنْ سفيان الثوري لولا أمُّهُ التي يُحدِّث عنها بنفسه فيقول: «لما أردت أن أطلب العلم؛ قُلتُ: يا ربِّ، لابد لي من معيشة. ورأيت العلم يَدْرُس (أي: يذهب ويندثر)؛ فقلت: أُفرِّغ نفسي في طلبه، وسألتُ الله الكفاية (يعني أن يكفيه أمر الرزق»)، فكان من كفاية الله له في ذلك الشأن أن قيَّض له أمه التي قالت له: «يا بُني، اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي!» [2].

(1) انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (2/289-290).

(2) انظر: حلية الأولياء (6/370).

- ومَنْ الإمام البخاري صاحب أصح كتابٍ بعد كتاب الله ﷻ والذي نشأ يتيماً وضريراً لولا أمُّهُ التي كانت تقوم هي على تربيته أفضل تربية، فتتعهده بالرعاية والدعاء، وتدفعه إلى التعلم والصلاح، وتزين له أبواب الخير، بل وترحل به وهو في سن السادسة عشرة إلى مكة للحج، ثم تتركه هناك وترجع، ليطلب العلم بلسان قومه.. فصار بفضل الله ثم بفضلها أحد أكبر الحُفَّاظ الفقهاء العلماء!.
- ومَنْ الإمام الشافعي الذي نشأ يتيماً-أيضاً- لولا أمُّه (و كانت أسدية) التي كانت ذات صلاحٍ وتقوى، وحذقٍ وذكاء، وتفقُّهٍ في أمور الدين، وقوة عارضة، وقدرةً كبيرةً على الاستنباط.. وكل ذلك رضعه ولدها الشافعي رضعاً حتى وصل إلى ما وصل إليه!.
- ومَنْ الإمام أحمد بن حنبل الذي تيتَّم مبكراً -هو الآخر- لولا أمُّهُ (صفية بنت ميمونة) التي آثرت تربية ولدها على الصلاح والتقوى وطلب العلم على الزواج مرةً ثانية! وذلك أنَّ الكثيرات من نساء العرب كُنَّ يُفضِّلن الزواج إذا مات أزواجهن عليهن صوناً لعفة وحفاظاً على السمعة، ولكن أمَّ الإمام أحمد لم تفعل ذلك رغم أنَّ زوجها توفي عنها وهي دون الثلاثين!! وقال عنها أحمد: «حفَّظتني أمِّي القرآن وعمري عشر سنوات».
- ومَنْ صلاح الدين الأيوبي لولا أمُّهُ (ست الملك خاتون) التي لطالما راودها حلم إنجاب طفلٍ يُحرِّرُ اللهُ به بيت المقدس عندما يكبر، ويُعيده إلى حضيرة الإسلام والمسلمين، فحقَّق الله حلمها في الأخير وجعل ولدها الصالح مجاهداً عظيماً وفاتحاً خالداً قاد حملة المسلمين لفتح بيت المقدس!.
- ومَنْ الأمير عبد القادر الجزائري لولا أمُّه السيدة (بنت عبد القادر بن خدَّة) التي تنحدر من بيت علمٍ وتقوى وصلاح، فربَّت ابنها الأمير على التقوى والصلاح وطلب العلم في نفس الوقت الذي كان أبوه يربِّيه على الفروسية والقتال، وبثَّ فيه روح الشجاعة والبسالة!.

فحياً الله كلَّ أمٍّ وزوجةٍ ربَّت أبناءها على التقوى والصلاح والأخلاق والعلم وحبِّ الإسلام والاعتزاز به!.

شذرات

إليك عزيزي القارئ هذه الشذرات التاريخية التي تعج بمختلف المواقف الجليلة والمشاهد النبيلة التي لن تجد لها نظيراً في تواريخ أمم الأرض ما خلا تاريخ أمتنا.. تاريخ خير أمةٍ أُخرِجت للناس.

فستجد في هذه الشذرات (و التي لم أتوانى في تأخير ذكرها إلى ها هنا) مزيجاً من الشجاعة والأنفة والمروءة ورباطة الجأش والعبقرية والنزاهة والتقوى والتواضع والزهد والأدب والإنسانية والصبر والإباء والإخلاص..

***

- لمَّا استُخلِف الصِّدِّيق أبو بكر أصبح غادياً إلى السوق على رقبته أثوابٌ يتَّجر بها، فلقيه عمر وأبو عبيدة، فقالا: أين تريدُ يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق، قالا: تصنع ماذا وقد وُلِّيت أمر المسلمين؟! قال: فمِن أين أُطعِمُ عيالي؟ قالا له: انطلِق حتى نفرض لك شيئاً. فانطلق معهما ففرضوا له كلَّ يومٍ شطر شاةٍ، وماكَسوهُ (أي نقصوه ولم يُعطوه) في الرأس والبطن [1] !!.. وكان يذهب إلى أهله بالسُّنُح ماشياً على رجليه، وربما ركب على فرس، وعليه إزارٌ ورداء!.. كل هذا بعد أن زهد في الأموال التي تجري بين يديه وكأنها سيلٌ جارفٌ، ومفاتن الدنيا كلها معروضةٌ عليه، وكان بمقدوره أن يحيا حياة الأبطارة والأكاسرة والملوك المترفين، لكنه أبى إلَّا أن يعيش عيش النُّسَّك الزَّاهدين!.

- ودعا الفاروق عمر سعيداً بن عامر ذات يومٍ فقال له: يا سعيد! إنَّا مُوَلُّوكَ على أهل حمص، فقال سعيد: يا عمر! نشدتك الله ألَّا تفتنني!! فتغير وجه عمر

(1) انظر: فتح الباري (827/5) شرح حديث رقم (2070).

غاضباً: ويحكم! وضعتم هذا الأمر في عنقي ثم تخلَّيتُم عني؟! والله لا أدعُك. ثم ولَّاه على حمص..ثم اقترب عمرُ من سعيد قبل سفره، وخَفَتَ إليه: ألا نفرض لك رزقاً؟! قال: وما أفعل به يا أمير المؤمنين؟! فإنَّ عطائي من بيت المال يزيد عن حاجتي، ثم مضى إلى حمص.. فلم يمضِ وفتٌ طويلٌ حتى قَدِمَ عمرُ على أهل حمصَ وأمرهم أن يكتبوا له فقراءهم، فرفع الكتاب، فإذا فيه سعيد بن عامر! قال: من سعيد بن عامر؟! قالوا: يا أمير المؤمنين أميرنا، قال: وأميركم فقير؟ قالوا: نعم! فعجِبَ، فقال: كيف يكون أميركم فقيراً؟ أين عطاؤه أين رزقه؟! اقلوا: يا أمير المؤمنين لا يُمسِكُ شيئاً، فبكى عمر حتى عمد إلى ألف دينار فصرَّها وبعث بها إليه.. فلما نظر سعيد إلى الدنانير جعل يسترجع، فقالت له امرأتُه: ما شأنك؟ أُصيب أمير المؤمنين؟ قال: أعظم، قالت: فظهرت آية؟ قال: أعظم من ذلك، قالت: فأمرٌ من الساعة؟ قال: بل أعظم من ذلك، قالت: فما شأنك؟ قال: الدنيا أتتني! الفتنة أتتني حتى حلَّت عليَّ! قالت: فاصنع فيها ما شئتَ، قال لها: عندك عون؟ قالت: نعم، قال: ائتني به، فأتته بخمارها فصرَّ الدنانير فيها صرراً، ثم جعلها في مخلاةٍ، ثم بات يُصلِّي حتى إذا أصبح، ثم اعترض بها جيشاً من جنود المسلمين فأمضاها كلها[1]!!.

- ولما قَدِمَ عمرُ الشامَ، تلقاه الأمراء والعظماء، فقال: أين أخي أبو عبيدة؟ قالوا: يأتيك الآن. فجاء على ناقةٍ مخطومةٍ بحبل، فسلَّم عليه، ثم قال للناس: انصرفوا عنَّا، فسار معه حتى أتى منزله، فنزل عليه، فلم ير في بيته إلَّا سيفه وترسه ورحله! فقال عمر: لو اتَّخذت متاعاً؟-أو قال: شيئاً-، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين! إنَّ هذا سيبلغنا المقيل!!.

(1) انظر: تاريخ دمشق (21/145-148،146-149)، أسد الغابة (2/483-484).

- وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان يُطعِمُ الناس طعام الإمارة، ويُكرِمُهُم إكرام الكرماء الأثرياء، فما أن يدخله بيته حتى يأكل الخلَّ والزيتَ [1] !.. وهو الخليفة الذي عمَّ الرخاءُ في عهده الناسَ حتى هجر كثير منهم حياة الزهادة والتقشف، وأَلِفَت أنفسهم الدَّعَة والرَّفَه، وامتلأ بيت المال بأموال الجزية والخراج والعشور والغنائم التي أوردتها الفتوحات الواسعة في عهده، فلم يمد ذو النورين يديه إلى دينارٍ واحدٍ قطُّ لنفسه إبان خلافته، وهذا هو عين الزُّهد!!.

- وبعد أن فتح المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ بيتَ المقدس سنة (16هـ)، أمر الفاروق كتائب الفتح الإسلامي بقياد عمرو بن العاص ﷺ بالتوجه نحو المحطة التالية مباشرةً، ألا وهي مصر، فلا زال المسلمون يفتحون المدينة تلو المدينة، والقلعة تلو القلعة حتى إذا ما وصلوا إلى مدينة «بلبيس» ونجحوا في فتحها، وجدوا فيها ابنة المقوقس عظيم القبط واسمها أرمانوسة، وكانت مقرَّبةً من أبيها، وكانت في زيارة للمدينة مع خادمتها بربارة هرباً من زواجها من قسطنطين بن هرقل، ابن ملك الروم، وكانت غير راغبة في الزواج منه، فلما تمكنت مجموعة من الجيش الإسلامي من أسر أرمانوسة جمع عمرو بن العاص الصحابة وذكَّرهم بقوله تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن:60]، ثم قال: «لقد أرسل المقوقس هديةً إلى نبينا، وأرى أن نبعث إليه بابنته وجميع من أسرناهم من جواريها وأتباعها، وما أخذنا من أموالهم» فاستصوَبوا رأيه، فأرسلها عمرو إلى أبيها مُعزَّزةً مُكرَّمةً ومعها كل مجوهراتها وجواريها ومماليكها، وقالت لها خادمتها بربارة أثناء سفرهما: «يا مولاتي! إنَّ العرب يُحيطون بنا من كل جانب، فقالت أرمانوسة: إني آمن على نفسي وعرضي

(1) انظر: الزهد، للإمام أحمد رقم (684)، حلية الأولياء (60/1).

في خيمة العربي، ولا آمن على نفسي في قصر أبي»!.. ولما وصلت إلى أبيها سُرَّ بها وبتصرف المسلمين معها [1] !!.

- وحين بعث المقوقس برسالةٍ إلى عمرٍ بن العاص، وردَّ عليه عمرو، سأل المقوقس رُسُله الذين حملوا رسالته إلى المسلمين: كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا: « رأينا قوماً الموت أحبُّ إليهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، أميرهم كواحدٍ منهم، ما يُعرَفُ كبيرهم من صغيرهم، ولا السيد من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم» !!.

- وكان هرقل دائماً ما يتساءل ويسأل أصحابه الذي شهدوا المعارك ضد المسلمين عن أعدائهم فقال لهم يوماً: «ويلكم! أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يُقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا: بلى! قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن، قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخٌ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم.. ومن أجل أنَّا نشر الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونُفسد في الأرض.. فقال: أنت صدقتني!!» [2]..

- وبعث كسرى يزدجر إلى ملك الصين يستغيث به بعد انهيار إمبراطوريته على يد الصحابة، فجعل ملك الصين يسأل رسول يزدجر عن هؤلاء المسلمين الذين فتحوا البلاد وقهروا العباد، فجعل الرسول يصفهم له: كيف يصلون؟ وكيف

(1) انظر: سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، للصلابي، ص 478.

(2) المجالسة وجواهر العلم، رقم (1259)، البداية والنهاية (15/7).

يقاتلون؟ فكتب إلى يزدجر: «إنَّه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيشٍ أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق لك علي، ولكن هؤلاء الذين وصفهم لي رسولك، لو يحاولون هدَّ الجبال لهدوها، ولو خلا لهم سربهم أزالوني ما داموا على وصف، فسالِمهم وارضَ منهم بالمسالمة، ولا تُهيِّجهم ما لم يُهيِّجونك»!!.

- وكان أبو عقيل أول من جُرِح يوم اليمامة، رُمي بسهمٍ فوقع بين منكبيه وفؤاده، فجُرِح في غير مقتل، فأخرج السهم، وهن شقُّه الأيسر، فأخذ إلى معسكر المسلمين، فلما حمي القتال، وتراجع المسلمون إلى رحالهم ومعسكرهم، وأبو عقيل واهنٌ من جرحه سمع معن بن عدي يصيح: يا للأنصار! الله الله والكرة على عدوكم، وتقدم معن القوم، ونهض أبو عقيل يريد قومه، فقال له بعض المسلمين: يا أبا عقيل! ما فيك قتال. قال: قد نوَّه المنادي باسمي، فقيل له: إنما يقول با للأنصار لا يعني الجرحى، فقال أبو عقيل: فأنا من الأنصار، وأنا أُجيب ولو حبواً، فتحزَّم أبو عقيل وأخذ السيف بيده اليمنى مجرَّداً، ثم جعل يُنادي: يا للأنصار! كرَّةٌ كيوم حنين، فاجتمعوا جميعاً، وتقدموا بروح معنوية عالية يطلبون الشهادة أو النصر، حتى أقحموا عدوَّهم الحديقة.. وفي هذا الهجوم قُطِعت يد أبي عقيل من المنكب، ووُجِدت به أربعة عشر جُرحاً كلها قد خلُصت إلى مقتل[1]، قبل أن تفيض روحه إلى بارئها شهيداً في سبيله رضوان الله عليه.

- ويقول سيدنا خالد بن الوليد ﷺ: «ما ليلة تزف إليّ فيها عروس أنا لها محب أو أبَشَّر فيها بغلام، بأحب عندي من ليلة شديدة البرد، في سرية من المهاجرين، أصبّح بهم أعداء الله!!».. ثم ها هو سيف الله المسلول في آخر عمره يملؤه الحزن والألم بسبب موته في غير ميادين الجهاد بقوله: «لقد لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في

(1) أبو بكر الصديق، للصلابي، ص 240.

جسدي شبر إلا وفيه ضربةٌ بسيف، أو رميةٌ بسهم، أو طعنةٌ برمح، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء!!».

- وكان الجيش الإسلامي بقيادة أبي سبرة بن أبي رهم متمركزاً أمام مدينة تستر ذات الحصون المشيدة والقلاع المنيعة بعد أن لجأ إليها الفرس المجوس وعلى رأسهم قائدهم الشهير الهرمزان، وذلك عقب انهزامهم في رامهرز، فبقي المسلمون يُحاصرون تستر وأحاطوا بمن فيها إحاطة السوار بالمعصم شهوراً عديدة، وقابلوا فيها جيش الأعداء في ثمانين معركة! فاشتهر منهم عددٌ بقتل مائة مبارزٍ سوى من قُتِلوا في أثناء المعارك، وقد ذُكِر منهم البراء بن مالك [1] !!.. وإضافةً إلى ذلك فقد رُوِيَ عن البراء موقف بطولي عظيم؛ فبينما المسلمون يُحاصرون حصن تستر إذا بالفرس يُلقون بالكلاليب في سلاسل محماة فتعلق واحدةٌ منها بأنس بن مالك (أخو البراء) فرفعوه حتى أقلُّوه من الأرض، وهنا أقبل البراء يسعى حتى وثب في الجدار ثم قبض بيده على السلسلة، فما برحت يداه تُدخِّنان حتى قطع الحبل، ثم نظر إلى يده فإذا عِظامها تلوحُ قد ذهب ما عليها من اللحم [2] !!..حتى ما إذا كان آخر لقاء بين المسلمين وأعدائهم، واشتد القتال نادى المسلمون البراءَ بن مالك وقالوا: «يا براء! أقْسم على ربك ليهزمنَّهم لنا» فقال: «الله اهزمهم لنا، واستشهدني!». وقد كان البراء مستجاب الدعوة وعرف الناس عنه ذلك بموجب حديث رسول الله ﷺ: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبر ذِي طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبرهُ؛ مِنْهُمُ الْبراءُ بْنُ مَالِكٍ» [3] . ولذلك فما أن دعا البراء بذلك الدعاء حتى استجاب الله له وهزم المجوسَ ومنح المسلمين أكتافهم، ثم رماه الهرمزان برمح رميةً أسقطته صريعاً شهيداً مغتبطاً بلقاء ربّه.

---

(1) انظر: التاريخ الإسلامي (الخلفاء الراشدون)، للحميدي.

(2) انظر: المعجم الكبير (2/27-28)، الإصابة (1/524-525).

(3) صحيح: سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب البراء بن مالك، برقم (3854).

- وكان عبد الله بن حذافة على رأس جيش المسلمين ضد الروم في قيسارية أيام خلافة عمر، فلما أُسِر أُخِذَ إلى ملك الروم فقالوا: إنَّ هذا من أصحاب محمد. فقال: هل لك أن تتنصَّر وأُعطيك نصف مُلكي؟ قال: لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع مُلك العرب ما رجعت عن دين محمد طرفة عين! قال: إذاً أقتلك! قال:أنت وذاك.فأمر به، فصُلِب، وقال للرماة: ارمُوهُ قريباً من بدنه، وهو يعرض عليه، ويأبى، فأنزله ودعا بقدْرٍ، فصبَّ فيها ماءً حتى احترقت، ودعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما، فأُلقي فيها، وهو يعرض عليه-أي على ابن حذافة- النصرانية، وهو يأبى. ثم بكى. فقيل للملك: إنَّه بكى، فظنَّ أنه قد جزع، فقال: رُدُّوه. ما أبكاك؟ قال: قلتُ: هي نفسٌ واحدةٌ تُلقى الساعة فتذهب، فكنتُ أشتهي أن يكون بعدد شعري أنفسٌ تُلقى في الله في النار! فقال له الطاغية: هل لك أن تُقبِّل رأسي وأُخلِّي عنك؟ (قال ذلك لحفظ ماء الوجه)، فقال له عبد الله: وعن جميع الأسارى؟ قال: نعم. فقبَّل رأسه، وقَدِمَ بالأسارى على عمر، فأخبره خبره. فقال عمر: حقٌّ على كلِّ مسلمٍ أن يُقبِّل رأسَ ابن حذافة، وأبنا أبدأ، فقبَّل رأسه [1]!!

- و كان لسيدتنا الخنساء أربعة أبناء رجال جعلت تُحرِّضهم يوم القادسية على القتال، وكان مما قالته لهم: «إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، وإنكم لبنو أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ، ما خُنتُ أباكم ولا فضحت خالكم». فلما أصبحوا باشروا القتال واحداً بعد الآخر حتى قُتِلوا! فما أن بلغ الخبر أمهم الخنساء قالت: «الحمد لله الذي شرَّفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته» [2].

- ولما حاصر مسلمة بن عبد الله حصناً في معركة فتح دمشق ندب الناس إلى نقبٍ منه، فما تقدم إليه أحد، وكل من يتقدم يواجهه سيلٌ من النبال فيرتد، وفجأةً

(1) سير أعلام النبلاء (14/2).

(2) انظر: الإصابة (13/336-337).

تقدم رجلٌ نحيلٌ مندفعاً على فرسه لا يبالي النبال حتى دخل النقب وفتح الباب للمسلمين فلما انتهت الحرب نادى مسلمة يسأل عن صاحب النقب، فلم يصل إلى شيء، ثم هدَّد وتوعد، وفجأةً تقدم إلى خيمة الأمير من قال له: «أيها الأمير! لو عاهدتني ألا تسألني عن اسمي قلت لك عن صاحب النقب». قال مسلمة: «أعاهدك». قال: «أنا هو!».. ثم قام فخرج من خيمة الأمير وذاب في غمار الناس، فكان مسلمة لا يُصلي بعدها صلاةً إلا قال في سجوده: «اللهم اجعلني مع صاحب النقب!».

- و» لما استُخلِف عمر بن عبد العزيز وفد عليه قومٌ من أهل سمرقند، فرفعوا إليه أنَّ قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر[1]، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين أُخرِجوا! فنصب لهم جُميع بن حاضر الباجي، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء، فكره أهل مدينة سمرقند الحروب وأقرُّوا المسلمين! فأقاموا بين أظهرهم»[2]!!.. نعم هكذا!.. قائدٌ يدخل بجيشه مدينةً بعد فتحها دون إفساد أو تخريب، ثم يرفع أهل المدينة شكوى إلى خليفة المسلمين ضد ذلك القائد وجيشه بأنهم دخلوا مدينتهم غدراً، فيقوم الخليفة فوراً بتنصيب قاضٍ نزيهٍ للفصل في القضية، فيحكم القاضي ببطلان ذلك الفتح وعدم مشروعيته لمخالفته قواعد الفتوح والحروب التي جاء بها الإسلام، ثم يأمر بإعادة الدخول-إن صح التعبير- دون غدرٍ، ولكن أهل تلك المدينة يرفضون مواجهة الجيش الفاتح ويرضون-طوعاً واختياراً- بدخولهم من جديد ليبقى الكلُّ تحت مظلة هذا الدين العظيم!!.

(1) وكان البطل قتيبة بن مسلم الباهلي رحمه الله قد فتح سمرقند سنة (93هـ).

(2) فتوح البلدان، ص 593، ط (1407هـ/1987م) بيروت-لبنان، والكامل في التاريخ (327/4).

• ولما حَكَمَ عبد الرحمن الناصر بلاد الأندلس أعلى من شأن العلماء ورفع منزلتهم فوق منزلته هو نفسه، ورضخ لأوامرهم ونواهيهم؛ ومما يرويه المؤرخون عنه في ذلك أنَّ الناصر كان يحضر خطبة الجمعة، وكان يخطبها في أيامه العالم الجليل والقاضي الكبير المنذر بن سعيد البلوطي الذي اشتهر بالشدة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمام أيِّ كان، وكان عبد الرحمن الناصر في ذلك الوقت قد بنى لنفسه قصراً كبيراً رصَّعه بشيءٍ من الذهب والفضة، وهنا وجد الخطيب البلوطي في الخطبة الفرصة السانحة لتقريع عبد الرحمن الناصر وذمِّ سرفه وترفه، وكان مما قال له-و الدموع تنحدر على لحيته-: «و الله يا أمير المؤمنين! ما ظننت انَّ الشيطان- لعنه الله- يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن أتمكَّنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله من فضله ونِعمه، وفضَّلك به على العالمين، حتى يُنزلك منازل الكافرين»، وهنا شعر الناصر-و هو الحاكم- بالخشوع من كلام العالم الجليل، كما شعر بالخجل، وتفاجأ من جرأتِه تلك، فلما رجع من الخطبة قال لابنه: «و الله لقد تعمَّدني منذرٌ بخطبته! وما عنى بها غيري، فأسرف عليَّ، وأفرط في تقريعي،و لم يُحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يُقرعني!».. وهنا أشار عليه أحدهم بعزل الخطيب القاضي المنذر بن سعيد، فبماذا ردَّ عليه الناصر؟ قال له مغضباً: «أَمِثل منذرٍ بن سعيد في فضله وخيره يُعزل؟! يُعزل لإرضاء نفسٍ ناكبةٍ عن الرشد، سالكةٍ غير قصد؟! هذا والله لا يكون، وإني لأستحي من الله ألا أجهل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذرٍ في ورعه وصِدْقِه!!».. وما عزله حتى مات! [1]

• وجاء في كتاب «الطرق الحكمية» لشيخ الإسلام ابن القيم أنَّه في يومٍ من الأيام جيء برجلٍ إلى علي ﷺ -و كان أميراً للمؤمنين- وقد وُجِدَ في خربةٍ بيده سكِّينٌ متلطخةٌ بدم، وبين يديه قتيلٌ يتشحَّط في دمه. فسأله؟ فقال: أنتا قتله. قال: اذهبوا

(1) انظر: مطمح الأنفس، ص 100، تاريخ قضاة الأندلس، ص 70.

به فاقتلوه، فلمَّا ذُهِب به أقبل رجلٌ مسرعاً، فقال: يا قوم! لا تعجلوا، رُدُّه إلى علي. فردُّوه، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين! ما هذا صاحبه، أنا قتلته! فقال عليٌّ للأول: ما حملك على أن قلتَ: أنا قاتله ولم تقتله؟ قال: يا أمير المؤمنين! وما أستطيع أن أصنع وقد وقف العسس على الرَّجل يشخَّط في دمه وأنا واقفٌ، وفي يدي سكينٌ، وفيها أثر الدم، وقد أُخِذْتُ في خربةٍ؟! فخفت ألاَّ يُقبَلَ مني وأن يكون قسامةٌ، فاعترفت بما لم أصنع، واحتسبت نفسي عند الله. فقال عليٌّ: بئسما صنعت، فكيف كان حديثك؟ قال: إني رجلٌ قصَّابٌ، خرجت إلى حانوتي في الغلس، فذبحت بقرةً وسلختها، فبينما أنا أسلخها والسِّكِّين في يدي أخذني البول، فأتيت خربةً كانت بقربي فدخلتُها، فقضيت حاجتي، وعُدتُ أريد حانوتي، فإذا أنا بهذا المقتول يتشخَّطُ في دمه، فراعني أمرُه، فوقفت أنظر إليه والسِّكِّين بيدي، فلم أشعر إلاَّ بأصحابك قد وقفوا عليَّ فأخذوني، فقال الناس: هذا قتل هذا، ما له قاتلٌ سواه. فأيقنتُ أنَّك لا تترك قولهم لقولي، فاعترفت بما لم أجنِهِ! فقال عليٌّ للمُقِرِّ الثاني: فأنت كيف كانت قصتك؟ فقال: أغواني إبليسٌ، فقتلت الرجل طمعاً في ماله، ثم سمعت حسَّ العسس، فخرجت من الخربة، واستقبلتُ هذا القصَّاب على الحال التي وصف، فاستترت منه ببعض الخربة حتَّى أتى العسس، فأخذوه وأتَوْكَ به، فلما أمرتَ بقتله علمتُ أني سَأُبوءُ بدمه أيضاً، فاعترفت بالحقِّ! فقال عليٌّ لابنه الحسن: ما الحكم في هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين! إن كان قتل نفساً فقد أحيا نفساً؛ وقد قال الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة:32]، فخلَّى عليٌّ عنهما، وأخرج ديَّة من بيت المال[1]!!.

(1) الطرق الحكمية (1/82-84). الخربة: موضع الخراب، وهي عكس العمران. يتشخَّط في دمه: أي

- وقد اتَّصف السلطان صلاح الدين الأيوبي بصفة التواضع، وكان قريباً من الناس، كثير الاحتمال والمداراة، لم يتكبر على أحدٍ من أصحابه، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوبه وأصحابه، يسمع مع أحدهم ما يكره ولا يُعلِمُهُ بذلك ولا يتغير عليه، وكان بساطُهُ يُداس عند التزاحم عليه لعرض القصص، وهو لا يتأثر بذلك، ويذكر ابن شداد أنَّه نفرت بغلته يوماً من الجمال وهو راكبٌ في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يبتسم!.. وكان قدوةً حسنةً لأتباعه، يبدأ العمل بنفسه ثم يدعو غيره للاقتداء به، وينمُّ تصرفه هذا عن إدراكٍ سليم، فعندما قرر بناء سور القدس وحفر خندقه، تولى ذلك بنفسه، ونقل الأحجار على عاتقه، وتأسى به جميع الناس الفقهاء والأغنياء والأقرباء والضعفاء، فاحترمه الناس من أجل ذلك وأحبُّوه، وكانت هذه المحبة هي سر نجاحه وقوته، لأنَّ ما كسبه غيره باستعمال أساليب القسوة والترهيب، حصل عليه هو بالمحبة والتعاطف والسلوك السليم [1] رحمة الله عليه.

- وفي خضم إجراءات محمد الفاتح الشاقة لفتح القسطنطينية توجه رحمه الله إلى خيمة شيخه وأستاذه شمس الدين آق، فقبَّل يده وقال: علمني يا سيدي دعاءً أدعو الله به ليُوفقني، فعلَّمه الشيخ دعاءً، وخرج السلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العام.. أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه، لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة، ومنع حراس

يتخبَّط فيه. الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح..

وقد علَّق ابن القيم-رحمه الله- على هذه الحادثة قائلاً: «و هذا إن وقع صلحاً برضا الأولياء فلا إشكال، وإن كان بغير رضاهم فالمعروف من أقوال الفقهاء: أنَّ القصاص لا يسقط بذلك؛ لأنَّ الجاني قد اعترف بما يُوجِبُهُ، ولم يوجد ما يُسقطه، فيتعيَّن استيفاؤه».

(1) صلاح الدين الأيوبي، للصلابي، ص 250-251، النوادر السلطانية، لابن شداد، ص 63، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص 225. (بتصرف)

الخيمة رسول السلطان من الدخول! وغصب محمد الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشقَّ جدار الخيمة في جانبٍ من جوانبها ونظر إلى الداخل، فإذا شيخه ساجداً لله في سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس على شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تنحدر على خدَّيه، فقد كان يُناجي ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله الفتح القريب.. وعاد السلطان محمد الفاتح عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغراتٍ بالسور تدفَّق منها الجنود إلى القسطنطينية. ففرح السلطان بذلك وقال: ليس فرحي لفتح المدينة، إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني [1]، يقصد شيخه العالم الجليل شمس الدين آق.

- وبعد سقوط غرناطة ينتفض المسلمون بقيادة المجاهد البطل موسى بن أبي الغسان آخر انتفاضةٍ علَّ الله ينصُرُهم على الصليبيين ويتداركون ما اقترفه خونة غرناطة، فأبدى موسى وأصحابه بطولات كبيرة وتضحيات جسيمة تحسب وكأنهم من شجعان القرون الأولى الفاضلة! ورغم أنَّ هؤلاء المجاهدين فشلوا في تحقيق أدنى نصرٍ لهم بقيادة البطل موسى، غير أنَّ التاريخ حفظ لهذا الأخير خطابه القوي لأهل غرناطة: «لا تخدعوا أنفسكم! ولاظنوا أنَّ النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة مَلِكِهم؛ إنَّ الموت أقل ما نخشى (يريد أنَّ هناك ما هو أصعب من الموت)؛ فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش والتعسب الوحشي، والسياطو الأغلال، وأمامنا السجون والأنطاعو المحارق، هذا ما سوف نعاني من مصائب وعسف، وهذا ما

(1) الدولة العثمانية، ص 114-115.

سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة، التي تخشىالآن الموت الشريف، أما أنا فو الله! لن أراه!» [1].

- وفي مدينة مِرْزا بور بالهند يرى الناس العَلَمَ الكبير والزعيم المجاهد الشهيد أحمد بن عرفان يُنْزِلُ بنفسه إحدى حمولات المراكب البحرية التي كان من المفترض أن يُنزِلها الحمَّالون، ولكن بسبب تأخرهم بادر هو رحمه الله في العمل وهو من هو وجاهةً وشرفاً وغناءً! بل إنَّ الحمَّارين-أي سائقو الحمير- ذلك التواضع دعوا السيد أحمد إلى بلدتهم فأجابهم، وحضر وليمتهم، وكان ذلك صدمةً للأغنياء والوجهاء والأشراف الذين رجوه ألا يصنع، وأنَّ مؤاكلة الحمَّارين عيبٌ كبير، لكنه بيَّن لهم أنَّ هؤلاء يقومون بخدمةٍ جيدة، وأنَّ الأنبياء كانوا يركبون الحمير، فأي ضير في إجابة دعوتهم [2] ؟!!..

(1) دولة الإسلام في الأندلس (7/254-255).

(2) انظر: عظماء منسيون (1/22-23).

ولا زالت العظمة تجري في عروقنا

يا إخوة!..

تذكَّروا!.. نحن المسلمين!..

«مِنَّا أبو بكر وعمر ونور الدين وصلاح الدين وأورنك زيب..

مِنَّا خالد وطارق وقتيبة وابن القاسم والملك الظاهر..

مِنَّا البخاري والطبري وابن تيمية وابن القيم وابن حزم وابن خلدون..

مِنَّا الغزالي وابن رشد وابن سينا والرازي..

مِنَّا الخليل والجاحظ وأبو حيان..

مِنَّا أبو تمام والمتنبي والمعري..

مِنَّا كل خليفة كان الصورة الحيَّة للمثل البشرية العليا.. وكل قائد كان سيفاً من سيوف الله مسلولاً.. وكل عالم كان من البشر كالعقل من الجسد.. مِنَّا مائة ألف عظيم وعظيم..

نحن المسلمين!..

قوتنا بإيماننا، وعزُّنا بديننا، وثقتنا بربِّنا..

قانوننا قرآننا، وإمامنا نبيُّنا، وأميرنا خادمنا..

وضعيفنا المحق قويٌّ فينا، وقويُّنا عونٌ لضعيفنا..

وكلُّنا إخوانٌ في الله، سواءٌ أمام الدين..

نحن المسلمين!..

مَلَكنا فعَدَلنا، وبنينا فأعلينا، وفتحنا فأوغلنا.. وكُنا الأقوياء المُنصفين، سننًا في الحرب شرائع الرأفة، وشرعنا في السلم سنن العدل، فكُنَّا خير الحاكمين، وسادة الفاتحين..

أَقَمنا حضارةً كانت خيراً كلها وبركات، حضارة روحٍ وجسد، وفضيلةٍ وسعادة، فعمَّ نفعها الناس، وتفيَّأ ظلالها أهل الأرض جميعاً، وسقيناها «نحن» من دمائنا، وشدناها على جماجم شهدائنا..

وهل خلت أرضٌ من شهيدٍ لنا قضى في سبيل الإسلام والسلام، والإيمان والأمان؟..

نحن المسلمين!..

لا نَهِنُ ولا نحزن ومعنا الله..

ونحن نسمع كل يومٍ ثلاثين مرةً هذا النداء العلو المقدس هذا النشد القوي: الله أكبر!..

البطولة سجيةٌ فينا، وحب التضحية يجري في عروقنا..

لا تنال من ذلك صروف الدهر، ولا تمحوه من نفوسنا أحداث الزمان..

لنا الجزيرة التي يشوي على رمالها كل طاغٍ يطأ ثراها ويعيش أهلها من جحيمها في جنات..

لنا الشام وغوطتها التي سُقيت بالدم، لنا فها الجبل الأشم..

لنا في العراق لنا الرمثة وسهول الفرات..

لنا فلسطين التي فيها جبل النار..

لنا مصر دار العلم والفن ومثابة الإسلام..

لنا المغرب كله، لنا الريف دار البطولات والتضحيات..

لنا القسطنطينية ذات المآذن والقِباب..

لنا فارس والأفغان والهند وجاوة

لنا كل أرضٍ يُتلى فيها القرآن وتصدح مناراتها بالآذان..

لنا المستقبل.. المستقبل لنا إن عدنا إلى ديننا» [1]..

***

يا إخوة.. لقد ظهر علينا اليوم كل خائن للدين وللأمة..

وظهر علينا كل عميلٍ لأعدائنا وطاعنٍ لنا في ظهورنا..

وظهر علينا كل مجرمٍ قتَّالٍ للأبرياء، سفَّاكٍ للدماء، ظلَّامٍ للعباد، ونهَّابٍ لأرزاق البلاد ..

فهل يُعقل ألا يظهر منا المُصلحون والمُجدِّدون والمُخلصون العظماء الذين يذودون عن بيضة الإسلام ويُفنون أعمارهم في سبيل وحدة الأمة ونهضتها وسيادتها ؟!..

كلا وربي!..

فو الله إنَّ مستقبل الإسلام سيحمل البشرى لنا مهما تكاثرت قوى الظلم والطغيان وتكالفت علينا، وإنَّ الشر مهما احلولك ظلامه فنور الله حتماً سيسطع ويُضيء..

قال ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمِ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِي أَمْرُ اللهِ وهُمْ كَذَلِكَ» [2]..

وقال ﷺ: «إنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةَ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مَائَةَ عَامٍ مَنْ يُجدِّدُ لَهَا دِينَهَا» [1]..

---

(1) قصص من التاريخ، علي الطنطاوي، ص 16-20. (باختصار وتصرف)

(2) صحيح: سنن الترمذي (2229)، سنن ابن ماجه (10) مختصراً، وانظر: السلسلة الصحيحة (1957).

وقال ﷺ: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ المَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيرٌ أَمْ آخِرُهُ» [2]..

فكُن على يقين عزيزي القارئ.. حتماً سننتصر.. طال الزمن أو قصُر..!

سيسقط الخونة والعملاء والمجرمون والفاسدون.. وسيظهر المُخلصون والمُصلحون منَّا في هذه الأمة على أعدائنا.. وسيُعِزُّ اللهُ الإسلامَ وأهلَه ولو كره الكافرون.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر:51].

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝٥١﴾ [النساء:141].

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج:38].

وأُفوِّضُ أمري إلى الله، إنَّ الله بصير بالعباد..

---

(1) صحيح: سنن أبي داود (4291)، وانظر: السلسلة الصحيحة (599).

(2) صحيح: سنن الترمذي (2869)، وانظر: السلسلة الصحيحة (2286).

ويشرّفني في الأخير أن أستقبل ملاحظاتكم أعزائي القراء وانطباعاتكم وانتقاداتكم بعد قراءتكم لفصول هذا الكتاب المتواضع، والذي أرجو أن يُحَقِّقَ المقصد العام من تأليفه، وهو الذكرى النافعة لنا بتاريخنا وهويتنا العظيمة كمسلمين، والسير على نهج أجدادنا العظماء في سبيل النهضة التي ننشدها لأمتنا.. وما في الكتاب من أخطاء تاريخية أو علمية حريٌّ بكم أن تُبيِّنوها لي حتى أقوم بتصحيحها وتصويبها واستدراكها في ما قد يأتي من جديد الطبعات، ولكم أجر ذلك إن شاء الله تعالى.

البريد الإلكتروني:
abderrahmanzenki@gmail.com

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

المصادر والمراجع

* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.

* البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، مؤسسة المعارف.

* الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية- بيروت.

* ابن المبرد، يوسف بن الحسن بن عبد الهادي: محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، دراسة وتحقيق: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الفريح، أضواء السلف- الرياض.

* ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية.

- صفة الصفوة، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث القاهرة.

- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، دار الكتب العلمية- بيروت.

- مناقب أميرالمؤمنين عمر بن عبد العزيز، دار الكتب العلمية- بيروت.

* ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله: تاريخ مدينة دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

* أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة.

* ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي: البداية والنهاية، مكتبة المعارف- بيروت.

* ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري: الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان.

- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق وتعليق: علي محمد عوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية- بيروت.

* الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، حقَّقه وخرَّج أحاديثه:شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة.

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق وتعليق: د/بشار غوار معروف، دار الغرب الإسلامي.

* ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق: عبد المنعم عامر.

* السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء، دار المنهاج للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية.

* ابن خلدون، عبد الرحمن المغربي: العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

* المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة.

* الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب- الدار البيضاء.

* خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة.

* عبد الله العقيل (المستشار): من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، دار البشير، الطبعة الثامنة.

* محمود شاكر: التاريخ الإسلامي (الخلفاء الراشدون، العهد الأموي، الدولة العباسية، العهد المملوكي، العهد العثماني)، المكتب الإسلامي.

* د/عبد العزيز بن عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع.

* منير محمد الغضبان: معاوية بن أبي سفيان صحابي كبير وملك مجاهد، دار القلم- دمشق،الطبعة الثالثة.

* د/علي محمد الصلابي: (موسوعة السير).

- الدولة الأموية، دار المعرفة، الطبعة الثانية.

- الدولة الزنكية، دار المعرفة، الطبعة الأولى.

- دولة السلاجقة، مؤسسة إقرأ، الطبعة الأولى.

- الدولة العثمانية، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى.

* د/راغب السرجاني: ماذا قدَّم المسلمون للعالم، مؤسسة إقرأ، الطبعة الثانية.

- قصة الأندلس، مؤسسة إقرأ، الطبعة الأولى.

- قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، مؤسسة إقرأ، الطبعة الأولى.

- قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي، مؤسسة إقرأ، الطبعة الثانية.

* عبد الستار الشيخ: (أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب)، دار القلم- دمشق.

* جهاد الترباني: مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ، دار التقوى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

* محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

- مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، الناشر: حسين عنان، الطبعة الخامسة.

* علي الطنطاوي: رجال من التاريخ، دار البشير للثقافة، دار المنارة-جدة.

- قصص من التاريخ، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية.

- فكر ومباحث، مكتبة المنارة، الطبعة الثانية.

- قصتنا مع اليهود، دار المنارة، الطبعة الأولى.

* د/مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، دار الوراق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

* محمد بن طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري، إشراف ومراجعة: محمد صبحي حسن حلَّاق، دار ابن كثير-دمشق بيروت.

* البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي: صحيح البخاري.

* مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم.

* أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود.

* الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى: سنن الترمذي.

* ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجه.

* الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية.

* ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار طيبة.

* النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية.

* الألباني، محمد ناصر الدين: السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع- الرياض.

* ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر- بيروت.

* الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثامنة.

الفهرس

لماذا التاريخ؟ 5
ماذا قالوا عن التاريخ 7
بين يدي الكتاب 11
أشداء على الكفار 13
النصر المعجز 23
استقلال القضاء 29
مع ملك الصين 37
العثمانيون والشمال الإفريقي 42
فتوحاتنا وفتوحاتهم 47
اندحار هرقل 54
عماد الدين زنكي وفتح الرها 59
من روائع خالد بن الوليد 64
من روائع القعقاع 69
من روائع عماد الدين زنكي 74
من روائع نور الدين زنكي 82
من روائع القانوني 87
وفاء العظماء 91
عملاقٌ في زمن الأقزام 96
الغزو الإسلامي لروما 109

ذهول المقوقس 113
المنصورة وأسر ملك فرنسا 116
الطريق إلى عين جالوت 120
نصر الزلاقة 128
نصر الأرك 133
مواقف لعظماء لم ينصفهم المؤرخون 137
غلام زرافة 144
ما بعد فتح القدس 148
ما بعد فتح القسطنطينية 153
عندما يجتمع المسلمون 157
أسود الشيشان 164
نصر رمضان 1393 171
الأمير عبد القادر والفتنة الطائفية 177
خيبة صهيوني 180
مشاهد من القرن 14 185
المجاهد الهمَّام 196
مصانع العظماء 205
شذرات 209
ولا زالت العظمة تجري في عروقنا 222
المصادر والمراجع 227